على كل لون

على كل لون



تصميم الغلاف: د. عبد اللّه رجب

الطبعة الأولى: يناير ٢٠٢٠

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية:٤٥٩٢/٢٠٢٠

الترقيم الدولي: ٦-٢٣-٦٧٩٨-٩٧٧-٩٧٨

مدير النشر: هند عبد اللّه

إشراف عام: رباب الشهاوي

الفؤاد للنشر والتوزيع

برج سانت فاتيما. أمام جنينة مول. مدينة نصر

Alfouad_publishing@hotmail.com
facebook.com/fouadpublishing



على كل لون

د. صلاح عبد الله

الفؤاد للنشر والتوزيع

ليته مع ذلك عاش

لأن أبي مات وأنا في الخامسة من عمري لا تحتفظ ذاكرتي بذكريات كثيرة تخصه، والذكريات القليلة المتبقية في ذاكرتي سلبية للأسف.

كل ما أذكره عن أبي أنه كان فظا غليظ القلب، يعاقب أشد العقاب لأتفه الأسباب، وكان ممتلئ الجسم شره التدخين يجمع صوته بين الصخب والخشونة. وكان أبي يملك عربة خشبية مثبتة في الأرض يبيع عليها بعض الأطعمة الصباحية كالفول والطعمية وما جرى مجراهما، وكان هذا عملا شاقا يحتاج غير قليل من التجهيز، من تدميس الفول، إلى دق عجينة الطعمية، إلى تخليل المخلل وعمل السلطة، إلى سلق البيض وتقشيره، إلى جلب الخبز من المخابز البعيدة.

لهذا اتخذ أبي لنفسه زوجتين منهما أمي، لا عشقا منه للنساء بل لتعيناه على عمله الشاق، وكان يحلو له في أيام الصيف الحارة أن ينام في الظهيرة وأن يلزم بعض أبنائه أو بناته أو نسائه بأن يقوم بالتهوية عليه أثناء نومه مستخدما كرتونة سميكة تصلح لجلب الهواء عند تحريكها بعنف لفترات طويلة، والويل كل الويل له أو لها إن صحا أبي فوجده قد توقف عن التهوية.

والذي أذكره أن عمل أبي هذا كان يدر عليه دخلا ضخما كل يوم، لأن عربة أبي كانت تقع أمام مصنع الترنزستر ذي العمال الكثيرين الذين لا يكفون عن شراء الأطعمة طول اليوم، لهذا كنا أغنياء بشكل من الأشكال، إلا أن هذا الغنى لم يكن في المحصلة النهائية إلا معنى من معاني الفقر.

لأن هذا الغنى كان عبارة عن زيادة فيما هو مطروح دون أن يكون قادرا على توسيع حياتنا، كان جارنا الفقير جدا يستطيع أن يشتري بطيخة واحدة لأولاده وكان أبي يستطيع أن يشتري لنا خمسين بطيخة إلا أننا وصاحب

البطيخة الواحدة نأكل البطيخ بطريقة واحدة، ونتخلص من القشر بطريقة واحدة، ونقلي لب البطيخ بطريقة واحدة، فكأن صاحب البطيخة كان يتصف بفقر فقير أما فقرنا نحن فكان فقرا غنيا.

ومما يدل على ذلك أننا كنا لا نطبخ طول العام إلا خمسة أصناف من الطعام، ولم يكن هذا عن فقر بل عن اعتياد، والأصناف المحدودة حين يطول عليها الأمد يملها آكلها كالصنف الواحد تماما.

وكانت قسوة أبي المفرطة ربما حملت بعض نسائه أو أبنائه على أن يدعو عليه أو على أنفسهم بالهلاك، ولم أكن أتمنى ذلك أو أرفضه لأنني في هذه الحقبة لم أكن قد تعلمت أن أكون سعيدا أو تعيسا بشكل مستقل بل كانت سعادتي وتعاستي مرتبطتين بمن حولي.

وحين اضطررنا إلى الهجرة بعد النكسة تحولت حالنا إلى الفقر الفقير بعد الفقر الغني، وصار أبي بفعل الأحوال الاقتصادية الراهنة والصحة التي تأخرت إلى شئ من الرقة، ولم تفلح في القاهرة صناعته المربحة التي كان يمتهنها في الإسماعيلية لأنه كان هناك بلا منافس أما هنا في القاهرة فمنافسوه كثيرون متلاصقو الدكاكين، فاضطر إلى العمل في السويس.

وفي ظهيرة يوم لا أنسى مذاقه ولا أذكر تفاصيله كنت ألعب في حجرتنا وحدي فما راعني إلا صراخ أمي ذلك الذي أذهلني إلى حد أنني لم أسألها عن سببه.

وفي دقائق معدودات امتلأ بيتنا ناسا وصراخا معا، وإذا أذرع كثيرة تضمني إليها، وأيد كثيرة تمسح على رأسي، وأفواه كثيرة تقول في نفس واحد أبوك مات.

ووجدتني أبكي مجاراة لمن حولي ثم لم يلبث التداعي أن عمل عمله حتى أبلغني البكاء مبلغ الهستيريا.
عند حلول المصيبة يصبح الناس جميعا أقاربك الحميمين ثم يبتعدون عنك شيئا فشيئا حتى يفترسك الشعور بالوحدة، وهذا هو ما حدث انقضت أيام المشاركة الوجدانية وبدأنا نشعر بثقل الحياة.
أجل لقد مات أبي وتركنا أفقر من أن نستمتع بالحياة، وأصغر من أن نقاومها، وأضعف من أن نحتملها، وأجهل من أن نفهم حكمتها، فكانت معاناتنا الشديدة هي حاصل ضرب اليتم في الطفولة في الغربة في الفقر.
وكان مرور الأيام يزيدنا حنينا إلى أبي وتحسرا على أيامه، تماما كما تحن أنت إلى ملابسك الغليظة الثقيلة حين يكون العري الفاضح هو البديل الوحيد، لها لأن اليتم هو في حقيقته نوع من العري إلا أنه عري من الداخل.
نعم ذهبت قسوة أبي التي كانت مشمولة بالحماية والإغناء، وجاءت قسوة غيره بلا حماية ولا إغناء، فكُتب لي أن أعرف الفرق بين قسوتين.
لقد تعلمت من تتابع الأيام بعد أبي أن هناك فرقا بين يد تضرب وتطعم وتحمي، ويد تضرب دون أن تطعم أو تحمي، فالضرب في الحالة الأولى دليل على أن لي أبا، وأن لبيتنا سقفا، وأن لفراشنا غطاء.
والضرب في الحالة الثانية دليل على أنني بلا أب، وأن بيتنا بلا سقف ولا جدران. اليد الأولى كانت تضربني وتمنع غيرها أن يضربني، أما اليد الثانية فكانت تضربني في جملة من يضربونني.
وكلمة لا حين يقولها لي أبي حين أحتاج شيئا هي تعبير عن أنني لا أصلح لهذا الشئ أو أنه لا يصلح لي في الوقت الراهن أو أنها تعبير عن عجزه عن شرائه،

أما كلمة لا التي كنت أسمعها من عمي أو خالي فمعناها أنني لا أستحق ذلك الشئ وإذا كان لا بد من وجود ذلك الشئ فإن أولاده أولى به من غيرهم.
وحين يعيّرك أبوك بالفشل أو الرسوب فإن حسرته على نفسه أضعاف سخطه عليك، أما حين يعيّرك الغريب بنفس الشئ فإنه يعني ما يقول، لأن نجاحك لا يُحسب في رصيده كما أن فشلك لا يُحسب في مخازيه.
لهذا فإن المسافة التي قطعتها من اليتم إلى الرجولة كانت على قصرها أطول من المسافة التي قطعتها من مبدأ الرجولة إلى الآن، رغم أن المرحلة الثانية أضعاف المرحلة الأولى.
أجل لقد عرفت حين بلغت مبلغ الرجال أن اليُتم مرض خطير، إلا أنه المرض الوحيد الذي لا تمكن الوقاية منه أبدا.

***

من طفولتي العبيطة

حين بدأت تتفتح مدركاتي على الناس والأشياء لم يكن من السهل عليّ أن أدرك الناس على ما هم عليه ولا الأشياء على ما هي عليه، لأن عدم البصر من ناحية، وعدم النضج العقلي من ناحية، والجو الخرافي الذي كنا نعيش فيه من ناحية، والحواديت المفعمة بالأساطير وكسر المنطق والتي كنا نسمعها من العجائز كل مساء من ناحية أخرى كانت تعمل عملها في تقليص دور المنطق وتخصيب الخيال بما يخرج الأشياء عن طبيعتها في ذهني وأذهان أمثالي.

فلم نكن نسمع من البسطاء، الذين هم معلمونا الأوائل والذين يقومون بتشكيل وعينا في بواكير العمر، إلا حديث النداهة التي تنادي على الفلاحين فيتبعونها إلى النهر ليغرقوا، وعروس البحر التي نصفها سمكة ونصفها إنسانة، وليلة القدر التي تظهر للموعودين لا للحسابين فتعطيهم ما يشتهون من متاع الدنيا، وفرسة العرش التي تزور الناس في منازلهم حاملة جرابا فيه ذهب فما على الذي زارته إلا أن يفرغ جرابها من الذهب ويضع لها فيه بدلا منه خبزا وملحا، والشمامة التي تمر على الأطفال ليلا لتشم أيديهم وأفواههم فمن لم يكن غاسلا يديه وفمه فإن الشمامة تأكله.

أما قصص العفاريت والخيل التي تطير في السماء فحدث عنها ولا حرج، دع عنك التعليل الأسطوري لسبب الموت وكيف أرسلت فاطمة بنت النبي من يقول لأهل القبور) تلات أيام وعودو ولا تدودو) فذهب إلى أهل القبور بالفعل ولكنه قال) تلات أيام ودودو ولا تعودو)، فمن يومها أصبح الناس يموتون. هذا فضلا عن أحاديث لا حصر لها عن الكنوز المدفونة تحت المنازل.

لهذا كان يختلط في ذهني عالم المادة بما فيه من قوانين صارمة وماهيات محددة، وعالم الغيب بما فيه من مرونة، ولم يكن صعبا علي أن تتصف بعض مكونات العالم المادي بما تتصف به مكونات عالم الغيب.

وأول ما كان من عجائب طفولتي أننا كنا في يوم من أيام الصيف ولم يكن في البيت غيري وكنت أسمع الراديو، وبدون مقدمات أشفقت على المذيعين الذين يقعدون داخل الراديو في هذا الحر ففتحت الراديو من الخلف لكي تدخل إليهم الطراوة ولم أقنع بهذا بل حاولت الطبطبة عليهم وحين تكهربت لم أفهم أنها كهرباء بل ظننت أن المذيعة قد عضتني، فوضعت الغطاء على الراديو وابتعدت عنه ولم أقترب منه شهرا أو أكثر!!.

وكانت أمي تقوم بتربية الدواجن فلفت نظري أن دكر البط يتمتع بجناحين سمينين وهو مع ذلك كسول لا يكاد يتحرك وأن القط المسكين لم يزل يقفز من سطح إلى سطح رغم أنه بلا جناحين.

وخطرت لي فكرة عبقرية سرعان ما هممت بتنفيذها، ماذا لو قطعت جناحي دكر البط وقمت بتركيبهما في جانبي القط المسكين ليصعد بهما إلى أعلى ويتحرك بين الأسطح بطلاقة، فهو أحوج إليهما من هذا الدكر الكسول الذي لا ينتفع بهما.

ورأيت أن أبدأ أولا بفتح فتحتين في جانبي القط لأضع فيهما جناحي الدكر ثم أقوم بخياطتهما. وقمت فعلا بالقبض على القط ووضعته تحت باطي وأحضرت السكين وبدأت في فتح الفتحة الأولى ولكن القط الناكر للجميل قفز قفزة شديدة ووضع مخالبه في وجهي فغطاه بالدم فألقيت به بكل قوة وأنا أقول له ما ليكش في الطيب نصيب.

كان على مقربة من بيتنا طعمجي مسيحي يسمى أبا حربي، وكان أبو حربي خشن الصوت كأن في صدره كيسا من رمل، وكان يلف للناس السندوتشات

في الورق فتصدر عنه خشخشة غريبة احتاجت مني إلى تفسير ولم أحتج إلى وقت طويل لأصل إلى تفسير هذه الظاهرة، وهذا التفسير ببساطة هو أن الله قد خلق له بدلا من أصابعه قراطيس ورق.

بدأت هذه الفكرة في رأسي مجرد حدس لا يقبل البرهنة، ثم أصبح فكرة مركبة تقبل البرهنة، ثم أصبحت مسلمة أرقى من مستوى البرهنة.

ولن أستطيع أن أصور لك كم ملأتني متعة هذا الاكتشاف.. تصور رجل خلق الله له بدلا من أصابعه قراطيس ورق!!! وكنت أظنه إنما يكثر من الخشخشة وأنا موجود ليغيظني بأصابعه الورقية.

ورغم هذا الغيظ الذي كنت أشعر به فقد أدمنت القعود أمام دكان أبي حربي كل يوم من العصر إلى ما بعد العشاء.

وذات يوم سنحت لي الفرصة لأقوم بفحص أصابعه بنفسي، ولم أكن أريد فحصها للمعرفة بل للتلذذ، كان بعيدا عن دكانه يكلم أحد الرجال فلم أزل أدنو منه بخطوات مترددة وكنت ضئيل الجسم أشبه ما أكون بالحشرة الصغيرة فلم يعبأ بي أبو حربي.

وأخيرا دنوت منه وأمسكت بأصابعه وجعلت أقلبها ذات اليمين وذات الشمال وأفردها وأثنيها وهو لا يكترث بي إطلاقا بل لعله لم يكن يشعر بي، وكم كانت صدمتي حين وجدتها أصابع عادية ليس فيها أي شئ مختلف وبقيت مصدوما بضعة أشهر.

وإذا كنت إلى اليوم لا أشرب حتى الماء في المآتم، فإنما مرجع ذلك إلى أيام الطفولة إذ كنت أسمع الناس يقولون أكلنا في الميت، وشربنا في الميت، وقعدنا في الميت. فكنت أظن أن أهل كل ميت يمرغون جثة ميتهم في الحلل الكبيرة ثم يضعون فيها الطعام والشراب لتحصل لهم البركة أو لتحصل له الرحمة.

وكان الجنس في خيالنا وحياتنا عبارة عن قلة أدب، فالذين يعملونه، أو يتكلمون عنه، أو يفكرون فيه، هم قللاة أدب.

لهذا كانت صدمتي عنيفة حين قال لي أحد الصبية البالغين (تعرف إن أختك وجوزها بيعملو حاجات قلة أدب مع بعض؟)

نعم كانت صدمتي عنيفة، إذ من المستحيل على عم سيد زوج أختي ذلك الرجل المحترم الذي ائتمنه أبي على أختي وتركها تبيت في بيته من المستحيل عليه أن يعمل قلة الأدب مع أختي، كما أن أختي بنت محترمة ولا يمكن أن تسمح لزوجها بشئ كهذا!! لهذا شتمت الصبي وبصقت في وجهه وبقيت شهورا لا أكلمه.

وكانت أول مناظرة جرت بيني وبين أحد الصبية البالغين ممن يقعدون معنا هي كيف ينشأ المولود؟ قال الصبي (العيل بيجي من قلة الأدب بين الراجل والست)، فتصديت له وأعلنت نظريتي في نشأة الجنس البشري) العيل بيجي نتيجة إن الست بتاكل لحمة) وحسبتها لهم..) إذا تصورنا إن الست بتاكل كل أسبوع حتتين لحمة تبقا بتاكل اتنين وسبعين حتة في التسعة أشهر ودا كفاية عشان تجيب عيل أو أكتر). وسألني واحد من اصحابنا (يا سلام يا أخوي طيب ما هو الراجل بياكل لحمة ما بيحبلش ليه؟) فقلت له (عشان مش ست)، وسألني آخر) طيب البنات إلي مش متجوزة ما بتحبلش ليه؟) فقلت له (عشان مش متجوزين) كأن عقد الارتباط بين الرجل والمرأة مع أكل اللحمة هو المسؤول عن إنجاب الأطفال.

ولم يكن عجبا أن اقتنع الذين هم من سني، بل كان العجب حقا أن زلزلت عقائد البالغين الذين يحسون في أجسامهم الاحتياج إلى الجنس، وحين كبرت وعرفت مكونات الجهاز التناسلي خجلت أن أخبر أصحابنا الذين لم يتعلموا تاركا كل واحد منهم يعرف بطريقته الخاصة.

ولم تكن علاقتي بالأشياء هي وحدها المشوشة يحل فيها الخيال محل المنطق، بل كانت علاقتي بالكلمات أيضا تخضع لهذا التشوش، كنت مثلا إذا سمعت الناس يرددون هذا المثل الشهير)من دقنه وافتل له) كنت أسمع المثل هكذا)من دقنه وفي تله) فكنت أتساءل دهشا أين تل الواحد منا؟ في يده، أو في رجله، أو في ظهره.

وكنت إذا سمعت الحديث المشهور (الحج عرفة) أتساءل مستغربا من هو الحج عرفة؟ وماذا يريد؟ وكنت أسأل الكبار عن هذه الأشياء فلا أجد من يجيبني.

وكان من أعجب ما وقع لي في مدرسة المكفوفين أن المدرسة علمتنا أن من لا يقول بسم الله الرحمن الرحيم فإن الشيطان يأكل معه، وكنت ألاحظ فعلا أنني حين لا أقولها بصوت مرتفع يختفي الجبن، أو الحلوى الطحينية، أو البيض، وكان ذلك يغيظني أشد الغيظ فلما لم أعد قادرا على احتماله.. كلمت فيه بعض أصحابي فأفهمني أن معنى ذلك أن يكون الأكل قليل البركة وأن الشيطان لا يخطف شيئا.

وفي صبيحة اليوم التالي وأثناء تناول الإفطار تعمدت ألا أقولها بصوت مرتفع ووضعت يدي على صينية الطعام فجأة فإذا يد يعلوها القشف تحاول أن تسرق البيض. صرخت فاجتمع الناس، فإذا فراشو المدرسة اللصوص يسرقون الطعام ويستعموننا ونحن عنهم غافلون.

تلك لمحات من طفولتي العبيطة حين أقيّمها اليوم أقول إنها قد أدرت عليّ خيالا خصبا لأنها أتاحت لي أن أعبث بالموجودات وأضع بعضها موضع بعض، وإذا كنت أيام الطفولة أفعلها ساهيا مصدقا بها فإنني أفعلها اليوم عامدا واضعا إياها في معنى الفنتازيا.

***

عيل شقي

لعل من أسوأ ما يتعرض له كفيف البصر أن يعيش موزعا بين واقع كفيف وحلم كل خلاياه عيون مبصرة.
وهذا التوزع إنما يقع غالبا لصنفين من المكفوفين: إما للأطفال الذين هم أجهل من أن يفهموا قانون الحياة وحكمتها، أو للحمقى الذين يستوي عندهم الصغر والكبر لأنهم أعجز ما يكونون عن أن ينتفعوا بتجارب أنفسهم أو بتجارب غيرهم. وسبب ما هم عليه من فداحة المصيبة أنهم يسترسلون مع أوهامهم وأحلامهم، فإذا أرادوا أن يطلبوا من الواقع تصديق ما هم عليه قال الواقع كلمته الصحيحة القادرة على أن تبدد ذلك الخدر اللذيذ الذي استسلموا له شطر عمرهم أو أكثر.
وهكذا كنت في طفولتي، فقد كنت أتعالى على عاهتي بما لا يسمح به الواقع الذي أعيشه أنفة مني أن أكون أقل إمكانات من غيري. فإذا تهت في الطرقات مثلا -وكان هذا يحدث كثيرا- وأراد بعض المارة ممن يعرفونني أن ينبهني إلى أنني تائه، كنت أبتسم له ابتسامة لا تخلو من بلاهة مخبرا إياه أنني أقصد السير في هذا الطريق لأن عندي مشوارا هنا.
فإذا هممت أن أقع في حفرة أو أصطدم بسيارة واقفة مثلا وأراد بعض الناس أن ينقذني أخبرته أنني كنت شارد الذهن وأن هذا هو السبب المباشر فيما كدت أقع فيه. وكان هذا اللون من الخداع ربما امتد بي إلى اللعب مع الأولاد لعبا لا أصلح له البتة، ككرة القدم أو الاستغماية وكم كان يضيق صدري حين يرفضون أن أشاركهم هذه الألعاب البصرية
فإذا لعبنا الاستغماية مثلا فإن الأولاد كانوا يرفضون أن يضعوا على عيني رباطا كما يفعل بعضهم ببعض وكنت دائما أول ممسوك وأول خارج من اللعبة محاطا بضحكهم جميعا، وكان هذا يغيظني جدا.

أما كرة القدم فقد كانوا يرفضون تماما أن يشاركوني فيها، فإذا أرادوا أن يجاملوني حبا لي أو رفقا بي فإنهم كانوا يعدونني عنصرا زائدا ولا يعولون علي في لعبهم، ولم أكن يومئذ أدري لهذا سببا إلا حقدهم علي لأنني أحسن منهم لعبا!!!!.

وكنت مصرا على أن تكون شقاوتي من جنس شقاوة المبصرين، فكان يطيب لي أن أتشعبط في مؤخرات العربات العادية وعربات الكرو، ولم أكن أعرف الموضع والميقات المناسبين للقفز إلى الأرض، فكنت مصابا دائما بجروح، ولم أتب عن هذه الفعلة القبيحة إلا حينما انتبه لي أحد العربجية متشعبطا في عربته فناولني كرباجا على يدي فاضطررت إلى رفع يدي وكانت رجلي مثبتة في أصل العربة من أسفل فبقيت العربة تجرني على ظهري بضعة أمتار.

وكان يدخل في هذا اللون من الشقاوة رغبتي العارمة في استخدام النبلة توهما مني أنني قادر على صيد العصافير أو اليمام أو الحمام، إلا أن الشئ الوحيد الذي تمكنت من صيده كان عبارة عن شفشق هو واحد من جملة الأكواب والشفاشق التي كانت على عربة بائع الأواني الزجاجية، فما كان من الرجل إلا أن احتضنني بمنتهى الرفق وأخذ النبلة التي كانت معي ثم انصرف دون أن ينطق بكلمة واحدة.

وكان يدخل تحت هذا أيضا رغبتي الملحة في أن أعبر الشوارع وحدي مهما واجهني من أخطار، ولم أكف عن هذا إلا بعد أن تعرضت لعدة حوادث وصدمات عديدة من سيارات عديدة.

وفي مدينة الإسماعيلية التي هي بلدي أذكر أنني تعلقت بإحدى شجرات المانجو وأردت النزول فلم أستطع، وحين رأتني جدتي صرخت بأعلى صوتها ثم نادت زوج أختي لينزلني فما استطاع ذلك إلا بشق الأنفس.

وكنت ذات يوم ألعب مع بعض أقاربي لعبة المبارزة بالعصي فطاشت يدي بالعصى فأصابت عين جدتي فأغمي عليها فورا، فلما أفاقت ظنت أن هذه الإصابة من الذي كان يلعب معي فطردته وحلفت بكل يمين أن يرجع إلى القاهرة في تلك الليلة.

أما توليع البابور وما ينتج عنه من كوارث، ووضع يدي في الكهرباء وما يحدثه من صاعقة، واستخدام السكاكين وما ينطوي عليه من جروح، فلا تسأل عنه.

واليوم حين ألتفت ورائي لأتأمل هذه الشقاوة أجد لها فائدتين: إحداهما أنها جرأتني على الحياة فأصبحت لا أخاف شيئا البتة، والأخرى أنني تعلمت بعد أن كبرت ألا أدخل فيما لا أصلح له لكي لا أكون موضعا للإشفاق أو للهزء والسخرية وآمنت أعمق الإيمان بالمثل الذي يقول إللي يدي العمى حقه يبقا مفتح.



من حكمة الأطفال

كانت موضوعات المطالعة المقررة علينا في السنوات الأولى لدراستنا لا تخلو من طرافة وعمق يتناسبان مع طفولتنا. فقد كانت ذات طابع قصصي سهلة الألفاظ تنطوي على موعظة تتناسب مع مستوانا العقلي في هذه الفترة، لهذا كان يسهل علينا حفظها بعد قرائتها مرة أو مرتين.

كان منها موضوع عنوانه من سبق؟ خلاصته أن الأرنب والسلحفاة تراهنا على أن يستبقا إلى شجرة معينة أيهما يبلغها أولا في ميقات معين، وكان الأرنب واثقا بفوزه، لهذا فإنه لم يحتج أن يستعد لهذا السباق بأي لون من الاستعداد.

أما السلحفاة فلعلمها بما هي عليه من البطء الذي يسببه ثقل جسمها أخذت تستعد وتمشي رويدا ولكن باهتمام إلى الشجرة الموعودة، حتى وصلت إليها قبل الأرنب واستطاعت أن تكسب السباق بفضل دأبها، كأن واضع هذا الدرس يريد أن يخبرنا أن الفهلوة لا تغني عن الاجتهاد شيئا.

وكنا ندرس موضوعا عنوانه الأرنب الغضبان، خلاصته أن الأرنب قد ضاق ذرعا بطعامه الثابت الذي لا يتغير وهو خص وجزر، وحدث أنه أعلن سخطه على طعامه أمام أمه، وترك بيته غاضبا وأخذ يطوف بالحيوانات يسألها أن تطعمه مما عندها، وبالفعل رحبت الحيوانات به وعرضت عليه ما عندها من الطعام إلا أن الأرنب اكتشف في نهاية المطاف أن ما عند الحيوانات من طعام لا يصلح له البتة، وأن بدنه لا يمكنه أن يتقبل إلا الخص والجزر، فعاد إلى أمه يسألها الصفح والمغفرة ويرجوها أن تقدم له الخص والجزر وهو راضي النفس، أي أننا لا نصلح إلا بما وضعه الله في طبيعتنا، كما أن هذا الدرس يحثنا على القناعة التي لا غنى لأحد عنها إن كان يبغي المصالحة مع الحياة.

أما الموضوع الذي كان عنوانه نصف القرش، فكان عبارة عن حوار بين أب وابنه سأل فيه الأب ابنه ماذا تفعل بالقرش الذي أعطيك إياه كل يوم؟ فقال له ابنه أنفقه، ولم يشأ الأب أن ينصح ابنه بشكل مباشر بل عمد إلى طبق كبير ووضعه تحت الصنبور تاركا الصنبور ينقط نقطة بعد نقطة.

وفي صباح اليوم التالي وحين وجد الأب أن الطبق قد امتلأ عن آخره اقتاد ابنه إلى موضع الطبق ثم قال له يا بني لو ادخرت كل يوم نصف القرش الذي تأخذه مني لكونت مبلغا ضخما من المال تماما كما امتلأ هذا الطبق من قطرات الماء، وكأن واضع الدرس أراد أن يلخص لنا بشكل طفولي تلك الحكمة العربية التي تقول "أن تَرِدَ الماء بماء أكيّس" وأن مع اليوم غدا.

وكان من الدروس الحلوة التي كنا ندرسها درس عنوانه فيروز ورقبة الكوز، فكرته ببساطة أن فيروز كانت طفلة في السنوات الأولى من الدراسة وكانت كلما خرجت من المدرسة وجدت بائعة الحلوى التي كانت تسمى رقبة الكوز تبيع حلواها وهي مكشوفة، وبعد تفكير جمعت فيروز من زميلاتها نقودا قليلة وأضافت إليها من عندها ثم اشترت للعجوز صندوقا ذا غطاء لتضع فيه الحلوى فلا تتلوث.

أما درس احسب مع صابر ففكرته أن صابرا كان يملك سبعة حمير فكان إن أحصاها وهو على الأرض يجدها سبعة وإن أحصاها وهو راكب يجدها ستة لأنه لم يكن يحصي الحمار الذي يركبه وأنا أعتقد أن هذا الدرس رغم بساطته يعد أول درس في المنطق وبالتحديد في الاستقراء الصحيح.

لم تكن هذه الدروس مجرد مواعظ مسلية، بل كانت قيما خلقية تساق بشكل بسيط، فما الذي أبقاها مجرد دروس محنطة في ذاكرتنا دون أن تنتقل من حيز التذكر إلى حيز المعايشة والشعور؟

الجواب عن هذا بسيط وواضح، فقد أدت المدرسة دورها حين وضعت هذه الدروس في ذاكرتنا، وكان على كل من البيت والشارع أن ينقلا هذه القيم الخلقية إلى مجال الشعور بأن ينفث فيها مصداقية عن طريق تفعيلها في الواقع. ولكن كلا من المدرسة والشارع قد تخلى عن هذا الدور المهم، فبقيت هذه القصص مجرد قصص نتذكرها فنبتسم ونقصها على الآتين من بعدنا، فيبتسمون كما ابتسمنا من قبل ويهملونها كما أهملناها من قبل.



أحب القرآن وأكره معلميه

لا أظن أحدا يخالفني في أن حامل القرآن الكريم يفترض فيه أن يكون رقيق القلب، سريع الدمعة عند الخشوع، خفيض الصوت، واسع العقل، بشوش الوجه، طيب النفس، لأن كلام الله ليس مجرد أصوات أو كلمات أو جمل تتلى، بل هو حالة روحية يعيشها من تطول عشرته بالقرآن الكريم ترتيلا وتفكرا واتعاظا.

لكن الشيء الذي ينطق به الواقع مختلف للأسف الشديد، فهناك فرق شاسع بين الذين يتلون القرآن خشوعا وتعبدا، والذين يتلونه تعليما للصبيان ويتخذون عليه أجرا.

فالصنف الثاني من حملة القرآن قساة القلوب، غلاظ الأكباد، طماعون في المال، شرهون في المأكل والمشرب، تطيب نفوسهم بضرب الصغار كما تطيب بأكل الحلوى، كأنهم ينتقمون من أساتذتهم في شخص تلاميذهم.

وأعجب ما وقع لي في هذا السبيل حوار جرى بيني وبين مبتهل وقارئ كفيف، سألته هل أتممت حفظ كتاب الله؟ فقال أما أنت فأجيبك بالصدق وأقول لك لا، أما غيرك فأقول له نعم.

فقلت له ما منعك من إتمامه؟ فقال الذي منعني من إتمامه هو ببساطة أنني أكرهه، فقلت له عليك سخط الله ولعنته أيوجد مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر يقول عن نفسه إنه يكره كتاب الله تعالى! فقال لي ليس الذنب ذنبي، بل ذنب الذين علموني القرآن، وعلى كل حال اسمع واحكم.

كان أول رجل أرسلني إليه أبي ليعلمني القرآن رجلا فظا غليظ القلب كلما وقفت أمامه للتسميع انتابتني رعشة من شدة قسوته، وقد أتعدى حالة الرعشة إلى حالة أخرى هي أن أصاب بتبول لاإرادي من الخوف، ومما أذكره

له أنني نمت ذات ليلة قبل التسميع وجاء هو من عمله متأخرا فلما سأل زوجته عني قالت إنه نام قبل التسميع، فما كان منه إلا أن ضربني برجله في بطني وأنا مستغرق في النوم، ولك أن تتخيل طفلا يقوم من نومه على هذه الحال ثم أكون مطالبا بالتسميع وعدم الخطأ.

أما المعلم الآخر الذي ذهبت إليه فكانت له معي حيلة أخرى لتثبيت الحفظ، كنت كلما أخطأت ولو خطأ صغيرا ملأ فمي ترابا، فأبقى حوالي ربع ساعة بين تف وعطاس ودعك في عيني.

وبعد أن انتهى كلامي مع الرجل رجعت بذاكرتي إلى الوراء، فتذكرت المشايخ الذين تعلمت القرآن الكريم على أيديهم، كان منهم الشيخ أحمد الذي كان قبيح الصوت، قليل العلم، سريع الضرب، لا تكاد عصاه تفارق يده، فلا أكاد أقع في خطأ نحوي أو أنسى جزءً من آية حتى ينهال علي ضربا كأنني ارتكبت الجريمة التي لا تغتفر.

ولم يكن الشيخ أحمد يفطن إلى الفرق بيني وبين زملائي، فهم قادرون على أن يقرؤوا في المصحف وقتما أرادوا، أما أنا فكنت رهنا بمن يقرأ لي، أو يسمع مني، وكان يعهد إلي بالتسميع لابنه، وكان ابنه لا يحب حفظ القرآن، فكان يثرثر طول الوقت، فإن جاء فلم يجد ابنه حافظا كما تمنى أشركني معه في العقاب.

أما الشيخ عبد العليم الذي كان كفيفا في السابعة والسبعين من عمره فكان أعجوبة، كان يكن أشد الحقد والكره والبغضاء لكل من أكل لحما، أو دجاجا، أو بطا، أو إوزا، أو ما ينزل منزلتها، وكم كان يضيق صدره كلما

حدثته عن أكلة دسمة أكلتها في بيتنا أو في بيت خالتي، هنالك كان يقول لي جملة لا يغيرها هي "مطرح ما يسري يهري".

ولما كان الشيخ أعمى متهالكا فقد كان يقوده حفيده الطفل، وكانت أسوأ أيام حياتي هي الأيام التي أمضي فيها إلى الشيخ ومعي سندوتشان من الفول لأنه كان يصادر منهما واحدا ليعطيه لحفيده الذي نشأ شرها مثل جده.

ولما كان الشيخ يعلمني مجانا، فقد كان يعاملني بعدم اهتمام، ففي لغته دائما شتائم، وفي حديثه معي سخرية، لا سبب لها إلا أنني فقير، لكنه كان يعاملني على أنني ملك متوج حين أدعوه في بيتي إلى أكلة كِرشة، هنالك كانت نفسه تنبسط بالفرحة، كأنني ما أطعمته الكرشة بل زوجته إياها.

وكانت قلة اكتراثه بي، وقلة احترامه لي، تدعوانني إلى التعامل معه باستخفاف شديد، وإن كان ذلك يضربني أحيانا، ومما أذكره أنني ذهبت إليه متأخرا صبيحة يوم من الأيام، ففوجئت بالشيخ يحتضنني، فظننت أنه مشتاق إلي، غير أن هذا الظن سرعان ما تبدد، حين ألقاني الشيخ على الأرض، وبدأ يضربني بكلتا يديه، ثم لم يقنع بهذا حتى قال لي بعصبية :والله يا ابن المركوب ما أضربك إلا بالمركوب.

وبالفعل خلع الشيخ إحدى نعليه من إحدى رجليه ثم انهال بها على رأسي ضربا، ولك أن تتخيل شيخا أعمى يقوده طفل غير مميز، كم تكون نعله ملطخة بالأقذار التي نزلت جميعا على رأسي، كأنه لم يكن يضربني بل كان ينفض نعله.

وكان الشيخ عبد العليم إذا طعم عندي الكرشة ثم ناولته خمسين قرشا بعد الغداء سكنت نفسه، وجلس يحدثني بحديث الجن الذين استخرجوا للناس كنوزا من تحت الأرض.

فهذا حفني استخرج له الجن ثلاث عرائس من الذهب قاعدات على ثلاثة كراس من الذهب، وهذا الشيخ عبد الفتاح القاضي كان يركب الجن ويطير به في السماء.

حتى إذا فرغ من هذا الحديث حدثني عن عدّية ياسين التي لا تُقرأ على ظالم إلا قتلته أو أحدثت به عاهة مستديمة، تماما كما حدث لرجل قُرأت عليه العدية، وكان قاعدا يستدفئ، فانخلع من تحته حجر فسقط في النار، ولم يكن الشيخ يقنع بالحديث عن الجن، بل كان ربما تعدى ذلك إلى الحديث عن الملائكة، فكم من مرة حدثني فيها أن رجلا من معارفه تلا عزيمة من العزائم العليا، فاستحضر بها ملاكا، وسمع الشيخ صوت الملاك، وأن الملاك قد علّم الشيخ دعاء سمعته منه أكثر من مرة.

وكم كان يحلو للشيخ أن يحدثني عن كتاب الكبريت الأحمر الذي يقول إنه كان على الأرض خلق قبل آدم، وكان لهم نبي اسمه يوسف، فقتلوه، فأبادهم الله بما فعلوا.

ومن عجب أنني حين دخلت الأزهر، واستغنيت عن الشيخ، كان كلما لقيني يعاملني بمنتهى الرقة واللطف، كأن احتياجي له فيما مضى كان موجبا لاحتقاري أو دليلا على عدم أهميتي، ويبدو أن الجشع والحماقة كانا هما أميز ما يميز هذا النوع من المعلمين في التراث الإسلامي لهذا راح الناس يطلقون عليهم النوادر والطرائف التي تؤكد هذا المعنى.

فمن هذا ما حكوه أن معلما كان يعلم صبيا القرآن هكذا (قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا)، فقيل له ما هذا لقد أدخلت سورة يوسف في سورة الطارق! فقال: إن أبا هذا الصبي يُدخل لي أجرة الشهور بعضها في بعض، فأنا أدخل لابنه سور القرآن بعضها في بعض!

وما حكوه أن معلمًا كان يُقعد أبناء الأغنياء في الظل وأبناء الفقراء في الشمس ويقول: يا أهل الجنة ابصقوا على أهل النار.

والأسئلة التي يطيب لي طرحها هنا: لماذا شاع في أذهاننا منذ أقدم العصور أن العلم لا يثبت في العقول إلا بالقسوة والإهانة؟ لماذا لا يحل الحنان محل العصيّ، والكلمة الطيبة محل الكلمة الخبيثة، إن كان للكلمة الخبيثة دور في التعليم؟ لماذا نقول في المثل من علمني حرفا صرت له عبدا ولا نقول صرت له أخا أو ابنا أو صديقا؟

متى يعلم هؤلاء المشايخ أن ربط التعليم بالإذلال يخلق في نفس المتعلم البغض للعلم والمعلم على السواء، فتكون النتيجة الطبيعية هي أن تنغلق العقول، وينطفئ الحماس لتلقي أية معرفة.

نعم لقد كرهت المعلمين أشد الكراهية لكنني بقيت بحمد الله أحب القرآن الكريم أشد الحب.



سندوتشات موز

حين صحبتني أختي إلى مدرسة المكفوفين لأول مرة وتركتني وانصرفت وأنا يومئذ في الخامسة أو السادسة من عمري أحسست بالوحشة تجتاحني من الداخل، لأن الطفولة والاغتراب والعمى كل أولئك كان جديرا أن يضخّم في نفسي حتى الأشياء الصغيرة.

كنت أحس أيامها أن بيتنا الضيق واسع رغم ضيقه وأن المدرسة الواسعة ضيقة رغم سعتها، نعم كنت أحس أن بيتنا الضيق واسع لأنني كنت أعرف كل شئ فيه وأتحدث إلى كل من فيه، وأن المدرسة الواسعة ضيقة لأنني لم أكن أعرف فيها أحدا أحدثه ولا مكانا أمضي إليه، لأن المكان الذي لا تعرف كيف تتحرك فيه وليس لك فيه أحد تستأنس أو تستعين به لا بد أن يكون ضيقا مهما اتسع.

أجل أحسست أنني ضعيف مهزوم في عالم متموج، فقد كان قدماء المكفوفين اعتادوا على المكان وألفوه فكانوا يروحون ويغدون آمنين مطمئنين عالية أصواتهم خفيفة حركتهم. وأما أنا فكنت منكمشا حذر الحركة لا أسترسل إلى أحد.

لهذا كان أسعد أيام حياتي يوم الخميس حين يأتي أحد أفراد أسرتي ليستلمني، فقد كنا نقيم في المدرسة من يوم السبت إلى يوم الخميس، كنت أشعر يوم الخميس من شدة الفرحة أنني أسير في الشارع، أما يوم السبت فكنت أشعر بعكس ذلك تماما، ولن أنسى أول ليلة بتها في المدرسة، إذ كان مبيتي إلى جانب زميل لنا يكبرنا بعام فلم أستيقظ صباحا إلا على صياحه وهو يعلن في

العنبر لزملائنا قائلا (يا جماعة زميلي إلي جنبي عمل كبنايه)، ومعنى هذه الجملة أنني تبولت في الفراش مع أنني لم أعملها في بيتنا قط ولكن يبدو أن هذا أثر من آثار الشعور بالوحشة.

وقبل الإفطار كانت العلقة الساخنة على رجلي، تلك العلقة التي كانت الخطوة الأولى في طريق كرهي للمدرسة، وكانت الخطوة الثانية هي تلك القوانين الصارمة التي كان علينا أن نخضع لها جميعا من مواعيد الصحو إلى مواعيد النوم إلى مواعيد الأكل إلى أوقات الحصص إلى مراجعة الدروس آخر النهار. وكان من هذه القوانين أن نلبس الشورت في أيام معينة من أيام الأسبوع، ولا تسل عن لبس الشورت في أيام الشتاء صباحا حين يجتمع عليك ضرب الشتاء وعصى الأستاذ على وركك.

ليس هذا فحسب، بل هناك سبب آخر ساهم في كرهي للمدرسة هو أن الكفيف الذي يعيش في مجتمع المبصرين يعامل برقة أكثر من الكفيف الذي يعيش في مجتمع من المكفوفين يقوم عليه مبصرون، لأن اعتياد المبصرين على معايشة المكفوفين يقسي قلوبهم، وتتجلى هذه القسوة في طبيعة الألفاظ المستخدمة معهم كما تتجلى في قلة العناية بهم.

وإن شئت فقارن بين معاملة المكفوفين في الجامعة الأمريكية ومعاملتهم في الأزهر، على كل حال زالت الدهشة والوحشة واستطعت أن أدخل ذلك النسيج وصار لي أصدقاء أتحدث إليهم وألعب معهم، كما عرفت أماكن اللعب فقلت وحشتي وإن لم تزل تماما.

كنا نجبر على النوم ونحن بحاجة إلى السهر ونجبر على اليقظة ونحن في أمس الحاجة إلى النوم، نعم كنا ننام قبل التاسعة مساء ونصحو في السابعة صباحا ونرتدي ملابسنا بشكل لا يخلو من عشوائية ثم نتوجه إلى غرفة الإفطار في

طوابير مضطربة، وكان الأكل على العموم ومنه الإفطار يقدم في صينية ذات ثلاث خانات فالخانتان اليمنى واليسرى واسعتان وبينهما خانة مستطيلة ضيقة، في الخانتين الواسعتين يوضع الأكل الكثير الفول والجبن في الإفطار والعشاء والأرز والخضار في الغداء.

أما الخانة الضيقة فكان يوضع فيها البيض في الإفطار والفاكهة في الغداء، ولم تكن قصة الأكل تخلو من مشكلة، فقد كان الفراشون يسرقون من المكفوفين طعامهم الذي هم في حاجة إليه، كما كان المكفوفون يدّعون على الفراشين سرقة ما لم يسرقوه وهذه بتلك.

وكانت أبلة ليلى المشرفة على دار النور، وهو البيت الصغير الذي كنا نعيش فيه، لها فلسفة غريبة، فقد طلعت علينا ذات يوم ببيان خلاصته أن أكل الموز حاف بطر وعدم تقدير للنعمة، وعليه يجب على كل كفيف مقيم في الدار أن يضع الموز في الخبز ويأكله كسندوتش. ولن أستطيع مهما اجتهدت أن أصف لك مذاق الموز بالخبز في أفواهنا.. لقد كان كارثة لا نسمعها بل نأكلها.

وكان طعام المدرسة حقيرا من الناحيتين الكمية والكيفية، فلا هو لذيذ يود آكله أن يستزيد منه ولا هو كثير يستغني آكله بالامتلاء منه عن المذاق، وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء فأنا أيضا أقول لك ليس في المدرسة من طعام الدنيا إلا الأسماء، ولكنني أقصد عكس ما قصده النبي. فإذا كان النبي يقصد أن طعام الجنة أرقى فأنا أقصد أن طعام المدرسة أحط، ففي بيتنا سمك وفي المدرسة سمك ولكن لا يجمع بينهما إلا الزفارة، وحسبك أن تعلم أنه بسبب عدس المدرسة لم آكل العدس منذ ثلاثين عاما إلى الآن.

عفاريت المكفوفين

مجتمع المكفوفين ككل مجتمع، فيه القوي الذي يحتمي بقوته وفيه الضعيف الذي يستتر وراء ضعفه، فالثراء، والقوة البدنية، والتفوق الدراسي، وسلاطة اللسان أحيانا، والقدرة على احتمال المد على الرجلين، معان من معاني القوة وأما ما وراء ذلك فيدخل في معنى الضعف.

وعلاقة القوي والضعيف في مجتمع المكفوفين كعلاقتهما في كل مجتمع، فالقوي يستعبد الضعيف بمقتضى قوته والضعيف يتزلف إلى القوي لمصلحة يرجوها أو لضرر يتقيه.

وإذا أردت أن تعرف الفرق بينهما فتخيل نفسك في مدرسة المكفوفين في الساعة العاشرة مساء أي بعد العشاء الرسمي بحوالي أربع ساعات وأنت منهك من الجوع وقد أرسل بعض الأغنياء في شراء الطعمية والمخلل مع العيش الفينو فلا تسل عن رائحتها في أنوفنا نحن العاجزين المحرومين الجائعين، فلو قيل لنا إنهم اشتروها من الجنة لما وسعنا أن نكذب.

وكانت طرق تعبير الأقوياء عن قوتهم تختلف باختلاف نفوسهم وإمكاناتهم، كان صلاح عبد الآخر زميلي الصعيدي طفلا قوي البنية فاشلا مثلي في تعلم طريقة برايل ولكنه لم يكن متفوقا مثلي في الشفوي.

وكان يهوى من الدنيا ثلاثة أشياء هي قرض خشب الدكك، وأكل قطن المخدات، وعض الأولاد النائمين من مقاعدهم وهم نائمون. ولم يلبث أن فُصل من المدرسة وعاد إلى بلده ونحن في الفرقة الثانية، وأما أحمد عبد الحفيظ شعلان فكان في عينيه بعض البصر وكان يجيد القراءة في كتب المبصرين وكان سريع الحركة خفيف الظل محبوبا من الجميع. وإذا أردت الوقوف على مبلغ شقاوته فيكفيك أن تعلم أنه استطاع هو وزميل لنا يسمى محمود عبد العزيز أن يغريا بنت الشيخ عبد العزيز شيخ الجامع، فاستسلمت لهما يقبلانها

ويعانقانها دون أن يكون واحد من الثلاثة قد بلغ الحلم ولكنها الرغبة في عمل الخطأ لأنه متاح.
وكان أحمد عبد الحفيظ يعمل كل شئ، كان يقفز من فوق السور، ويشتري الطعام من الخارج، ويعبر الشارع وحده، فضلا عن تفوقه الدراسي، وحين فُصلت أنا من المدرسة بسبب فشلي في تعلم طريقة برايل وذهبت لزيارة زملائي بعد ذلك بفترة طويلة سألت عنه فقيل لي إنه قد مات بالحمى الشوكية وهو في الفرقة الثانية من المرحلة الإعدادية.
أما خالد القطري فكان ضخم الجثة، إن ضحك أو بكى يخيل إليك أنه جاموسة تنهق، ومع هذا فقد كان مرغوبا مرهوبا لكثرة ماله، فقد كان يوزع القروش على الطلاب ثم يستردها ثم يوزعها ثم يستردها وهكذا طول اليوم.
أما حسين شحات القادم من البدرشين فكانت قصته قصة. كان يوقظ النائم من سُباته ليعرض عليه هذا العرض (تيجي بكرة في الغدا أنت تديني عيش وأنا أدي لك موز؟) وهذا بالفعل عرض سخي لما يتصف به الموز من ندرة وما يتصف به الخبز من كثرة، ولكن الأولاد كانوا يقابلون حسينا وعرضه إما بأن يبطحوه، أو يضربوه، أو يشتموه، أو يبصقوا في وجهه، وذلك لأنهم كانوا يعلمون أن هذا العرض السخي لن يتحقق أبدا وأن حسينا إنما يوقظهم طلبا للونس أو شروعا في الشذوذ الجنسي الذي لا أدري من أين تعلمه، كما لا أدري ما وجه استمتاعه به وهو يومئذ طفل لم يبلغ الحلم.
وأما الذين كانوا لا يضربونه فكانوا يتحامونه اشمئزازا منه أو خوفا على سمعتهم. ولعل من ألطفهم زميلنا محمود عبد العزيز الذي كان بارعا في الفشر لا يقف فيه عند حد، وكانت قصصه المطولة اللطيفة تسرقنا من مللنا الذي كان هو الصفة المميزة لإقامتنا في المدرسة.
وكانت لبعضهم أحوال غريبة، كان شريف وكمال يحب كلاهما الآخر حبا جما، فكانا يتباعدان مترين أو ثلاثة أمتار ثم يدوران في المكان وينادي كلاهما

على الآخر بصوت مفعم بالتنغيم ولم يكن لهما عمل بعد الدراسة إلا هذا.
وكنا جميعا ننتظر حصة الشيخ سيد مدرس القرآن الذي كان يدخل إلينا يوم الاثنين من كل أسبوع، لسببين: لأنه كان كفيفا مثلنا وكان خداعه أمرا ممكنا، ولأنه كان يشرب كوبا من الشاي كل أسبوع على حساب واحد منا فيتطوع بأن يعطي كلا منا شفطة. وكان الأولاد يغافلونه ويسرقون عصاه ولا يردونها إليه إلا بشق الأنفس، والعجيب أنه لم يستفد من هذا فيحتاط على عصاه أبدا، وأذكر أنه كان يستعد للقعود ذات مرة فسحب الأولاد الكرسي بسرعة من تحته فسقط الشيخ سيد على الأرض وهبت عاصفة من الضحك. وكان الشيخ سيد يقرأ في المآتم فكان يلذ للأولاد أن يسألوه عن تفاصيل عمله في المآتم وخصوصا الفتة بل إن بعضهم سماه الشيخ ميت.
وكانت تأتينا في بعض أيام الأسبوع آنسات ليخرجن بنا فيما يسمى نزهة أو ليقصصن علينا بعض القصص المسلية، وكان من بينهن مشرفة لثغاء في الراء تنطقها غينا ولم تكن تقص علينا إلا قصة واحدة هي قصة المغارة فكانت تنطقها المغاغة، فمن كثرة ما كنا نضحك لا أذكر أنني سمعت نهاية هذه القصة، وكانت إذا أرادت أن تقص قصة أخرى قال لها الأولاد عايزين حدوتة المغارة يا أبلة.
وكانت تأتينا بعد الظهيرة من كل يوم سيدة كفيفة لتراجع معنا دروس المدرسة، وكانت تقودها ابنتها، فلم يزل المكفوفون بالفتاة حتى مالت إلى واحد منهم فاستسلمت له وانتهت علاقة هذه السيدة بالمدرسة بفضيحة لم يكتب لي أن أعرف نهايتها.
والفضيحة في مدرسة المكفوفين ليست غريبة، بل يكفي الواحد منهم أن يعرف عنك سرا ليتهددك بإحدى اثنتين إما أن يشاركك مصروفك أو يسير في المدرسة كلها معلنا سرك للإدارة ولزملائك بالجملة المشهورة مين ما

دريش يا تلامذة، وكانت شريعة المدرسة أو قل عرفها تقتضي أن سر العام الماضي يبطل في العام الجديد.

وكانت علاقة المقيمين في المدرسة بالمقيمين خارجها لا تخلو من طرافة، فقد كنا ننظر إلى المقيمين خارج المدرسة على أنهم المستمتعون بالحرية وملاك الدنيا، كما كان بعضهم وخصوصا الأطفال ينظر إلى مدرستنا بمن فيها على أنها متحف لعجائب المخلوقات. وكم من مرة سمعت فيها الأطفال ليلة رمضان يطوفون حول المدرسة قائلين بكرة صيام يا عميان.

وكانت أم سهير بائعة السندوتشات تلك التي تقف بعربتها خارج المدرسة هي أحب خلق الله إلى قلوبنا. كانت تمتد لها أيدينا بالعملات النقدية من خلال حديد السور فتعطينا ما أردنا أو ما تعتقد هي أننا نريده، ولم نكن نعدم من يأخذ منا العملات النقدية دون أن يعطينا شيئا لأنه مجرد واحد من المشترين مستغلا أننا لا نستطيع أن نميزه.

ألعاب المكفوفين

كانت الألعاب الرياضية التي نلعبها في المدرسة تنقسم إلى قسمين: ألعاب ثابتة كالعقلة وألعاب متحركة كنط الحبل والكرة وكرة الجرس والكوز. فأما نط الحبل فكان لعبة لا تخلو من خطورة لأن اللاعب ربما تعثرت قدماه بالحبل فينكفئ على وجهه، ورغم هذا فإن المكفوفين لم يكونوا يمسكون عنها؛ أما الكرة فهي كرة عادية يصطف لها اللاعبون فريقين يشوط كلاهما على الآخر ومع الفريقين مبصر يحضر الكرة إن ذهبت بعيدا، وتعد كرة الجرس هي التعبير الحقيقي عن المهارات السمعية وحساسية المتابعة وهي أيضا كرة عادية إلا أن في جوفها جرسا يستدل به المكفوفون على حركتها ومكانها ولها محترفوها المتمكنون منها، كما أن لها بطولات معروفة وإن لم يكن مسموحا

للجمهور بمتابعتها لأن تشويش الجمهور قد يحول دون سماع الجرس.

أما لعبة الكوز فهي اختراع عمياني مصري صميم، لا أدري ولا أظن أحدا يدري من الذي اخترعها ولكنها لعبة تعتمد على مهارتي السمع وخفة الرجل، وذلك أن المكفوفين كانوا أحيانا يسرقون أطباق المطبخ أو يأتون بعلبة صفيح ثم يدقون عليها بحجر كبير حتى تصير جسما مستديرا يضعه الواحد منهم تحت حذائه ثم يدفعه على الأرض فيجري دون أن يرتفع إلى أعلى.

وكانت في المدرسة فرندات أرضية ضيقة ذات سلالم من الجهتين فكان يقف على كل مدخل من مدخليها اثنان ويزحف الكوز على الأرض بين الفريقين فإن نزل على الأرض فلا شيء، وإن استقر على إحدى درجات السلم في أي الجهتين احتسب هدفا على من تخلل الكوز أقدامهم. وكان المدرسون والمشرفات ينهوننا عن لعب الكوز لأنه يفسد الأحذية ويوسخ الملابس ويؤدي إلى مشاجرات لا حصر لها، إذ ربما انفعل واحد من المهزومين فتناول الكوز فبطح به واحدا من لاعبي الفريق الآخر.

إلى جانب هذه الألعاب الرياضية كانت هناك ألعاب أخرى للتسلية، منها الكوتشينة، وهي عبارة عن كوتشينة عادية قد كتبت أرقامها بطريقة برايل، ومنها الشطرنج إلا أن لوحته بارزة تمكن الكفيف من تحديد المربعات وبالتالي من تحريك القطع، ومنها مربعات البلاستك التي يتم فكها وتركيبها في أشكال عديدة وهي تعتمد على قوة الذاكرة كما تعتمد على مدى ما في اليد من حساسية.ذلك أهم ما أذكره عن مدرسة المكفيفين قضيت فيها أربع سنوات صعبة، لهذا لم أستطع أن أرتبط بها وجدانيا ولكنها أفادتني في تكوين صورة شبه دقيقة عن ذلك المجتمع الذي أصبحت له بحكم التراكم تقاليد خاصة جعلته أشبه ما يكون بالجماعة الوظيفية التي يتكلم عنها المرحوم الدكتور عبد الوهاب المسيري.

***

عم توتو والقطة المنحلة

كانت علاقة عم توتو -الذي كانت حجرته مجاورة لحجرتنا في بيتنا القديم والتي كان يعيش فيها وحده- بالحياة علاقة انتساب لا علاقة انتظام، لأنه كان يقنع من الحياة بحدها الأدنى في كل شيء.

كان يأكل من الطعام ما ينقله من الجوع إلى الشبع بصرف النظر عن مذاقه أو لونه أو رائحته أو حتى فائدته الصحية وكان يشرب الشاي بعد الطعام اعتيادا لا تذوقا، ويلبس من الملابس ما لا تدري أللستر هو أم للفضيحة، ورغم أنه كان مدخنا فإنه لم يحتج قط إلى شراء علبة سجائر كاملة لأن إقلاله من التدخين من ناحية وما يأخذه من الناس من ناحية أخرى قد حمياه من هذه المصيبة.

وأنت ممن أصابتهم دعوة نبي إن دعاك عم توتو إلى حجرته ليعزمك على سيجارة وكوب من الشاي، فحين تدخل حجرته تحسبها قسما من المتحف البريطاني لتنوع ما فيها من أشياء لا قيمة لها، وحين تشفط أول شفطة من الشاي لا بد أن تسأل نفسك أهو فعلا شاي أم دموع أرملة كانت تخون زوجها؟ وذلك لأن القاسم المشترك بين هذا الشاي ودموع الأرملة التي كانت تخون زوجها هو عدم المصداقية، أما حين يناولك سيجارته التي هي أندر من بيضة الديك فسوف يأتيك يقين أن هذه السيجارة سوف تشفيك من كل مرض وإن كان بك سل أو صرطان.

وكان الناس يرونه أقل من أن يوقر فلم يوقروه، كما كانوا يرونه أطيب من أن يهان فلم يهينوه، وإنما كان أمرهم معه جاريا على المزاح الذي يقدرون عليه هم ويحتمله هو.

وكنا جميعا نحبه لأنه كان خفيف الروح حلو الحديث ساذج العقل يمسك

عن سيرة الناس بقدر ما يتحدث عن نفسه، وربما دعاه حديثه عن نفسه إلى بعض الفشر الذي نطيقه دائما بل نعشقه أحيانا.

كان يقعد معنا للأكل أو للشاي أو للسمر أو لكل هذا جميعا، وما دام هذا لن يكلفه شيئا فهو مستعد أن يسهر ولو إلى الصباح. وكنا نرسله في شراء الإفطار والشاي والسجائر فلا يمتنع ويبقى معنا إلى أن يتناول إفطاره ثم ينصرف إلى عمله، وكان بيت عم توتو جزءا من عمله كما كان عمله جزءا من بيته فقد كان كهربائيا بسيطا قصارى ما يطلب منه أن يقوم بفك لمبة أو تركيبها أو توصيل سلك أو دق فيشة.

فكنا نحن نستخدمه في ذلك مقابل أجرة بسيطة، وكان الناس في عمله بجوار أحد الدكاكين في باب الشعرية يقومون بنفس الشيء، بل كانوا يدبرون له مكانا يبيت فيه إن تأخر الوقت عليه.

وكان عم توتو يجمع جمعا لطيفا بين الفشر والسذاجة، ولعل هذا هو سر خفته على قلوبنا، وكانت له نوادر لم نزل نحكيها إلى الآن كلما جرى ذكره بيننا.

فلأنه من مدينة السويس كان يوهمنا أنه يعرف كل ما في السويس وكل من فيها، فإن سمع في الراديو قرأ عليكم فضيلة الشيخ علي حجاج السويسي قعد عم توتو يقص علينا حكاياته مع عم علي على حد زعمه.

وحدث أن بعض الأشقياء من شبابنا استغل غيابه في عمله فرسم له بالألوان على باب حجرته رجلا قد كشف عن عورته وأخذ يتبول. وحين عاد عم توتو من عمله في منتصف الليل وأبصر هذه الرسمة أخذ يسب ويلعن ثم قام إلى السكين فحك بها هذه الرسمة وبالفعل أزالها جميعا إلا شيئا واحدا لم يفلح في محوه هو العورة التي تتبول فقد بقيت شهورا على بابه يضحك منها كل من يمر بها.

وكان شبابنا العفاريت يغيظونه حين يلتفون حوله قائلين (عيب عليك يا عم توتو انت مش عيل صغير عشان ترسم رسمة زي دي على بابك)، فيحلف عم توتو ألف يمين أنه ليس هو الذي رسمها وأنه حاول محوها فلم يستطع، فيعاوده أحدهم (يا كداب أنا شايفك بعيني بترسمها)، فيجري وراءه عم توتو ويسبه فيفر منه الشاب.

وحين وضعت أختي طفلها الأول رجعت إلى بيتي فسألني عم توتو ماذا فعلت أختك؟ فقلت له وضعت وجاءت بولد فتهلل صوته وقال ألف ألف مبروك وماذا سميتموه؟ فقلت له شريف فذهبت بهجته وتغيرت لهجته وقال بسخط (بطلوا قرف، بطلوا وساخة بقا هي كل واحدة تولد ولد تسميه شريف!!! إتفو) ثم أغلق باب حجرته في وجهي. بقيت واقفا لا أنطق من فوق ولا من تحت كما يقولون، وحين سألت جيراننا الذين هم أقدم منا أخبروني أن زوجته حينما طُلقت منه تزوجت رجلا اسمه شريف، ومن يومها وهو يكره هذا الاسم.

وأبشع من هذا ما جرى لنا وله في ليلة شديدة من ليالي يناير حوالي الثالثة صباحا ونحن نستعد للنوم، فإذا السكون قد انشق فجأة عن صوت عم توتو وهو يقول بصوت مرتفع (يا وس** يا بتاعة الرجالة أنا شايفك بعيني مع دا مرة على السلم ومع دا مرة ورا الباب يا ...) إلى كلام طويل لا يمكنني أن أنشره هاهنا. خرجنا جميعا إلى الحوش نتحسس الخبر وانفتحت البلكونات المحيطة بنا وأخذ الشباب الأشقياء من إخوتي وجيراننا يتهامسون (عم توتو صايد واحدة ومختلف معاها في الأجرة)، وضحكنا مستنكرين لأننا كنا نعلم أن عم توتو ليس من أهل ذلك والتففنا جميعا حول عم توتو نسأله (بتشتم مين يا عم توتو؟)، ونزلت علينا جميعا الصاعقة حين قال لنا)القطة بنت

الجزمة بتنزّل علّي رملة من السقف) فانفجرت عاصفة من الضحك بعضها في بيتنا وبعضها في البلكونات المجاورة، وأحاط به الشباب يسخرون منه ويسألونه (برضو هي حكاية رملة !!! تلاقيك اتهجمت عليها أو حاولت تقل أدبك عليها) فيجيب آخر بسرعة)ليه لأ الوحدة وحشة)، وتتجدد عاصفة الضحك حين يقول ثالث (أتاريك بترجع متأخر وبتتسحب عشان تلحق الجو وهي راجعة من برا)، وانتهزنا الفرصة لنطلب من أمنا شايا ولنسهر على هذه القصة حتى الصباح.

على أن من الإنصاف أن أقول لكم إن خفة ظل عم توتو وخفة حركته وحبه لجيرانه لم تكن هي الأسباب الوحيدة لحبنا له، بل كان هناك سبب آخر لعله فوق هذه الأسباب جميعا. هذا السبب هو أن عم توتو كان فوق الأربعين حين كنا صغارا وكانت له ابنتان آنستان فكان يبذل قصارى جهده في أن يوفر لهما حياة كريمة وكانت ابنتاه تعيشان في السويس على حين يعيش هو بيننا في القاهرة، فكان يجوع هو هنا لتأكل ابنتاه أحسن أكل، ويلبس أحقر الثياب لتلبس ابنتاه أرقى ملابس ويقبل مزاح الكبير والصغير ليرفع رأسه بينهما حين يتقدم لهما خاطب يريد أن يضع يده في يد رجل .

وكان يسافر إليهما كل شهر فتراه ليلة السفر مرحا يغسل ملابسه ويستحم ويغني كأنه ذاهب ليستعيد أبوته المؤجلة، لهذا كنت أقول كلما رأيته على هذه الحال لعل في تضاعيف الأبوة معنى من معاني النبوة.

من هنا كنت أرى عم توتو بطلا بمعنى الكلمة، لأن البطولة الحقيقية ليست فيما تأكل وما تشرب وما تلبس وما تركب، بل البطولة الحقيقية في أن تقوم بمسؤوليتك على الوجه الأكمل وأن تكون قادرا على أن تهب الحياة لمن أنت سبب حياتهم.

اشترى بيتنا القديم مالك جديد وأراد هدم البيت وتحويله إلى عمارة كبيرة وحاول أن يُخرجنا جميعا فلم يستطع، فاختار أضعفنا وهو عم توتو وأخرجه من البيت مقابل مبلغ زهيد، ويوم ترك عم توتو حجرته كان حزين القلب والنفس وقال لنا قبل أن يمشي إنه سوف يزورنا .

ومرت سنوات كثيرة ولم يزرنا عم توتو، وبعثنا إلى باب الشعرية من يسأل عنه فلم يقف له على خبر ومر على رحيله حوالي ربع قرن وما ندري أهو اليوم حي أم هو في عداد الهالكين.

***

من قراصنة المكفوفين

لست أدري من الذي أقنع قطاعا عريضا من الناس أغنيائهم وفقرائهم أن الكفيف نقي طاهر إلى أن يثبت العكس، كأن الشر لا يكون إلا في العيون.

والحق أن كثيرا من المكفوفين الأشرار يستغلون هذا الانطباع أسوأ استغلال، فيفتعلون فوق عماهم عمى آخر، ويدعون لأنفسهم من الأمراض ما لا يعرفون إلا اسمه، ومن الفقر ما تشهد حياتهم ببطلانه، بل لا نبالغ إن قلنا إن بعض المكفوفين المستغلين أغنى ممن يتصدقون عليهم، ولم يكن بعض رؤساء جمعيات المكفوفين ليسلموا من هذا.

ففي أوائل ثمانينيات القرن الماضي ظهر رجل قدّم نفسه على أنه راعي المكفوفين في الدنيا والآخرة، وكانت اللافتة المعلقة على حياته وشخصيته هي أنه دكتور في علم النفس وأنه حصل على الدكتوراه من فرنسا.

ذلكم هو الدكتور ز.ف..

كان كفيفا ضخم الجثة، محبا للطعام والشراب والضحك وكل ما يمت بسبب للرفاهية، وكانت له فوق ذلك هواية غريبة، كان يحب اصطياد النساء ليثبت لهن أنه عاجز جنسيا، فكانت الشريفات يشتكين من استدراجه كما كانت الساقطات يشتكين من فشله.

وكان إذا ضمته المجالس بعلية القوم أو من يظنهم هو علية القوم أفرط في حديثه عن حياته في فرنسا وتفوقه الذي يستطيع متوسط الذكاء أن يعرف أنه أكذوبة، وكان يحلو له حين يتحدث عن جمعيته أن يزعم أنها تخدم سبعة آلاف كفيف، وذلك لأنه كان يحتسب الموتى، والمسافرين، والذين انقطعت صلتهم بالجمعية منذ سنوات عديدة، والذين لم يدخلوا الجمعية إلا مرة واحدة وفي هذه المرة تم تسجيل بياناتهم فاعتبروا ممن تلحقهم خدماتها!!!.

وكان يحتال على المكفوفين والمبصرين بطريقتين، مبنيتين على قاعدة واحدة هي أن يقوم بإعداد موائد ضخمة تضم كثيرا من المكفوفين وأثناء أكلهم أو تحركهم يقوم مساعدوه المبصرون بتصويرهم ثم يقوم هو بإرسال هذه الصور التي تم التقاطها إلى جمعيات المكفوفين في أوربا لطلب مساعدات مادية وعينية.

ولم تكن هذه الجمعيات تتأخر في إرسال نوعي المساعدة، فأما المساعدات المادية فكان يحتفظ بها لنفسه، وأما المساعدات العينية كالعصي وما جرى مجراها فكان يبيعها للمكفوفين بأسعار باهظة.

وكان مما يكسبه مصداقية تامة لدى الجمعيات الأوربية ومصداقية جزئية لدى الشئون الاجتماعية تلك الإيصالات التي يوقع عليها المكفوفون عند تسلمهم أموالا، أو بطاطين، أو شنطة رمضان، أو عصيا، تلك الأشياء التي تتم المبالغة في أسعارها كما تتم المبالغة في عدد مستلميها، وذلك أن الكفيف لم يكن يصطحب معه من يقرأ له ما تم التوقيع عليه، والويل كل الويل لكل كفيف تسول له نفسه الآثمة أن يصطحب معه مبصرا يقرأ له ما سوف يوقع عليه، لأن معنى هذا أنه يشك في ذمة الدكتور الطاهرة، كما كانت لديه أختام وصور بطاقات يتم استعمالها عند اللزوم.

وكانت هناك فتاتان كفيفتان إذا رأيتهما حسبتهما من ممتلكات الجمعية، فلم تكونا تعارضانه في شيء مما يقول على الإطلاق كأن أفواههما متصلة برأسه هو، ولن أنسى أبدا تلك المرأة التي كانت تستحق المد على رجليها بالحزام، ذلك أنها كانت تعلق على كل ما يقوله الدكتور مهما بلغت تفاهته بقولها ختير ختير يا دكتور وهي طبعا تقصد خطير.

ولست أدري من ابن الحرام الذي أقنعه بأنه قصّاص موهوب، فكان يعهد إليّ بتصحيح قصصه التافهة وكنت أوافقه أو أنافقه طلبا للخدمات الثقافية التي كانت تقدمها الجمعية من تسجيل الكتب على أشرطة، إلى قراءة مباشرة في مقر الجمعية، وكانت جلسة تصحيح القصص تتكون مني ومنه ومن الفتاتين ومن القارئ المبصر الذي يقرأ وآه ثم آه إن كانت القارئة فتاة جديدة، هنالك يرق صوته حتى إنه ليكاد يكون أشد منها أنوثة.

وكان عليّ في هذه الجلسات وظيفتان، إحداهما التصحيح والأخرى أن أقول الله الله بعد كل قصة وأنا على وشك الغثيان، ولم يكن ضميري يؤنبني على هذا النفاق الذي يشبه أكل الخنزير عند الضرورة، لأن الاحتياج نوع من أنواع العبودية.

وكان الرجل يوّحد بين شخصيته وشخصية الجمعية، فإن غضب عليك توقفت كل خدمة كنت تحصل عليها، إما عن طريق الرفض المباشر أو عن طريق الاعتذار بأن ما تريده لم يتم الحصول عليه بعد مع وعود مؤكدة بأن الجمعية سوف تتصل بك حين يتم الحصول على ما تريد.

ورغم أن المكفوفين من أشد الناس ولعا بتفسير ما لم يعلموا عن طريق الإشاعات، فإن لإشاعاتهم حول هذا الرجل ما يبررها، فهم يتساءلون بحماسة منقطعة النظير إذا كان هذا الرجل لا يدّرس في جامعة، ولا يشارك في مؤتمرات علمية، ولا يطبع كتبا يعيش على ريعها، ولم يرث عن أبويه مالا ضخما، فمن أين له شقة واسعة في أحد الأحياء الراقية وسيارتان!!!.

على أن من إحقاق الحق أن أقول لكم إن وجود الجمعية لم يكن سلبيا تماما، بل كانت فيه جوانب إيجابية متمثلة في أولئك المتطوعين والمتطوعات الأرستقراط المتحمسين، فلم تكن خدمتهم تقتصر على مجرد القراءة والكتابة، بل كان بعضهم يوصلوننا بسياراتهم إلى منازلنا.

ولم يكن هذا بفضل رئيس الجمعية والعاملين فيها بل كان بفعل الحب الذي ينشأ بيننا وبينهم، وحسبكم أن تعلموا أن حبيبتي المسيحية التي سترد قصتها لاحقًا إنما قابلتها هناك.

ولا يستقيم الحديث عن قراصنة المكفوفين دون الحديث عن سيد اللورد، ذلك الكفيف الذي لم يكمل تعليمه في مدارس المكفوفين، كان فتى لطيفا بحق نحيف الجسم ضاحكا بصفة مستمرة، ولم أكن أعلم يوم عرفته أن ضحكه الدائم هو جزء من عدة الشغل.

ظهر في حتتنا فجأة على أحد المقاهي ثم لم يلبث أن اجتذب قلوب المبصرين المغفلين بما كان يبدو عليه من مظاهر الثراء، فقد كان أنيق الملبس، باذخ النفقات في المقهى، يأكل أغلى الأطعمة، ويمنح صبيان المقهى بقشيشات كبيرة، ويدعو من عرف ومن لم يعرف إلى مشروب أو اثنين أو ثلاثة في السهرة الواحدة، ولا يتحرك إلا بتاكسي، وبها بذل للناس من الوعود الكاذبة في كل اتجاه فهذا سوف يجد له عملا، وهذا سوف يساعده على قرض من البنك، وهذا سوف يشاركه على تاكسي، وذاك سوف يشاركه في فتح محل وهذا سوف يحصل له على شقة من وزارة الإسكان ليتزوج فيها.

ولم تمر إلا أسابيع قليلة حتى أصبح سيد اللورد مركز المقهى لا يستطيع كبار المعلمين القعود إلا به، وكان عمله عبارة عن توريد أدوات نظافة للشركات فما أسرع ما كون فريق عمل من المغفلين الذين كنت أنا واحدا منهم ووظيفة هذا الفريق أن يدور بأوامر الشغل على الشركات وأن يأتيه بالإيصالات التي تدل على موافقتها آخر النهار. وبعد أن انتهى الشهر وحان ميقات المرتبات فوجئنا جميعا باختفاء سيد اللورد، ولم تكن المصيبة في العاملين معه الذين لم يتقاضوا مرتباتهم بل كانت أكبر من ذلك بكثير.

فقد اكتشفنا أنه تقاضى من الناس أمولا طائلة إما على أنها أقساط لأشياء سوف يشتريها لهم، أو مبالغ اقترضها من أصحاب المقهى، إلى غير ذلك مما لا أكاد أحصيه لكم، فأصبح الناس لا هم لهم بالنهار إلا البحث عن سيد اللورد ولا حديث لهم بالليل إلا عنه، فيقول واحد إنه من الإسكندرية ويؤكد ثان أنه من الفيوم ويقسم ثالث أنه من المنصورة، وعبثا حاولوا أن يجدوه في الأماكن التي كان يتردد إليها أو الشقة التي استأجرها بصفة مؤقتة فلم يعثروا له على أثر.

على أن السرقة والاحتيال لم يكونا هما الوجهين الوحيدين للقرصنة، بل كان هناك وجه آخر هو أسلم طريقة وأسهل مسلكا. ذلكم هو استجداء الجمعيات والشركات بصفة شهرية، ولعلكم لا تصدقونني إن قلت لكم إنني أعرف موظفين مكفوفين يحملون في جيوبهم جداول للشركات التي يتقاضون منها إعانات شهرية، ولن أنسى أبدا ذلك الطالب الكفيف الذي ينتمي إلى أسرة كفيفة تعيش على الإعانات الشهرية من الجمعيات المحيطة بهم، ذلك الطالب الذي تزوج وهو في الفرقة الثالثة بإحدى الكليات وكان مبرره لهذا أنه يخشى على نفسه من الفتنة كأنه مصطفى قمر أو تامر حسني، والتعليق الوحيد الذي قلته على هذه القصة حين علمت بها جاتنا نيلة في حظنا الهباب.

كانت هذه الأحاديث قديما تفزعني، أما اليوم فإنها لم تعد تفعل ذلك لأنني علمت أن هذه هي الحياة، لا بد أن يوجد فيها محتال مادام فيها طامع، ولا بد أن يوجد فيها مستغل مادام فيها محتاج، ولا بد أن يوجد فيها قادر جبار مادام فيها عاجز متواكل، نعم هذه هي الحياة فإما أن نقبلها كما نطيق أو نخرج منها كما نستطيع إن كنا نستطيع.

***

أتراكم تصدقونني إذا قلت لكم إن وراء الأديان وما بينها من اختلاف، والوثائق وما بينها من تضارب، ورجال الدين وما بينهم من حروب، ثمة منطقة في كل منا تعرف الله حق المعرفة ويعرفها الله حق المعرفة. نعم في كل نفس توجد منطقة نقية لا تحتاج إلى تفاصيل الأديان لترفع ضراعتها الصادقة إلى الله الواحد القوي القادر الرحيم.

أما لماذا بدأت حديثي إليكم بهذه العبارات فسوف أغيظكم وأؤخر الإجابة عن هذا السؤال إلى آخر هذا الحديث.

كان أصحاب البيت الذي نسكن منه حجرة واحدة عبارة عن أسرة مسيحية كبيرة تتكون من أب وأم وسبعة أبناء وبنات وكان كل واحد منهم مختلفا عن الآخر كأنه عالم قائم بذاته. وهم بالترتيب صبحي، استاسيا، مشمشة، تادرس، يوسف، إبراهيم، وأخيرا مريم، وكانت أمهم تسمى خالتي أم صبحي كما كان أبوهم ينادى بعم جورج.

وكانوا يقيمون في شقتين إحداهما في الطابق العلوي والأخرى في الطابق السفلي قد ألحقت بها حديقة واسعة، وهذا هو السبب المباشر في زيارتي الدائمة لهم لأنني كنت أحب القعود تحت أشجار هذه الحديقة.

كانت خالتي أم صبحي سيدة وديعة قليلة الكلام أما حين تتكلم فقد كانت تلهج بالحلم الأمريكي وذلك أن أخاها كان قد سافر إلى أمريكا منذ حين واعدا إياهم أنهم سوف يلحقون به قريبا، فكان هذا الحلم الحلو يداعب خيالهم صباح مساء.

كانت خفيضة الصوت باسمة في وجوه الجميع وكنا حين نطلب إليها أن تذبح لنا دجاجنا تقول باسم الله الرحمان الرحيم لأنها كانت تعلم أن العبارة

التي يستخدمها المسيحيون وهي باسم الصليب سوف تجعله حراما علينا. ورغم أن جيراننا جميعا كانوا من عشاق النميمة فإنني لم أسمع أحدا من جيراننا يذكرها بسوء قط.

أما صبحي أكبر الأبناء فقد كان شابا دنيويا، ثم لم يلبث أن هجر الدنيا تماما والتحق بسلك الكهنوت وكان يتخذ في ملابسه من الداخل أحجبة لتقيه من الشيطان الأكبر الذي يسمى النساء.

وكنت حين أراه أنقبض كما كان هو حين يراني يخفض صوته، وكان اشتغاله بالكهنوت وجهلي بالأديان يمنعاننا من أن نتناقش في الأديان وكان أهل حارتنا يشيعون عنه أنه من شدة تفوقه اختل عقله فلجأ إلى الكهنوت.

ولم يكن في أسرتهم من هو أعجب من استاسيا فقد كانت أرجح الناس عقلا حين تعقل وأشدهم جنونا حين تجن. أجل ربما كانت تجلس إليك تحدثك أحسن الحديث وتضحك في وجهك أعذب الضحكات ثم يعن لها أن تلتمس المشط لتصفف شعرها فلا تجده فتسأل عنه برقة ثم بحدة ثم تطلق صرخة مدوية وهي تقول المشط يا ولاد الكلب وتستمر في الصراخ وتلطم خديها وترتمي على الأرض حتى تمتلئ شقتهم السفلى بالناس.

ولهذا كنت أفزع منها أشد الفزع ولا أكاد أكلمها إلا في الضرورة وأذكر أنها قالت لي ذات يوم وأنا عندهم (أهلا ياسي عمر) فقلت لها وجسمي يرتعش)صلاح يا ست هانم، ومع ذلك إذا كان عاجبك اسم عمر نلغي صلاح وأسمي نفسي عمر).

وكان تادرس ثالث الأبناء طويلا لبقا ناصع الصوت مدخنا ضحوكا، حين تدعوه الضرورة إلى الحديث عن الإسلام يثني على أبي بكر لرقته ويتحفظ على عمر لغلظته. ومما أذكره من نوادر تادرس أن عم سعيد صاحب الراديو ذلك

الذي سأحدثكم عنه لاحقاً أرسل إليه ذات مرة ليكتب له خطابا يرسله إلى ذويه في كفر الشيخ، وكانت زوجته قد أعدت جيلي، فلما جاء تادرس قدموا له من هذا الجيلي فأخذ تادرس يعمل ثلاثة أشياء في وقت واحد يكتب الخطاب، ويأكل الجيلي، ويخرج ريحا بصوت مرتفع دون أن يلهيه واحد من هذه الثلاثة عن الآخر.

واستبد الضحك بي وبأولاد عم سعيد كما استبد الحرج بعم سعيد نفسه فأخذ يصيح بنا وهو عاجز عن كتمان الضحك (وبعدين وبعدين يا ولاد!!! وأخيرا اضطررت إلى ترك الغرفة قبل أن تكتمل الرسالة).

ولا تسلني عن مشمشة الرقيقة الجميلة الخفيضة الصوت، فقد كانت ساحرة بكل معنى الكلمة، وكان أحب أوقاتها معي حين آتيها بكتاب مختار الصحاح فتقرأ لي فيه بالتشكيل، فكنت أعجب لها وأعجب بها وكان يسرها ذلك الإعجاب.

وليس عندي ما أقوله لكم عن يوسف، فقد كان أشبه ما يكون بلقمة سقطت من يدي طفل عبيط، ذلك بأنه لم يكن صاحب كلمة مميزة ولا موقف مختلف لا في الخير ولا في الشر.

وعلى نقيض يوسف كان إبراهيم، كان عدوانيا عالي الصوت مستعدا للمشاجرة في أي وقت ولأي سبب، لهذا لم يكن محبوبا من الناس كإخوته.

ورغم أن مريم لم تكن جميلة كأختيها مشمشة واستاسيا، فإنها كانت خفيفة الروح لست أدري لماذا كانت تحب أن تصافحني كلما لقيتني ولكن هذه المصافحة كانت تسرني خصوصا حين تأتيني ممزوجة بضحكاتها التي كنت أحبها.

أما عم جورج رأس هذه الأسرة والذي تعمدت تأخير الكلام عنه فقد كان أشبه ما يكون بقديسي عصر الشهداء إن صح ما ينسب إليهم. كان عجوزا، ثقيل السمع متزن البنية، طويل الأظافر، عميق الصوت ما لم يستخدمه في الصياح، ينادي الناس جميعا بكلمة يا أخ، ولا يرى إلا حاملا الكتاب المقدس. وكان بعض السفهاء يستغلون ثقل سمعه ليشتموه بصوت مرتفع فكان يرد عليهم بالشكر ظنا منه أنهم يشكرونه أو يثنون عليه، إلا أن هذا لم يكن يمثل الحالة العامة لأننا جميعا كنا نحبه ونفرح به حين يأتي لزيارتنا وشرب الشاي عندنا.

وكان سبب حبنا له تلك النفس الخيرة التي كانت بين أضلعه، فكم من مرة رأيته يحمل الإفطار إلى عم صويلح جارنا البدوي العجوز، وكم من مرة رأيته قاعدا عندنا في الحوش وحوله عم سعيد وأسرته وهو يتلو عليهم سورة مريم ويفسرها لهم.

وحين خلت غرفة من غرف البيت أبى أصحاب البيت أن يؤجروها لأحد واتخذها عم جورج مكانا لعبادته فكنت أسمعه طول الليل يقرأ كتب العهدين، وذات ليلة فتح الباب فجأة فوجدني قاعدا أمام الباب فصاح بصوت عال أبعدوه عني!!.

ومن أعجب ما وقع له أن جارا من جيراننا آذاه إيذاء سخيفا، فدعا عليه عم جورج قائلا إلهي ما تخش البيت إلا ودراعك مكسور يا بعيد، فما مرت إلا أيام قليلة حتى فوجئنا بجارنا هذا مكسور اليدين والرجلين يحمله غيره أو يمشي على عصوين. وبعد أن شفي جارنا هذا كان من همه كلما أبصر عم جورج في الطريق أن يحمل عنه ما في يديه إن كان حمله ثقيلا أو أن يسنده إن احتاج إلى ذلك.

وهذا هو ما جعلني أقول لك في مستهل هذا الحديث إن في كل نفس منطقة تستطيع أن تعرف الله، وحين هاجرت هذه الأسرة إلى الولايات المتحدة تركت في حياتنا فراغا كبيرا. وكم كانت فرحتي حين عادت مريم في إجازة قصيرة لتحدثنا عن التغيرات التي حدثت لأسرتها، ترك صبحي سلك الكهنوت وتزوج بعد أن عمل في أحد المصارف وعاد إلى استاسيا عقلها الغائب بعد أن تزوجت وأصبحت أما.

وحين علمت بوفاة عم جورج حزنت ولكني حزنت أضعاف ذلك حين علمت بوفاة تادرس وهو في ريعان الشباب، ومنذ أكثر من عشرين عاما لم أعرف عنهم خبرا واحدا كأنهم لم يكونوا من قبل.

***

عم سعيد

كان عم سعيد حريقا آدميا بكل معنى الكلمة، فإن قلت إنه كان أقرب المجانين إلى العقل كنت على صواب، وإن قلت إنه كان أقرب العاقلين إلى الجنون كنت على صواب، لست أدري من الذي أوهمه أن الطريق إلى السماء مثل الطريق إلى ميدان التحرير. وبما أن الطريق إلى ميدان التحرير خال صباحا مزدحم في الظهيرة فكذلك الطريق إلى السماء.

لهذا فإنه كان يصلي الصبح وحده في أكثر من ساعة أما الظهر والعصر والمغرب والعشاء فقد كان يصليها جميعا فيما لا يزيد عن عشر دقائق.

وكان إذا وقف لصلاة الصبح رفع صوته إلى أقصاه ولم يترك شيئا من أمور الدنيا بما فيها تفاصيل الحياة اليومية من طعام وشراب وكساء وتعليم وربما المياه والمجاري والآخرة بما فيها عذاب القبر والحساب والميزان والصراط والجنة والنار إلا دعى به!

وكانت النتيجة المباشرة لهذه الأدعية الطويلة الصاخبة ألا يستجيب الله وأن أصحو أنا من نومي منزعجا. فإذا فرغ من هذه الصلاة الميمونة اعتبر نفسه هو وأسرته في ساعة الظهيرة فأخذوا يطبخون الطبيخ من أجل الإفطار فيصيح بعضهم على بعض (هات يا واد، هاتي يا بت، كبوا المية، خرطوا البصل، ولعي البابور يامرة...)أو يغتاظ عم سعيد من أحد أولاده فيشتمه بأقذر الألفاظ من نوع يا ابن المفعالة وما جرى مجراها.

وذلك أن عم سعيد كان متدينا على ما تفرج، فإذا دخلت إليه الدنيا من باب عمل مربح أو جمعية قبضها فإن علاقته بالدين يتم تأجيلها إلى إشعار آخر.

أجل كان يحب أن يكون دنيويا في معيشته ولكن يحب أن يُعرف بأنه متدين، وما يدرينا لعله كان صادقا في الشعورين جميعا، ففي كل واحد منا دكتور جيكل ومستر هايد.

وهذه الدنيوية الصاخبة قد جعلته يعلم أولاده كيف يملكون مادة الحياة لكنه نسي أن يعلمهم كيف يكونون أحياء فقنعوا من حياتهم بمعنى الضرورة دون معنى الجمال .

لهذا كانت حياته وحياة أسرته تدور حول قيمتين كبيرتين هما الادخار والكتمان، فالذي ليس معه قرش لا يساوي قرشا، ومن أجل هذا كان هو وأسرته لا يهتمون بأنهم يلبسوا ملابس رخيصة متواضعة ما دامت أموالهم التي يدخرونها تزيد يوما بعد يوم.

ومن طرائف ما وقع لهم أن رجلا أراد أن ينصح ابنه بالاجتهاد فأرسل في طلب خميس ابن عم سعيد وقال لابنه أمامه: (يا ابن الكلب اتعلم وخليك شاطر ومجتهد.. شوف خميس شكله زي الشحات لكن اللهم صلي على النبي ناجح في المدارس).

إلا أن هذه الطريقة أيضا كان لها وجهها المشرق فقد حصل ابنه وابنته على شهادتين عاليتين بفضل الحرص والدأب. ورغم الفترة الطويلة التي قضاها عم سعيد في القاهرة فإنه لم يستطع أن يتخلص من لؤم الفلاحين. وفي

الفلاحين صفة غريبة هي أنهم قد يخفون أشياء لا قيمة لها مع أنهم قد يصرحون بأشياء مخجلة، وكذلك كانت حال عم سعيد، فربما يقص علينا بالتفصيل كيف عاشر زوجته ليلة أمس ولكنه يكتم عنا أنه حصل على عشرة جنيهات من عمل جديد أو جمعية قبضها حديثا.

وكان هذا الكتمان ربما يكلفه كثيرا ولكم أن تتخيلوا معي أننا في شهر يوليو وأن عم سعيد قد اشترى دجاجة له ولأسرته فدخل بها الحجرة وأغلق بابها بالترباس وشباكها بالترباس وأشعل البابور علما بأنه لا يمتلك مروحة وفي هذا الجو الجهنمي يتم تنظيف الدجاجة وتسويتها مع ما يلزم لها من الأرز ولون آخر من الطبيخ وأن هذا العمل قد يستمر عدة ساعات متصلة فإذا فرغوا من الأكل أرسل بعض أولاده يستطلعون الطريق إلى الحمام للتخلص من بقايا المرحومة وحين يجدون الطريق فارغة يتم حمل بقايا المرحومة في سرية تامة وتحت إجراءات أمنية مشددة لكي لا يعلم الناس أنهم أكلوا دجاجة فيحسدوهم. وبعد الفراغ من أكل الدجاجة يجلس عم سعيد على عتبة حجرته كأنه هارون الرشيد بعد أن أتته الخلافة.

وبسبب هذا الذي ذكرته لكم كان غناه وفقره متشابهين، وكان إذا أجهده الفقر توترت أعصابه وأخذ يسب ويلعن لأتفه الأسباب.

ومن عجائب ما جرى له أنه كان قاعدا على عتبة حجرته ذات يوم بين العصر والمغرب يشتكي الجوع فما راعه إلا قط ضخم قد تنزل من أحد الأسطح وفي فمه سمكة كبيرة تزن أكثر من كيلو، فجعل عم سعيد يقول له تعال تعال فلما

انحط القط بالسمكة إلى الأرض قام إليه عم سعيد فانتزع السمكة من فمه ورمى له منها موضع أسنانه ثم قام يحضر الليمون وما يلزم لأكلها ثم أكلها غير مهتم بطبيعة الرحلة التي مرت بها السمكة في فم القط أكلها شاكرا لله نعمته وللقط صنيعه.

على أنه كان رجلا طيب القلب يعشق من الدنيا ثلاثة أشياء هي الطعام وقص القصص وحديث النساء، وكان موهوبا في القص لهذا كانت قصصه تعجبنا وكانت هي التسلية الوحيدة لنا قبل أن نقدر على شراء الراديو.

وكان هو أسبق منا إلى شراء الراديو، فكان يخرج به إلى الحوش ويقوم بتشغيله في الليل فنجتمع حوله ونتملقه، فإن قال نكتة سخيفة وجب علينا أن نضحك، وإن تكلم في الدين بما هو خطأ لم ننطق بكلمة لأن عدم الضحك على النكتة أو تصحيح المعلومة لعم سعيد قد يترتب عليهما غضبه وبالتالي إغلاق الراديو.

وكان يوما أسود علينا جميعا يوم قرأ عم سعيد (ليلة القدر لك خير من ألف شهر) فقلت له يا عم سعيد مفيش لك فقال بعصبية (أنت كمان يا أبو ش*ة هاتعلمني!؟) وأغلق الراديو ودخل حجرته.

كان عم سعيد يغلق عليه وعلى أسرته الباب في السابعة مساء. وبعد إغلاق الباب يتناولون بالتحليل والتعليق أهم ما جرى له خلال يومهم. ثم يبدأ عم سعيد في إصدار حزمة القرارات الجديدة التي تضاف إلى حياتهم. وكان من أبشع نتائج هذه الحياة المغلقة أن ابنهم الأكبر كان ربما استيقظ في منتصف

الليل أرقا فألفى أبويه يستحلان ما أحل الله لهما فتنقبض نفسه إذ كان تحت العشرين بقليل. فكان يود لو كانت له زوجة يأنس إليها ويستحل منها ما أحل الله له. وحدث أن تقدم إلى إحدى قرائبه فردته ردا جميلا فاضطربت نفسه بعض الاضطراب. واختل عقله بعض الاختلال. فكان يأتي أفعالا غريبة أزعجت أسرته غاية الإزعاج. فلما وجد من تقبله زوجا لها ثاب إليه ما كان قد ند عنه من عقله.

وكان أهم درس تعلمته من عم سعيد وأسرته أن الحياة قد انقسمت قسمة عادلة أو جائرة بين الموهوبين القادرين على أن يعملوا أضخم الأعمال في أقصر وقت والدؤوبين القادرين على أن يعملوا عملا عاديا في وقت طويل، فالحياة تتسع لكليهما معا وتعطي كلا على حسب إخلاصه لما يعمل.

فأنا الصايع الذي لم أكن أستذكر إلا قليلا كنت أحصل على تقديرات تساوي ما يحصل عليه ابنا عم سعيد اللذان لم يكونا يتركان الكتاب إلا للحمام، أو للأكل، أو للنوم.

ويوم ترك عم سعيد وأسرته بيتنا وسكنوا في شقة بعيدة أحسست بأزمة نفسية لأنهم كانوا جزءا من طفولتي الحلوة.



جنيهان

كان عم رضا أو رضا بيه كما كان يسميه بعض شباب حينا، طمعا فيه، أو سخرية به، مرآة تعكس صخب الحياة، ومخزنا لجميع متناقضاتها.

فقد كان في مشاجراته متوحشا، صخابا، سبابا، لا يعرف كلمة يهتك بها عرض خصومه إلا قالها، ولكنك كنت تراه في أحيان أخرى ضائقا بالحياة يبكي كما يبكي الأطفال ويغضب مما منه يغضبون، وربما انشرح صدره وطابت نفسه فأقسم على جيرانه أن يأكلوا معه من الطعام الطيب الذي أعدته زوجته.

وكان كلما سكر فعكر فلم يجد من يتشاجر معه خرج قبيل الفجر بملابسه الداخلية فصاح بأعلى صوته (آه يا حارة وس**، علي الطلاق أنا أول واحد فيك لبس لباس)، ولما كانت مسألة اللباس هذه مسألة تاريخية لا يمكن القطع فيها بالصحة أو بالبطلان، فقد كان أهل حارتنا يقنعون بالضحك دون تصديق أو تكذيب. على أن هذا لم يكن هو السبب الوحيد لضحكنا بل كان هناك سبب آخر هو أنه كان حين يرفع صوته كان صوته يخرج نحيفا محشرجا كأن في حلقه دجاجة تختنق.

وكان يعمل في تزوير الأوراق الرسمية بوساطة غيره لأنه كان أميا، إلى حد أنه عرض على ابنته بعد حصولها على الإعدادية أن يعطيها بكالريوس طب ولا داعي أن تمقق عينيها في المذاكرة والكتب!!!

ولهذه المهنة أيام تروج فيها وأيام تصاب فيها بالكساد، وكان في الحالين معا ينفق بإسراف لا حدود له، فكانت حاله تتراوح بين الغنى الفاحش والفقر المدقع، وكان ربما مر بالحالين معا بين عشية وضحاها.

فيا رب ليلة سمعت فيها الحارة من بيته فرقعة زجاجات الوسكي وهي تنفتح، فإذا كان صبح هذه الليلة لجأ إلى بعض أصحابه يقترض منه سيجارة أو مالا قليلا لينفقه على إفطار أسرته.وكان من عجائبه التي لا تنقضي أنه كان مدمن خناقات مع أنه لم يخرج منها سليما قط، وأذكر أننا دخلنا عليه ذات ليلة بعد إحدى هذه الخناقات فوجدناه طريح الفراش لا يستطيع أن يرفع يدا ولا رجلا، وهو مع هذا لا يكف عن استعمال لسانه ربما لأنه العضو الوحيد الذي خرج من الخناقة سليما، فأخذ يتوعد ويتهدد ويقسم بأغلظ الأيمان أنه سوف يدفن أعداءه تحت منازلهم وهم أحياء.

فقلنا له جميعا إن شاء الله أنت بس تقوم بالسلامة وبعدين يحلها ألف حلال فإذا خرجنا من عنده ذهب بنا الضحك كل مذهب، لأننا نعلم قياسا على ما سبق أنه لن يفعل شيئا.

وكان من أعجب ما وقع له أنه كان يسكن في بيت قديم ذي حجرات كثيرة تسكنها أسر متعددة وكان من بينهم جار غامض لا يعرف عنه أحد شيئا، فقد كان يختفي أياما أو أسابيع ثم يظهر فجأة فإذا دخل حجرته أغلق عليه بابها ولم يخرج إلا للحمام.

وفي إحدى هذه الغيبات الطويلة وفي أمسية من تلك الأماسي التي يقعد فيها رضا بيه للسكر والسمر وقعت عينه على حجرة رشاد جاره الغامض فسأل بحماس فين رشاد؟ فرد بعضهم حد عارف بيروح فين؟ وأفرطوا جميعا في ذكر السبب الذي لأجله يتعامل رشاد معهم بكل هذا الغموض. وآخر ما انتهوا إليه بعد ضرب أخماس في أسداس أنه يقوم بتحضير الجن وهذا هو السبب في

غموضه وإغلاق حجرته بصفة دائمة. والنتيجة المترتبة على هذا هي أن في حجرته كنزا بلا شك.. نعم كنز استطاع الحصول عليه عن طريق الجن.

ولعبت الخمر برأس صاحبنا وجلسائه فلم يتمهلوا أن كسروا باب الحجرة، وكم كانت خيبة أملهم حين لم يجدوا فيها إلا جرائد قديمة وخرقا قديمة وأشياء لا تستحق الذكر.

ولم يشأ رضا بيه أن يرجع من غزوته تلك خاوي الوفاض، فقرر احتلال الغرفة وتحويلها إلى ممتلكاته. وحين عاد المسكين وقف له رضا بيه وعصابته فجمع المسكين ما بقي من أشيائه ومضى إلى حيث يعلم الله.

ولم يشعر رضا بيه بأي قدر من تأنيب الضمير فقد كانت هذه هي حاله التي لا تتغير، فإن مضيت تفتش فيه عن أي معنى للعفة وجدته يعف عن كل ما هو حلال. وكانت حياته لا سقف لها ومريدوه من الشباب يقصدون بيته ليل نهار طمعا في طعامه أو ماله أو خمره أو حشيشه كما كان ضعاف النفوس يطمعون في بناته.

ولا تفهموا من هذا أنه كان قوادا أو مستعدا لتقديم تنازلات في هذه الناحية، بل كان لا يرى بأسا بأن يجتمع إليه مريدوه طيلة الليل وبناته غاديات رائحات بالثلج للخمر، والنار للحشيش، والعشاء بعد الأنس، والشاي بعد العشاء. فكانت نتيجة ذلك أن بناته أصبحن عاشقات معشوقات قبل الأوان.

وكان رضا بيه يجتهد في أن يجد مبررا لهذه الحياة المقززة وأخيرا انتهى سعيه إلى قطع علاقته بالسماء فالله غير موجود، والأنبياء مجرد فتوات قد قهروا الناس

بأتباعهم، وكل ما يروى عنهم من معجزات باطل، والإنسان يعيش ويموت كما تعيش وتموت البهائم، وحديث القيامة من أوله إلى آخره حديث خرافة، وعلى هذا فليس هناك معنى للتقيد بالحرام والحلال بل إن الحرام والحلال لا معنى لهما.

وأذكر أنني كنت عائدا إلى بيتي قبيل الصبح وكان هو سهران مع مريديه فاستوقفني وسألني إن سرقت جنيها وعملت بجنيه ومضيت أفكهما فهل أجد الجنيه الذي عملت به مئة قرش والجنيه المسروق تسعين قرشا؟ فقلت له لا، سوف تجد هذا مئة وهذا مئة ولكنك تشتري بالجنيه الذي عملت به طعاما فتطعمه أولادك فيعود ذلك عليهم بالخير في أجسامهم، وعقولهم، ونفوسهم، وهذا ما يسمى بالبركة، وتشتري بالآخر طعاما فتطعمه أولادك فيفعل عكس ذلك. وقصصت عليه قصة ذلك الرجل الصالح الذي ذهب إليه بعض أصحابه ليزوروه وبعد فترة دخل عليهم ابن له سكران يعربد فلما أكثروا التعجب من ذلك قال لهم لا تعجبوا إن الحاكم كان قد دعاني إلى حفل في قصره فمضيت إلى الحفل أنا وأمه فتعشينا هناك ثم جامعت أمه في تلك الليلة فهذا الغلام هو ثمرة تلك العشوة.

فتعالت ضحكاته وضحكات الذين حوله وأوسعوني سخرية، ومضت سنوات على هذه الحال والناس بين طامع في رضا بيه وخائف من مشاكله. إلى أن جاءه أشد أيامه سوادا يوم نشرت إحدى الجرائد السيارة تفاصيل احتراق إحدى بناته في سهرة حمراء داخل شقة مفروشة لم تلبث بعدها ابنته أن ماتت وسط ظروف أليمة تخيم عليها الكآبة. وكان مريدوه والطاعمون الطامعون

في بيته هم أول من نشر هذه الجريدة فأصبح هذا الفرعون ميتا في ثوب الأحياء. فلا تكاد تلقاه إلا كسير النفس والقلب، ذاهل العقل، خفيض الصوت، قليل الكلام، مطأطأ الرأس، حزين الملامح، غزير الدموع، كأنه مقيم بين الدنيا التي سرقت منه والآخرة التي لم يحن وقتها.

وكنت حين أراه يصلي الجمعة إلى جانبي في أيامه الأخيرة أعلم أنه قرر أن يستعيد السماء بعد أن أعلنت الأرض عن إفلاسها.

وبعد وفاته تشتت أسرته في الآفاق، إذ امتهنت بنتاه الكبريان مهنة الدعارة وأدمنت إحداهما الشم، وأودع ولد من أولاده السجن بسبب اتجاره في المخدرات، وساح آخر مع فرقة موسيقية من الدرجة العاشرة.

أما إحدى زوجتيه تلك التي لطالما رأيتها تنفق خمسين جنيها في اليوم الواحد حين كانت الحياة رخيصة فلقد رأيتها قبل موتها تمسح سلالم المنازل طلبا لقوت يومها، آه يا عم رضا ليتك كنت حيا الآن لتعرف الفرق بين الجنيهين.



حارتنا الحلوة

ليس الوطن هو الأحجار، والأشجار، والمباني، والطرق، والجبال، والسهول، وما يتخلل ذلك من بحار أو أنهار.

بل الوطن الحقيقي هو الذين تعرفهم ويعرفونك، وتحبهم ويحبونك، وتربطك بهم ذكريات، يمتلئ بها رأسك ويلهج بها لسانك ويدق لها من الحنين قلبك وتدمع لها عيناك، وآية ذلك أنك حين يطول عمرك ويموت من تعرفهم وتجد عليك أجيال جديدة تشعر بالغربة كأنك لست من هذه الأرض؟

فالأرض تكتسب مذاقها من نبض الذين يعيشون عليها، لهذا فإن حارتنا لم تكن بالنسبة لي مجرد شارع صغير بل عالما واسعا تملأه الحكايات، والناس لا يصدقونني حين أقول لهم إن للأرض مذاقا في الرجلين كما أن للطعام مذاقا في الفم.

تغيرت ملامح الحارة في أعين الناس ولكنها في وجداني لم ولن تتغير، فتحت طبقة الأسفلت الذي ندوسه بأقدامنا في حارتنا توجد قصص، ومعارك، ومودة، وحب، وعشق، وبغض، وعداوة، وآمال تحققت، وأخرى لم تتحقق، وضحك، وأحزان وستر، وفضائح فكأن فيها كل ما في الحياة.

إذا دخلت حارتنا من الشارع الرئيسي فعلى يمينك كشك عم محمود وبين عم محمود وكشكه مشابهة عجيبة فقد كان الرجل ضئيل الجسم جدا كأنه لحظة حب في حياة حاقد أو لحظة شك في قلب نبي، وكان كشكه أضيق من أخلاق المدخن الصائم فكان لا يتسع لاثنين إلا بشق الأنفس، ورغم إقامته الطويلة في القاهرة فإنه لم يتزحزح عن لهجته الصعيدية قط.

أما زوجته خالتي عزيزة فقد كانت على العكس منه تماما، كانت عبارة عن فدان مزروع نساء، عالية الصوت، موفورة الصحة، إن اشتركت في خناقة

فإن الناس يعلمون سلفا نتيجتها.

وكان العيد الحقيقي لشباب حارتنا يوم تقف ابنته ماجدة في كشك أبيها عوضا عنه إما لأنه مسافر في الصعيد، أو لأنه نائم في وقت القيلولة.

هنالك كان الشباب أجمعون يزدحمون أمام الكشك ليشتروا ما لا حاجة بهم إليه، فكانت هي توزع الابتسامات الغالية مع السلع الرخيصة، كما كان شباب الحارة يبذلون لها مع النقود التنهدات، والابتسامات، والنظرات، والكلمات المعسولة ووعودا يمليها الهيام المراهق وتصدقها الأنوثة الساذجة.

كانت جميلة، خفيفة الظل، متحركة عفريتة لا يشبع منها جليسها، وكان فيها فوق ذلك مزية عظمى هي أنها لم تكن مثقفة على الإطلاق، لأن الثقافة في النساء غالبا تطفئ الأنوثة كما يطفئ الماء النار.

وكان قلبي يطير فرحا كلما صافحتني، وكنت أظن في صغري أنها تصافحني إعجابا بي، فلما كبرت أدركت أنها كانت تصافحني زكاة عن يدها الحلوة.

وبالرغم من هذا لم تعرف لها مغامرة واحدة مع شاب واحد، كأن شباب حارتنا كانوا يقنعون منها بذلك الوهج الأنثوي الذي يلوح خلال ابتسامتها ونظرتها وكلماتها الحلوة القليلة.

وعلى بعد خطوات من كشك عم محمود كان يوجد البيت الذي يسكن فيه عم رضا الذي قصصت عليكم قصته من قبل، نعم كان يسكن فيه عم رضا بزوجتيه وأولاده الكثيرين، وكانت تسكن فيه عايدة وإخوتها الثلاثة –سيرد ذكرهم فيما بعد.

كان يسكن معهم أيضا رشاد، ذلك المسكين الذي احتل عم رضا غرفته كما قلت لكم، وكانت تسكن فيه مريسة مع زوجها عم إيليا، كانت هي في العشرين أو دون العشرين، وكان هو في الستين أو فوق الستين. ومع أنه كان

معدوم الصحة ذاهب السمع والبصر إلا قليلا، فإنه كان عالي الصوت فاحش الشتم يبطش بزوجته كل حين.
ورغم أن مريسة لم تكن جميلة على الإطلاق بل كانت نحيفة جدا، قصيرة القوام بشكل لافت، خشنة الصوت، لثغاء، تفوح منها دائما رائحة مزعجة، أقول لكم رغم هذا كله كانت مريسة مشتهى الفقراء من شباب الحارة.
أولائك الذين تتوقد في أجسامهم نيران الغريزة وهم عاجزون عن إطفائها بالزواج أو الانحراف، لأن الانحراف أيضا مكلف، وكانت هي تستجيب سريعا لهذا، إما لتنتقم من أسرتها التي رمت بها في أحضان ذلك العجوز المتهالك، أو لتنتقم من ذلك العجوز الذي يقف خارج الدنيا ولا يريد أن يموت، أو لتشعر بأنوثتها التي لا دليل عليها إلا غزل المدفوعين بالفقر والحاجة الذين تمتلئ نفوسهم بالنار وتخلو أيديهم من المال.
ولم يكن أحد يعير مريسة بعلاقتها بهذا أو ذاك بل كان الشباب يعير بعضهم بعضا بها، وذلك لأن مغازلة مريسة ثم عناقها كانا يحتاجان إلى نفس حلوة لا يملكها كل أحد، كما كان الارتباط بها دليلا على منتهى الفقر لأن مريسة كانت دائما هي الحل الأخير، والفقر يصلح أن يكون قوادا مثل الغنى تماما.
ويوم مات عم إيليا بعثت مريسة من جديد إذ تركت أطفالها في الملجأ واهتمت بنفسها وعاودتها أنوثتها الضائعة، ولاح عليها بريق لم يكن لها من قبل، ثم لم تلبث أن اختفت ولا يعرف أحد إلى اليوم مكانها.
في نفس البيت كانت تقيم أسرة أم شمس، وكانت أم شمس امرأة سمينة طيبة، ثرثارة، أما زوجها نصر الدين فحين تراه يخيل إليك أنه كان حمارا فمسخه الله رجلا فهو يحن إلى أصله دائما، كان ضخم الجثة، قبيح الصوت، جاف الطباع، حين يضحك تظنه قد أقام في وجهه مأتما يوجب عليك أداء

التعزية، ضاعت له ذات يوم نقود فحمل المصحف في يده واستحلف أهل الحارة رجلا رجلا، وامرأة امرأة، وشابا شابا، وصبيا صبيا، وطفلا طفلا، أنهم لم يعثروا على هذه النقود، فلم تغن عنه هذه المحاولات شيئا.

أما بيتنا فقد حدثتكم من قبل عن كل من فيه، عم توتو، وعم سعيد، وعم جورج آخر القديسين، وليس عندي جديد أضيفه إلى ما سلف من هذا الحديث إلا شيئان، أحدهما أسرة أبي سيد، وهي عبارة عن أسرة صعيدية يخيل إليك حين تراهم أنهم قد بعثوا من العصر الجاهلي، فابنهم الوحيد مدلل لا لمزية فيه بل لأنه ولد، فكم كان يسر أفراد هذه الأسرة حين يرون وحيدهم هذا يضرب أباه في معركة على شيء تافه، وكانت أم سيد حجرا كتب له أو عليه أن يكون آدميا، فلم تكن تعرف من أمور الدنيا إلا المكسب والخسارة، أما الدين فلم تكن قد سمعت عنه إلا كما يسمع عامة أهل مصر عن البوذية مثلا، ضاع لهم ذات يوم شيء وكانوا قد شكوا في رجل منهم، واقترحت أم سيد أن يجعلوا الرجل يحلف على البخاري، فقلت لها يا أم سيد يحلف على المصحف أحسن، فقالت على الفور، هو هو، البخاري هو المصحف. وأذكر ذات ليلة أن حر الصيف قد أورثني من الأرق ما لم أستطع معه البقاء في غرفتنا، فخرجت أستروح بين الحجرات، وكنا تقريبا في آخر الليل، فسمعت أبا سيد وأمه يتهامسان وقد استعدا لما يستعد له الأزواج حين ينام أولادهما، وأراد أبو سيدة أن يطلب من زوجته قبلة فقال لها بلهجته الصعيدية: لافيني شلوفتك لافي، وهو يقصد بشلوفتها شفتيها بالطبع، فاضطررت أن أخرج إلى الشارع لأضحك، فلما كان صبح اليوم التالي قالت لي أم سيد صباح الخير يا صلاح، فقلت لها ضاحكا: يا صباح الحلاليف إلي بيلافو الشلاليف، فعلمت

أني سمعت ما جرى بينها وبين زوجها في الليلة السابقة، فأخذت تشتمني وتطاردني وأنا أجري أمامها وأضحك.

وأما الشيء الآخر فهو أن بيتنا كان هو البيت الوحيد الذي كانت فيه حنفية فكانت نساء الحارة يجتمعن فيه لغسل المواعين، أو الملابس، أو السجاجيد، وبالطبع لم تكن النساء يغسلن ما يغسلن وهن صامتات بل كن ينقلن أخبار الحارة كلها، فهذه طُلقت لحظها العاثر، وهذه تجمع بين زوجها وعشيقها، وهذا لا ينفق على بيته ويقترض، وهذا يدخل أصحابه إلى بيته لأنهم هم الذين يشترون الحشيش، وهذه تقترض من الناس أموالا ولا تردها، فكان بيتنا عبارة عن وكالة أنباء شعبية.

أما البيت الذي يلي بيتنا فقد كان أشهر من يسكن فيه عصام شفرة أو عصام عكننة، وذلك لأنه كان جاف الطبيعة يتعلق بأتفه الأسباب لإحداث أضخم المشاجرات. ورغم أنه كان فارغا تماما من كل معاني الرومنسية فإنه لم يعدم فتاة تحبه أشد الحب وترسل إليه الخطابات الغرامية الملتهبة تلك هي الآنسة س. ر.

كان عصام ابنا لرجل رياضي على خلق يحبه الناس جميعا، إلا أن عصاما قد اتبع أصدقاء السوء فلم يدع منكرا إلا أتاه إلا شيءين: هما القمار والنساء فلم تعرف له علاقة جنسية بأية ساقطة في الحارة أو خارجها.

وكان فيه خير غريب وشر غريب فكم من مرة رأيته يفطر في فجر رمضان وهو يقول لا مؤاخذة يا ربنا! ولما كان نقاشا فاشلا فقد اتجه إلى الاتجار في المخدرات ثم أصبح يزرعها فوق سطح بيته، ثم ألقي القبض عليه وبعد سنوات طويلة مات في السجن.

إلا أن الله قد أدخله قبل موته نارا دون نار الآخرة، هي نار الفشل في الذرية، إذ لم يمت عصام حتى شهد أولاده قد افتقروا فجاعوا، وأدمنوا فضاعوا.
وأمام بيت عصام كان يوجد بيت ودكان عم حسين البقال، وكانت في عم حسين مزية لم أرها في غيره، فقد كان أميا لا يستعين بغيره وكان أهل حارتنا جميعا يشترون منه على سبيل الشُكُك، فكان يذكر بمنتهى الدقة كل ما أخذه منه الناس، فإن مضيت تسأله عما اشتريت منه لتسدد له ثمنه قال لك دونما تلعثم إنك اشتريت كذا، بثمن كذا، يوم كذا ودفعت كذا، وبقي عليك كذا يستوي في ذلك أن تكون اشتريت منه منذ أسبوع أو منذ عام.
ولم يكن عم حسين يخلو من نرجسية حلوة المذاق وسببها الوحيد عنده أنه كان يحفظ عن ظهر قلب السيرة الهلالية كاملة، وكانت أطيب أوقاتنا تلك التي نقضيها حول عم حسين وهو يقص علينا بالحكاية والغناء تفاصيل السيرة الهلالية.
كان أهل هذا الجزء من حارتنا يعدون أنفسهم أسرة واحدة يأكلون معا، ويجلسون معا، ويتشاجرون معا، ويستعير بعضهم من بعض الأواني والأثاث في أفراحهم ومآتمهم. وكانت البنات يتعاهدن على أن ينظفن معا كل يوم بيتا من بيوتهن، وكانت قلوبنا يستبد بها الفرح حين يجن علينا ليل الصيف فنفترش رمال الحارة شبابا وبنات نقص القصص، ونتناقل الأخبار، ونتراشق بالنكات، فيخرج لنا من هذا البيت طعام، ومن ذلك البيت شاي، ومن بيت آخر عصير أو ترمس أو ما يجري مجراه مما يعين على السهر إلى مطلع الفجر أو مطلع الشمس.
وكانت مداخل المنازل، وأسطحها، والشبابيك، والبلكونات المتقابلة أو المتجاورة هي الرحم التي تتخلق فيها قصص الحب الطاهرة أو الدنسة. ولأن كل قصة كانت تنتهي غالبا بفضيحة يعرفها الناس جميعا ثم لا تلبث أن تعود

كما كانت فسوف أكتفي بأن أحدثكم عن قصة واحدة كان طرفاها طاهرين طهارة الندى النازل من السماء عند الفجر.

كان جارنا وصديقنا ح.ع رقيق القلب، خفيض الصوت، شهما، كريما، يعرف للعشرة قيمتها، محبا لجيرانه، محبوبا منهم جميعا، عاشقا للشعر والموسيقى، خفيف الظل، مدخنا لا يتعاطى الحشيش إلا في أضيق نطاق. كان طالبا عاديا لا متفوقا ولا فاشلا، وكانت أطيب أوقاتي حين يمشي معي في الهزيع الأخير من الليل يحدثني عن آماله وآلامه.

وكانت الآنسة م.ش تشبه ملعقة العسل الأبيض متدينة، على خلق، لا ترفع صوتها أبدا وإن كانت لا تمسك عن الابتسامة، قد أتيح لها من الثقافة ما لا يفسد أنوثتها كما أتيح لها من الأنوثة ما لا يوردها موارد الابتذال.

كانت بلكونته ملاصقة لبلكونتها فكان من المستحيل ألا يلتقيا كل يوم مرتين على الأقل. وسرعان ما ترعرع بين قلبيهما حب نقي أخذا يتعهدانه بالرعاية إلى أن صار بالنسبة إليهما هو الدنيا كلها، كانت تستطيع أن ترى قلبه من خلف ملابسه فكان يستوي في عينيها أن يكون أنيق الملابس أو رثها، وكان يستطيع أن يرى رقتها من خلف جفاء أسرتها فكان يستوي في عينيه أن تبتسم هي في وجهه أو يكشر أبوها أو أخوها.

وكان يلقاني بعد أن يلقاها فيحدثني بما جرى بينهما وهو في غاية الشفافية فكنت أزداد حبا لهما ولحبهما.

وكانا ككل عاشقين يحلمان بأن يكون لهما بيت صغير يتسع لحبهما الكبير، ولكن الحب شيء والحياة شيء آخر، فالحب يسأل الناس عما في قلوبهم أما الحياة فتسألهم عما في أيديهم، فكان أن تعثر صاحبنا في دراسته بعض الشيء فلم يقبله أهلها لأنهم كانوا لا يفخرون بالحب بل يحبون الفخر، فكان لزاما على من يتقدم لابنتهم أن يكون طبيبا أو مهندسا أو محاسبا أو شيئا مما يتفاخر

به الناس في مجالسهم. وأسلم اليأس صاحبنا إلى الإخفاق في دراسته فتوجه إلى العراق يبتغي تجديد حياته، أما هي فقد تزوجت رجلا عاقلا لا عيب فيه إلا أنه ليس حبيبها الذي معه قلبها.

وحين عاد صاحبنا من العراق اعتنق التيار الديني الراديكالي، ثم لم يلبث أن تزوج زوجتين وله اليوم من الأولاد من لا أحصي عدتهم. وانقضى حبهما الحلو بعد أن ضربا لحارتنا أروع الأمثلة في الحب العفيف الطاهر، واليوم قد يلتقيان ومعه أبناؤه الذين صاروا شبابا، ومعها طفلها الذي رزقها الله إياه بعد طول انتظار، نعم قد يلتقيان فينظر كلاهما إلى الآخر نظرة تحمل بقية من مودة.

وكانت الخناقات في حارتنا لا تقل حرارة عن العشق، فقد كانوا يتشاجرون لأتفه الأسباب، ماء يرش فيصيب الغسيل المنشور، أو طفل يدفع طفلا فيوقعه على الأرض، هنالك تنفجر الحارة في دقائق معدودات فتقذف الأفواه بأقذع الشتائم وتنفتح عن أبشع الفضائح، وتشهر السنج والشوم، وتصعد الحجارة من أسفل، ويسكب الطبيخ من أعلى، وتمتلئ أسماع الناس بالفضائح، ويسيل الدم من الأبدان، وتفتح أبواب، وتغلق أخرى، فلو أنك ألقيت إليهم السمع أو صرفت النظر تلقاءهم لحسبتهم سوف يظلون أعداء إلى آخر الدهر.

ولكنك تعجب أشد العجب حين تجدهم يعودون إلى سالف عهدهم بالمودة على أثر فكاهة يلقيها أحدهم أو مصيبة تصيب واحدا منهم.

كانت هذه هي حال حارتنا منذ ربع قرن أما اليوم فإن أهلها لم يعودوا يتشاجرون ولكنهم أيضا لم يعودوا يتحابون كأن نبض الحياة لا يتجزأ.

***

دعوني أعترف لكم بصفة في زي الزفت، هذه الصفة هي أن فضولي المعرفي قد يجعلني عاجزا عن أن أفرق بين ما أقدر عليه وما أعجز عنه.

فحين كنا في الإعدادية أردت تحضير الهايدروجين الذي هو أخف من الهواء لكي أطير به بلونة، عن طريق مزج الخرسين الذي هو الإطار الخارجي لحجارة الراديو وحامض الكبريتيك الذي نسميه مية نار. ونظرا لاختلال المقادير انفجرت الزجاجة، ولكن ستر ربنا أنها كانت بعيدة عن وجهي.

وكم من مرة حاولت فيها إصلاح الراديو، فتكهربت، ولن أنسى أبدا تلك الليلة البشعة التي قمت فيها بالتسطيح على ظهر أحد القطارات من الإسكندرية إلى القاهرة، بعد أن نفد ما معي من النقود. وكان التسطيح أهون علي من التسول، وأهون علي من إهانة الكمسري. وكان علي أن أقضي ليلة شتائية باردة على سطح القطار بين اللصوص والباعة والجنود الهاربين من الخدمة العسكرية والأطفال الهاربين من آبائهم.

بدأت التجربة منزعجا، ثم أنهيتها مستمتعا، لأن الحياة على سطح القطار تشبه الحياة على الأرض، بما فيها من قوة وضعف وابتزاز وانكسار. وكان القاعدون على سطح القطار عبارة عن طلائع، فإذا أوشكنا أن ندخل تحت كوبري فإن الطليعة الأولى تنذر من خلفها، فننام جميعا على بطوننا.

فإذا أوشك القطار أن يقف في محطة فإننا جميعا ننزل من الشبابيك لنقف بين الكراسي خوفا من المخبرين، فإذا تحرك صعدنا مرة أخرى إلى سطح القطار خوفا من الكمسري.

وبمثل هذا التهور حدثتني نفسي الآثمة بأداء فريضة الحج وأنا في الثانية عشرة، ولم يستطع خيالي الصغير وقت ذاك أن يستوعب ما في المطارات

والسفر بالطيران من إجراءات دقيقة معقدة، وكان طبيعيا في هذه السن الصغيرة أن أقيس سفري بالطائرة على سفري بالقطار أو بالأتوبيس، فكل ما تخيلته أن هناك بابا سوف أمر منه إلى الطائرة، وسوف يكون سهلا علي أن أدخلها مع الزحام الداخل، وحين تقلع بي سوف يعفيني كمسري الطائرة من الأجرة، كما يعفيني كمسري الأتوبيس.

وارتديت أشد ملابسي أناقة، وهي عبارة عن ملابس قديمة لا قيمة لها، وتوجهت بالفعل إلى المطار. وفي المطار لم أدع مأكولا، ولا مشروبا، إلا اشتريته وأكلته وشربته، لأن ورائي سفرا طويلا، وهم لن يعطوني طعاما في الطائرة، وكان هناك باب صغير يحرسونه بعناية، فظننت أنه هو الباب الذي يؤدي إلى الطائرة.

فانتهزت فرصة ذهاب حارسه إلى حيث لا أعلم، ودخلت من الباب، وجعلت أمد الخطو لأدرك الطائرة، ولا أدري ما الذي حدث بعدها، إلا أنني بعد عدة ساعات أفقت، فإذا أنا في حفرة عميقة، وإذا الذي أكلته وشربته جميعا فوق ملابسي.

وأخيرا استطعت بشق الأنفس أن أعود إلى بيتي مريضا، ولم أدخل المطار بعدها إلا بربع قرن مسافرا إلى أمريكا.

بهذه الروح المغامرة المجنونة أقبلت على زيارة الهرم حين كنت صغيرا، وتحسسته فأفزعتني حجارته الخشنة الضخمة، وبعد شئ من التفكير قررت طلوع الهرم، ولم أكن أدري أن له موضعا محددا للطلوع، فما زلت أصعد وأصعد إلى أن انتهى بي الصعود إلى حجر عريض لم أستطع أن أصعد بعده حجرا واحدا، لأن ما فوقه كان شديد الملاسة لا تمسك به يد ولا تصعده رجل.

قعدت على الحجر بضع دقائق، ثم حاولت النزول فلم أستطع لشدة ما تملكني من الرعب، خصوصا بعد أن انقطعت عني أصوات الناس، وعبثا ناديت، وعبثا أشرت، وبعد أكثر من ساعة من الانتظار والرعب، اهتديت إلى حيلة هي بالنسبة لي الأمل الأخير، استخرجت من جيبي مجموعة من العملات النقدية المعدنية، ووضعتها في منديل، وأغلقت عليها المنديل بإحكام، ثم ألقيت بها إلى أسفل بكل قوة.

وبقيت أثناء ذلك أشير بيدي، فانتبه الناس أسفل الهرم إلي، وأخيرا صعد شرطيان إلى موضعي، فأمسك بي أحدهما من جهة اليمين، والآخر من جهة الشمال، وأخذا ينزلان بي رويدا رويدا. وقبل أن نبلغ الأرض سمعت زحاما أسفل الهرم، والناس يصيحون الأعمى طلع الهرم، الأعمى طلع الهرم!!!

وكان أعجب ما سمعته زغاريد النساء من أسفل، فلم أعلم أكانت النساء يزغردن احتفالا بنجاتي أم احتفالا بطلوعي.

***

المسيحي أدخلني الأزهر

منذ حوالي ثلاثة عقود كانت تجاورنا أسرة مسيحية فقيرة طيبة تتكون من بنت وثلاثة إخوة، وكانوا يحبوننا كما يحبون أقاربهم وكنا نحبهم كما نحب أقاربنا، ويبدو أن الفقر دين غير معلن لهذا فإن الفقراء يتحابون فيما بينهم على اختلاف أديانهم.

كانت عايدة، وهي البنت المسؤولة عن إخوتها، تصحو كل صباح فتغسل وجهها وتتوجه إلى بيتنا لتفطر معنا وتقضي اليوم كله، ولا تكاد تنصرف عنا إلا لإعداد طعام إخوتها أو تنظيف بيتها، فإذا كان الليل وعاد إخوتها من أعمالهم أتوا إلى بيتنا للسمر.

لهذا لم أتردد في الوقوف إلى جانبهم يوم تشاجر معهم جار لنا مسلم ولم يكن محقا، فوقفت على باب حجرتهم التي تحصنوا فيها محتملا أن أضرب على رأسي بالشومة أكثر من مرة.

ولم أكن في تلك الأيام ملتحقا بمدرسة بعد أن فصلت من مدرسة المكفوفين بسبب فشلي في تعلم طريقة برايل فكنت في تلك الأيام متفرغا لحفظ القرآن الكريم. وكان كمال أخو عايدة الذي كان من سني قد اعتاد أن يصطحبني في أيام إجازته إلى مصر الجديدة لنتنزه معا.

وفي يوم من أيام نزهتنا وبينما نحن نمشي في ميدان الجامع بمصر الجديدة سمعنا أذان المغرب فأقسم كمال بالمسيح الحي لا بد أن ندخل ونصلي المغرب معا. فضحكت بأعلى صوتي وقلت له أنت مسيحي وأنا لا أصلي فلم؟ فلم يتزحزح كمال عن موقفه وأصر على أن نصلي المغرب معا.

وتحت إلحاحه الذي لم أعرف له سببا دخلنا معا وصلينا المغرب، ولن تتخيلوا فرحة المسلمين بكمال حين رأوه في المسجد، فقد كانوا كلهم يعرفونه إذ كان

كمال يعمل في هذه المنطقة في أحد دكاكين الصاغة، وجعلوا يقولون في نفس واحد بصوت فرح القسيس كمال القسيس كمال ورغم أنهم يعلمون أتم العلم أن كمال لم يفكر في اعتناق الإسلام فإن فرحتهم به كانت لافتة للأنظار وعدوا هذا حدثا طريفا بقطع النظر عن نتيجته وبعد الصلاة توجهت إلى الإمام وسألته بعض الأسئلة التي أعجبته.

وحين سألني أين تتعلم قلت له لا أتعلم فقال ألا تحب أن تتعلم في الأزهر؟ فقلت له بلى فقال فقط أعطني صورة واترك الباقي علي؟

وقال آخر هل لديك تسجيل يعينك على حفظ القرآن؟ فقلت لا فقال تعال إلي في الأسبوع القادم وسوف أقدم إليك تسجيلا يعينك على حفظ القرآن.

وبالفعل تقدمت لامتحان الابتدائية الأزهرية وذاكرت جميع المواد في حوالي شهر ونجحت، فأكملت تعليمي في الأزهر إلى الثانوية، ومنذ ذلك اليوم وأنا أتذكر كمال كلما أحرزت نجاحا في حياتي وتحسرت على تلك الروح التي كانت بيننا قبل أن تعبث بها أيدي التخريب.



أبي الثاني

في حوالي السابعة عشرة من عمري سمعت من إبراهيم بن عم جورج الذي حدثتكم بحديثه من قبل أن في حارتنا أديبا مشهورا هو الأستاذ أحمد حسين بن عم حسين جارنا. وسمعت منه أيضا أن هذا الرجل يكتب في الجرائد والمجلات وأن لديه مكتبة ضخمة تزيد على عشرة آلاف كتاب، وأنه يظهر في التلفزيون أحيانا، وأنه شيوعي، ملحد، لا يحب أحدا، بل يأنف من الناس جميعا، فاستولى علي الشغف برؤية هذا الرجل، خصوصا أن بيته لا يفصله عن بيتي إلا بضعة أمتار.

ولم أضيع الوقت، فذهبت إلى بيته وطرقت عليه الباب، وحين فتح لي سألني من أنت؟ فقلت له: أنا صلاح الدين، فسأل مرة أخرى من صلاح الدين؟ فرأيتها فرصة سانحة لأن أقرع الرجل على ذنب لم يعمله، وكأن المعرفة بي معلوم من الدين بالضرورة!

فقلت له: لك الحق في أن تسأل سؤالا كهذا لأنك لا تخالط أحدا ولا تسأل عن أحد.

وسرعان ما أدرك الرجل بما فيه من حكمة المجربين وعمق المثقفين الحقيقيين ما عسى أن يجره علي العمى من فجاجة في التصورات، وما عسى أن يدره علي صغر السن من حماقة في التصرفات. فما كان منه إلا أن وضع يده برقة بالغة على كتفي، وأمرني بالدخول معه فدخلت. وبعد أن قدم لي كوبا من الشاي، أخذ يؤنسني بالحديث، ويسألني عن دراستي، وأهم الكتب التي قرأتها، إلى آخره. وكان يعجبه مني ما أتمتع به من فصاحة في اللسان، وثقة بالنفس.

أخذت أتردد على بيت الأستاذ أحمد الطماوي مرات عديدة كل أسبوع، وكان يخيل إلي في ذلك الوقت أن بيت الأستاذ الطماوي هو جنة الله على الأرض، وكان بيته بالفعل جنة الله على الأرض، كما كان هو ملاكها الحارس.

وتبين لي منذ الجلسات الأولى أن الرجل من أعدى أعداء الشيوعية، وأنه صحيح الإيمان، لا يترك فرصة للدفاع عن الإسلام إلا استغلها على أكمل وجه، ذلك لأنه كان عقاديا صريحا، ينتهج منهج العقاد في الدفاع عن كل ما هو مقدس، وعن كل ما هو شرقي، وكان بيت الطماوي ملاذا للعقاديين.

ففي بيت الأستاذ الطماوي تعرفت إلى بعض الأدباء، مثل الشاعر شوقي هيكل، وكانت أشعاره تعجبني في مبدأ أمري، لأنها كانت أشعارا عمودية تتصف بنزعة فلسفية، غير أنني سرعان ما تبرأت من هذا الاتجاه، وانتهجت في الشعر نهجا خاصا بي.

وكان الأستاذ شوقي هيكل يتحدث بلا تدقيق، طلبا لسحر الحديث، فكان يلقي الأقوال على عواهنها، ومن الخرافات التي سمعتها منه أن جان جاك روسو شخصية خرافية لا وجود لها، بل هو ابن رشد، قد سرقت أفكاره، وأن الصينيين قد قاموا بتصوير الأنبياء، وأنهم يحتفظون بهذه الصور إلى الآن!

ورغم أن الشاعر شوقي هيكل كان هو الصديق الصدوق للأستاذ الطماوي فإن صدعا قد حدث بينهما، لا أظن الأيام قد أصلحته كل الإصلاح حتى مات شوقي.

وكان منهم الأستاذ الحساني عبد الله، ذلك الأديب العقادي الذي جمع كثيرا من مقالات العقاد، وأصدرها في كتب عديدة، وكان فوق هذا شاعرا ذا حس مرهف، ولعل أهم ما قام به هو رده على أبي سيف يوسف الشيوعي فيما كتبه

ضد العقاد. إلا أن حياته لم تنته نهاية سعيدة، إذ ضبط متلبسا بالاتجار في المخدرات، وقضى ما بقي من أيامه في السجن.

وكان منهم سيد كيلاني، وكان رجلا غريب الأطوار، حاد الطباع، إلا أنه كان طيب القلب، كان أديبا، شاعرا، مؤرخا، محققا للتراث، متصوفا، ملحدا في نفس الوقت، (ويخلق ما لا تعلمون).

كان الأستاذ سيد كيلاني قد عانى كثيرا من الفقر، فعلمته معاناته وفقره أهمية جمع المال، وعلمه المال أهمية البخل، فضلا عما في فطرته من ميل تلقائي إلى البخل، فكان قذر الملابس، قد اتخذ أبونيه لجميع المواصلات، أما فكرة ركوب التاكسي فلم تكن تخطر له ببال.

ولم يكن في بيته بوتجاز، ولا تلفزيون، ولا ثلاجة، ولا سخان، ولا راديو، ولا تليفون، ولا منبه، ولا مكتب يكتب عليه، بل لم تكن في بيته مكتبة، رغم أنه قد ألف وحقق أكثر من خمسين كتابا، أذكر لكم منها على سبيل المثال ترام القاهرة، وهو بحث شيق جدا عن التحولات الحضارية التي صاحبت دخول الترام إلى القاهرة، وأثر التشيع في الأدب، وفي ربوع الأزبكية، وهو كتاب مهم أيضا عن تاريخ الفن المسرحي في مصر المعاصرة، إلى غيرها من الكتب المفيدة في الأدب والتاريخ. نعم لم تكن له مكتبة، فقد كان كل اعتماده على ما يستعيره من مكتبة الأستاذ الطماوي، أو ما يقرأه في دار الكتب، أو عند هذا الصديق أو ذاك، وكان مهملا فيما يستعيره من الكتب.

ولن أنسى أنه استعار مني كتاب ظهر الإسلام لأحمد أمين، ثم رده إلي ممزقا مربوطا بحبل!!!.

ولم يكن يأكل في بيته، بل في بيوت إخوته، أو أقاربه، أو أصدقائه الأدباء، وكان يزور الأستاذ الطماوي يوم الخميس من كل أسبوع، فيبقى في بيته آكلا

ما لذ من الطعام والفاكهة، شاربا ما طاب من المشاريب الساخنة والباردة، مدخنا من سجائر الطماوي، من الرابعة عصرا إلى الثانية عشرة مساء في ليالي الصيف، أو إلى العاشرة في ليالي الشتاء، وكان طيلة السهرة لا يرفع يده عن علبة سجائر الطماوي كأن بينه وبين علبة الرجل زواجا كاثوليكيا لا يأتيه الطلاق من بين يديه ولا من خلفه.

ورغم أنه كان قادرا على الحديث في كل شئ فإنه كان يعشق الحديث عن موضوعين لا ثالث لهما، هما الأكل، والجنس، وكانت له قصص مسلية لا يكاد يملها سامعها، ومن قصصه الحلوة التي أذكرها أن رجلا أخرس انتبه إلى أن زوجته تسرق نقوده من حين إلى حين، فعمد إلى الملقاط فتصيد به عقربا، ثم وضعها في المحفظة، فلما همت زوجته بأن تسرق النقود كعادتها لدغتها العقرب.

ورغم أنه كان ينظم الشعر أحيانا فإنه لم يكن يتمتع بحس أدبي مرهف، فحين أتم الأستاذ الطماوي جمعه لشعر خليل مطران المجهول طلب منا أن نجد له اسما مناسبا، فاقترح الأستاذ سيد كيلاني اسمين كلاهما أسخف من الآخر، أحدهما صيحة عزرائيل في شعر الخليل، والآخر أكل الفول في شعر مطران المجهول، ومن عجب أن صاحب دار الفرجاني لم يجد إلا سيد كيلاني ليسند إليه كتابة مقدمات لكتب جبران خليل جبران الرومانسية، فبدلا من أن يرققه جبران وكتبه الرومانسية مسخ هو جبران بما كتبه عنه، ولا حول ولا قوة إلا بالله!!!.

كان الحصول على شعرة من لحية إبليس أسهل من الحصول على سيجارة من سيد كيلاني، لهذا كنا نتهلل فرحا حين تحدث هذه المعجزة، ومما أذكره أنه وعدنا ذات ليلة أن يعطينا سيجارتين في الأسبوع القادم، فلما كان الأسبوع

القادم وذهب الأستاذ سيد كيلاني لغسل يده بعد أن فرغ من طعامه، قال لي الأستاذ الطماوي: الآن يرجع الأستاذ سيد ويعطيك سيجارة تخرج من جسمك كل داء بما فيها السرطان إن كنت مصابا به لندرتها.

ولم يفكر الأستاذ سيد كيلاني في أن يتخذ له زوجة، بل كان همه الأكبر هو جمع المال عن طريق الدروس التي يعطيها للطلاب أو الكتب التي يؤلفها أو يحققها أو يساهم في نشرها بشكل أو آخر، واستطاع أن يجمع قبل نهاية حياته ما يزيد على ربع مليون جنيه، إلا أنه قبيل نهاية حياته اختل عقله بعد أن سلم المال الذي جمعه لإخوته، فوكلوا أمره إلى سيدة تخدمه وتطعمه وتعينه على الاستحمام، ثم لم يلبثوا أن قطعوا عنها راتبها فانقطعت هي عن خدمته، وبقي في حجرته وحيدا إلى أن أتاه الموت، ولم يعلم جيرانه بموته إلا بعد أيام عديدة، حين فاحت رائحته.

كانت مكتبة الطماوي عظيمة بما فيها من آلاف الكتب في فروع المعرفة المختلفة، وكان هو أعظم منها بما أوتي من عقل عميق وقلب رقيق، وذلك أن العلوم القليلة التي كنت قد حصلتها في الأزهر كانت قد أصابتني بنرجسية أشعر بالخزي كلما تذكرتها الآن، فكنت أعامله بندية أقل ما يقال عنها أنها منافية للاحترام، فكان الرجل يصفح عن ذلك صفح القادرين.

وكنت يومئذ حديث عهد بالشعر، ليس لي علم تام بأوزانه واتجاهاته، فكنت كلما أسمعته قصيدة تنتابها الكسور في أوزانها أو الركاكة في معانيها، يتقبل ذلك برفق، وينبه إلى مواضع الخلل بطريقة لا تؤذيني.

وكنت ربما زرته وعنده كثيرون من أهل الأدب، فلا يلهيه ذلك عن أن يهتم بي، ويدخلني في مناقشاتهم، لكي لا أشعر بالوحشة. وكانت مناقشاتهم

المتنوعة تسحرني وتحسرني على نفسي، لأنني لم أكن أعلم عهد ذاك أن هذه الثقافة الواسعة، والمعارف المتنوعة، لا تتأتى إلا مع السنين الطويلة.

ففي بيت الطماوي عرفت الشعراء القدامى، كبشار، وأبي نواس، وأبي العتاهية، وأبي تمام، والبحتري، والمتنبي، وأبي العلاء. كما عرفت الناثرين القدامى كالجاحظ، وابن قتيبة، وابن وهب، وابن العميد، والصاحب بن عباد، وأبي حيان التوحيدي. كما عرفت في بيته قدماء المنظرين للبلاغة العربية كابن المعتز، وأبي هلال العسكري، والجرجاني، والسكاكي، والقزويني وابن طباطبا العلوي، وابن رشيق القيرواني.

وفي بيته أتيح لي أن أعرف أهم أعلام المؤرخين في الحضارة الإسلامية، كاليعقوبي، والطبري، والمسعودي، وابن الأثير، وابن كثير، والأزرقي، وابن عساكر، وابن إياس، والجبرتي.

كما عرفت أهم أعلام اللغة كالخليل بن أحمد، وسيبويه، والكسائي، والزجاج، والفراء، وابن خروف، والأصمعي، وأبي سعيد السيرفي.

وأهم واضعي المعجمات العربية كابن منظور، والجوهري، والفيومي، والفيروز أبادي وابن فارس.

على أن أحاديث الطماوي وأصحابه لم تكن مقصورة على التراث الإسلامي وأعلامه، بل كانوا يناقشون كثيرا مما يخص العصر الحديث بتياراته المختلفة.

ففي بيته عرفت أهم أعلام الصحافة العربية منذ نشأتها كالشيخ علي يوسف، وسليم سركيس، والشيخ إبراهيم اليازجي، وأنطون الجميل، وألكسندرا أفرينو، وحافظ عوض، ومحمد مسعود، ويعقوب صروف، والتبعي.

كما عرفت أهم أدباء العصر كطه حسين، والعقاد، وأحمد أمين، وزكي مبارك، والرافعي الأديب، والرافعي المؤرخ، والشيخ أمين الخولي، والشيخ عبد

العزيز البشري، والزيات، وهيكل، ومحمد لطفي جمعة، وسليمان البستاني، فضلا عن المازني وعبد الرحمان شكري.

وكثيرة هي القصص التي سمعتها في بيته عن شوقي وحافظ وعبد الحميد الديب وإمام العبد وأحمد نسيم وأحمد الكاشف وأحمد محرم ومي زيادة وجبران وشبلي شميل وشبلي ملاط وغيرهم.

غير أنه كان يطيب له أن يستكثر من الحديث عن ثلاثة رجال، قد أثروا في حياته وتشكيله أثرا بالغا، هم العقاد، والدكتور صبري السربوني، وعلي أدهم.

كان قد أتيح له أن يحضر صالون العقاد آخر سنتين من عمر الرجل، فكان يحدثني عن بعض ما كان يجري في الصالون، وكيف أن امرأة قالت للعقاد كيف تحط من شأن المرأة وقد صعدت إلى القمر؟ فأجابها العقاد على البديهة: وما العجب في ذلك وقد أرسلوا من قبلها كلبة!! وكيف أن رجلا قال له ذات يوم: يا أستاذ إنني أحفظ لك ثلاثين فقرة، فقال له العقاد: إنما تحفظها لك أنت لا لي أنا، وما كان من أن رجلا سأله سؤالا سخيفا وكان الرجل يضع نظارة على عينيه، فقال له العقاد: انزع هذه النظارة عن عينيك وضعها على عقلك.

وكان العقاد من أشد المصريين حفظا للنكت، فكان كلما دخل عليه أحد أصدقائه القدامى يسأله العقاد: (إيه آخر نكتة يا مولانا؟) فإذا فرغ صاحبه من النكتة قال له العقاد: قديمة، ثم يأتيه العقاد بنكتة جديدة، ولم أكن أدري من أين كان العقاد يأتي بهذه النكت الجديدة وهو في بيته لا يبرحه!!!، وكان الأستاذ الطماوي يأنف أشد الأنفة من تقديم طه حسين على العقاد، ويحتج

بأن طه حسين كثير الألفاظ قليل الأفكار، أما العقاد فكل عبارة من عباراته تحمل فكرة مستقلة.

أما الدكتور السربوني فقد طال مكث الطماوي معه، فكان دائم الحديث عنه بغاية الإعجاب، قال لي عنه: إنه كان بدويا خشن الطباع، إلا أنه كان صافي القلب والنفس، فحين كان مديرا لدار الكتب وأرسل إليه سيد كيلاني خطابا يطلب فيه عملا، رد عليه السربوني قائلا تعال واعمل الآن، وكان السربوني يفضل الشعر النابض بالصور الحية على الشعر المفعم بالحكم والأمثال والأفكار الفلسفية، لهذا كان يفضل امرؤ القيس، وذا الرمة، والبحتري، على زهير، وأبي تمام، والمتنبي، وأبي العلاء، وكان رفيع الذوق إلى حد لا يكاد يصدق، فقد قال لي الطماوي إن السربوني طلب مني لبنا صابحا، فلما مضيت إلى صهري في الأرياف طلبت منه لبنا، على شرط أن يتم حلبه أمامي، فكان لي ما أردت، وحلبه صهري أمامي، فلما عدنا من الأرياف مضيت باللبن إلى السربوني، فلما كان بعد أيام ذهبت إليه أزوره، فكان مما قاله لي إن اللبن الذي أتيت به مغشوش، وفيه ماء، فاستفزني الفضول فرجعت إلى صهري فسألته عن ذلك، فعجب صهري من هذا الحديث غاية العجب، وقال ما أعجب صاحبك هذا!!! إننا فعلا كنا قد سقينا الجاموسة قبل أن نحلبها مباشرة، فنزل في اللبن الذي حلبناه أمامك بعض الماء، وكنت أظن صاحبك لن ينتبه إلى مثل هذا، فإذا هو أرفع الناس ذوقا.

وكان الرجل مولعا بالجمال يطلبه أين وجده، وكانت لديه مجموعة ضخمة من أندر اللوحات العالمية، وقد دفعه حبه للجمال إلى أن يعقد مقارنات دقيقة بين بعض اللوحات التي في المتاحف العالمية وبين بعض الصور الشعرية التي

وردت في الشعر العربي القديم، وعلى هذا الأساس أخرج سلسلة كتبه المعروفة بالشوامخ.

ولم يكن حبه لعلي أدهم وتعلقه به أقل من حبه للرجلين السابقين، فقد كانت له معه مجالس طويلة، ولطالما حدثني عن عشق أدهم لهيجل، وكان يروي عنه أنه لم يكن يحب الجدل بل كان يقول رأيه ويسكت، كما كان كثير الحديث عن تواضعه الجم، وكان يتحسر على أن ابنته لم ترث عنه عشقه للمعرفة.

نعم كان أستاذي الطماوي يحدثني عن كل هذه الأشياء، وكل هؤلاء الرجال، ناهيك عن أعلام الأدب الإنجليزي كووردز وورث، وكيتس،

وبايرن، وتنسون، وكلرتج، وشلي، وأليوت.

ولم يكن حديثه يقتصر على ذكر المشاهير من الصحافيين والأدباء والفنانين، بل كان يتعداهم إلى ذكر المغمورين من الذين لا يعرفهم كثير من الناس كحنين جرجس صاحب كتاب الأطيان والضرائب، ويوسف آصاف صاحب كتاب دليل مصر، ونجيب هواويني الخطاط المعروف في عصره ونسيب المشعلاني صاحب كتاب سيم العشق والعشاق وخليل اليازجي صاحب أول مسرحية شعرية قبل شوقي.

ولم تكن عنايته بقدماء الفنانين أقل من عنايته بالأدباء والمفكرين والصحافيين فكم حدثني عن ألمظ، وعبده الحمولي، والست ساكنة، والشيخ سلامة حجازي، والشيخ عبد اللطيف البنا، والشيخ أمين حسنين وفرقة أولاد عكاشة وغيرهم.

وكنت أتعشق حديثه عن القاهرة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، كان يحدثني عن مسارحها، ومطاعمها، ومواخيرها، وقصورها، وملوكها، وملكاتها، وأمرائها، وأميراتها، ومطربيها ومطرباتها، ومواصلاتها،

ولصوصها، ومتسوليها، وساستها، وشرطتها، وجيشها، والطوائف الأجنبية التي كانت تعيش فيها، وعادات أهلها وتقاليدهم في المناسبات الدينية المختلفة، كأنه كان يعيش بينهم.

وكانت له طريقة ساحرة في قص أحداث التاريخ أو توصيف بعض ما هو معاصر، ذلك بأنه كان بارعا في ضرب الأمثلة، وربط بعض الأمور ببعض، وخلط الجد بالهزل، إلا أنه لم يكن يذهل عن النقطة الأساسية التي يقوم بتبيانها.

على أن حديثه عن مصر في عصر النهضة لم يكن هو الحديث الشيق الوحيد بل كان لا يقل عنه تشويقا حديثه عن الحب والجمال، وكان ربما أفرط في هذا الحديث حتى ليخيل إليك أنه يخلق له كل يوم قلب جديد، يحمل حبا جديدا، وعقل جديد، يفهم الحب فهما جديدا، ولسان جديد، يتكلم عن الحب بألفاظ جديدة.

ومن أقواله التي لا أنساها: إن المرأة إن أحبت لا يردها شيء عمن أحبته، وإن نسيت لا يردها شيء إلى من نسيته.

وكان من أهم الدروس التي تعلمتها منه تجنب التخمين عند الكتابة، فمهما أحسست أن الموضوع غامض، وأنك الوحيد الذي تعرفه، يوجد واحد على الأقل يعرفه كما تعرفه، أو أحسن، فلا تستهن بأية معلومة توردها حتى تتأكد من صحتها، لئلا تورد نفسك مورد الفضيحة.

والدرس الثاني المهم الذي تعلمته منه ألا أكتب في الموضوعات التي استهلكتها الأقلام، سواء أكان ذلك على مستوى موضوعات البحث أم على مستوى معالجتها، وذلك لأن الباحث الحق يجب أن تكون له شخصيته البحثية المستقلة. وكان هو شخصيا يطبق هذا على الوجه الأكمل، فالطماوي

هو أول من أثبت أن العقاد كان متأثرا في نظريته عن إمكانية معرفة حياة الشاعر من شعره تلك النظرية التي أودعها كتابه ابن الرومي حياته من شعره، كان العقاد متأثرا في هذه النظرية برزق الله عبود في بحثه عن ابن امية.

والطماوي هو أول من جمع أشعار خليل مطران المجهولة المتناثرة في الصحف والمجلات القديمة، تلك التي لا يعرف عنها أكثر الناس شيئا، ولم يقنع بمجرد جمعها، بل علق عليها بما يوضح غامضها، معرفا بالشخصيات المجهولة، والأحداث التي طواها النسيان.

وهو أول من كشف النقاب عن محمد لطفي جمعة ونتاجه الضخم في كتاب مستقل، بعد الكتابين الميتين اللذين كتبهما ابن لطفي جمعة عن أبيه، فإذا الرجل علامة من علامات عصر النهضة ونحن عنه غافلون.

وهو أول من أثبت بالأدلة القاطعة أن شوقي لم يكن منشئ المسرح الشعري في الأدب العربي، وذلك بحديثه المفصل عن خليل اليازجي، ومسرحيته المروءة والوفاء، تلك التي مثلت بالفعل سنة ١٨٧٦ ميلادية.

وهو أول من سلط الضوء على الذين كتبوا تاريخ الأدب العربي قبل جورجي زيدان، ناهيك عن أبحاثه في تاريخ الصحافة المصرية، تلك الأبحاث التي شهد بدقتها المتخصصون أنفسهم.

وكان الدرس الثالث الذي تعلمته منه أن دقة العمل البحثي لا علاقة لها بالأجر الذي تتقاضاه عنه لأن عملك البحثي هو في النهاية سمعتك أنت، وكم من مرة رأيته يتقاضى أجرا زهيدا عن عمل يستغرق منه بضعة شهور.

ولكن طماوي اليوم ليس هو طماوي الأمس لقد زلزلت نفسه زلزالا شديدا منذ أن مات صديقاه شوقي هيكل وسيد كيلاني في أقل من أسبوع، وزاد هذا

الزلزال عنفا بعد أن أجريت له عملية جراحية في القلب، ومنعه الأطباء من التدخين وشرب القهوة اللذين كانا أحب شيء إليه في الحياة، فكان من نتاج ذلك أن تضخمت في نفسه وسيطرت عليه تلك النزعة المتشائمة التي كانت تظهر وتختفي، وحين علمت بموته وأنا في الغربة تضاعف ثقل الغربة على قلبي أضعافا كثيرة. وأحسست أن جزءا من قلبي قد نُزع مني.

ولعل أوجز ما يمكن أن أقوله عن هذا الرجل، أنني قد صحبت هذا الرجل خمسة وعشرين عاما، فكانت في عمقها وثرائها خمسة وعشرين قرنا، وفي حلاوتها خمسا وعشرين ليلة.



مش ببلاش

يحسدني كثير من أصدقائي وصديقاتي على ما أتمتع به من قوة في النفس، وصلابة في الإرادة، وأنني غير قابل للكسر، وأن بين أضلعي قلبا لا تقوده العواطف، وفي نفسي إرادة لا تكسرها العواصف، على حد زعمهم.

وسواء علي أكان هذا الذي يصفونه حقا أفضت إليه المشاهدة الدقيقة والملاحظة اليومية أم مبالغة يخلقها الحب في قلوب المحبين، فإن لهذا الذي يصفونه أصلا صحيحا. أجل لقد اضطررت أن أعيش مع الحياة حالة من التحدي الذي لم أختره بل لم أحتمله أحيانا.

حالة كُتب علي أن أعيشها منذ خطوت الخطوات الأولى مستندا إلى جدران بيتنا، منذ بدأت أتحسس الأشياء فيصيبني بعضها بانطباعات لطيفة، وبعضها بانطباعات سخيفة، وبعضها بانطباعات مخيفة.

منذ قررت أن أخرج إلى الشارع الضيق فإذا هو عالم واسع يكفي أن أبتعد فيه عن بيتنا بضع خطوات لكي أفقد طريق العودة إليه.

والشارع بالنسبة لمن هو حديث عهد بالعمى والحياة عالم متكامل، فيه كل شيء، فيه قسوة، ورقة، وقلوب تكسرها الرقة، كما تكسرها القسوة، فيه أطفال يقيمون حد العمى على الطفولة الساذجة المستضعفة.

يقولون لك: يا أعمى، أو يقذفونك بالحجارة، أو يأخذون بيدك إلى شارع غير الذي تريد، بغية خداعك، والضحك منك، فكأنهم يوقظونك من البنج أثناء عملية جراحية لم تتم؛ وعالم الأطفال مثل تاريخ الإنسانية، كلاهما معلم لا

يعرف الرحمة، وإذا أردت أعمق الحقائق وأبعدها عن الزيف فالتمسها عند صنفين من البشر: هما الأطفال والأنبياء، إلا أن الأطفال يقذفون بالحقيقة عارية، أما الأنبياء فيعرفون كيف يسترون عورتها.

وفيه -أي في الشارع- كبار تتراوح علاقتهم بك بين الاهتمام الخانق، والإهمال الخانق، والإشفاق الخانق.

وفي أفواههم أمثال تقتلع الحياة من الأحياء (أعمى وبيقلع في النخل!!!! إن شفت الأعمى دبه وكل عشاه من عبه منتاش أحن من ربه!!! إتولد للعمي عيل مفتح قلعوا عنيه من التحسيس!!! الأعور في أهله أحسن من الأعمى على كل حال!!!).

وإذا كنت أعمى فلا بد أنك علمت بالتجربة أن الذين هم في الشارع ليسوا أسوأ كثيرا من المحيطين بك، وإذا قال لك كفيف إن المحيطين به لم يستغلوا عماه ولو مرة واحدة جدا أو هزلا فاعلم أنه إما كاذب أو مخدوع، نعم إما كاذب يتقي بنرجسيته نقائصه أو مخدوع لا يشعر بالذين حوله، أو لا يتمتع بالحساسية الكافية التي تمكنه من قراءة ما حوله.

وليس بالضرورة أن يكون مستغلو العمى كارهين، أو مغرضين، بل قد يكونون مضطرين، أو راغبين في التخلص من موقف راهن يقتضي هذا، بأن يخفوا عنك مثلا ما لو عرفته لثارت ثائرتك، أو أن يشير بعضهم إلى بعض بالسكوت، أو بالحركة، وقد تراه أنت سهلا مهضوما في الحياة اليومية، خصوصا حين لا يترتب عليه ضرر، ولكن نتيجته النفسية تكون مؤلمة أشد الإيلام، وأذكر هنا أن بعض زملائنا في الإعدادية والثانوية كانت تطيب لهم

حصص الأساتذة المكفوفين لكي يتمازحوا فيها بلا صوت فكان ذلك يؤلمني أنا كلما تخيلت نفسي مكان هذا الأستاذ.

وإذا لم تستطع أن تتخيل هذا فقل لي ماذا يكون إحساسك حين تكتشف أن من استرشدت به قد أركبك مواصلة تذهب عكس الاتجاه الذي تريده؟ أو أن تكتشف بعد أن تنزل من التاكسي وتدفع الأجرة للسائق فينصرف أن السائق قد أنزلك في أبعد مكان عما تريد؟أو أن يعطيك السائق ربع جنيه على أنه خمسة جنيهات مثلا؟.

والنتيجة العملية لهذا اللون من التجارب أن يوجد كفيف فاقد الثقة في كل من حوله لا يكاد يصدق أحدا في شئ، أو كفيف مكتئب بصفة دائمة لا يخرج إلى المجتمع إلا في ضرورة، أو كفيف يتسول المجتمع بأن يطلب منه ما لا يحتاج وأنا شخصيا أعرف موظفين مكفوفين لديهم جداول بالشركات التي يتقاضون منها إعانات شهرية، وهناك أيضا الكفيف العدواني المستعد لإثارة المشاكل لأتفه الأسباب.

وأذكر بهذه المناسبة أنني كنت في جامعة عين شمس قاعدا على أحد الأرصفة وعلى شمالي فتاتان تضحكان وبعد فترة قصيرة قدم علينا كفيف يدق بعصاه ويحمل جهاز تسجيل ضخما كأنه ديك رومي وتوسل إلى الفتاتين أن تسجلا له بعض المحاضرات فاعتذرتا ثم انصرفتا وكنت أريد أن أعينه على ذلك بأن أجعل بعض معارفي يسجلون له ما يشاء من المحاضرات فسألته ماذا تريد فقال أنا أريد ثم قطع كلامه وقال بصوت مرتفع (أنت مال أمك ينعل أبو اللي جابوك)، وبسرعة ابتعدت عنه لكي لا يعلم الناس أنه يقصدني.

كان يمكن أن أكون واحدا من هؤلاء، ولكنني قررت منذ عهد بعيد أن أستثمر كل عقبة تصادفني لصالح ما هو إيجابي في الحياة، فمن كثرة ما تهت في الطرق تعلمت كيف أحفظها وأعرف معالمها بل إن الناس لا يصدقونني حين أقول لهم إن للطريق مذاقا في الرجلين، وكنت ربما أعلم أنني تهت من تغير مذاق الأرض تحت رجلي، ومن كثرة ما وقعت في حفر أو ماء تعلمت كيف أتقيها، فقد كنت في صغري إذا وجدت نفسي أمام حفرة أشوط فيها الرمال بقدمي ومن صوت الرمال أقدر عمقها فإن لم تكن عميقة مشيت فيها وإن كانت عميقة درت حولها.

وإذا كنت أمام ماء أمسكت بحجرين صغيرين فقذفت أحدهما على مسافة قصيرة فإن لم أسمع صوت الماء قفزت وإن سمعت صوته ألقيت الحجر الآخر على مسافة أبعد فإن سمعت صوت الماء مرة أخرى درت حوله وهكذا.

ومن سخافة وبطء القراء تعلمت الصبر كما تعلمت الكياسة في معاملة الناس، فكم من قارئ قرأ صفحتين ثم مل فقام، أو قارئ لا يصبر على القراءة إلا بمزيد من السجائر أقدمها له، وكان لزاما علي أن أقبل من الدنيا ما تقدمه إلي وإن لم يكن هو ما أريده.

ومن كثرة أخطائي بين الناس في الصغر تعلمت أن أتصرف بحذر، وأذكر بهذه المناسبة أنني كنت في صالون الأديبة حياة أبو النصر وكان هذا الصالون يستمر من الثامنة مساء إلى الرابعة صباحا، وكان شعارنا فيه إن شئت فقل وإن لم تشأ فكُل، لكثرة ما كان يقدم من المأكولات والمشاريب وكان يقعد

أمامي رجل متحفظ ذو بدلة أنيقة وكان يخيل إليك من تحفظه أنه استعارها من الأمم المتحدة بوساطة الأمين العام شخصيا، لهذا لم يكن يصافح أحدا على الإطلاق مخافة أن يعرق كم البدلة فتكون مصيبة، وغاظني أحد الشعراء بشعره الركيك فقلت بغيظ ما هذا! ورفعت يدي بحدة فإذا أمامي الجرسون حاملا صينية ضخمة عليها ما لا يقل عن عشرة أصناف من الحلوى والمعجنات وعشرة مشاريب على الأقل منها ما هو بلبن وما هو بالكريمة، وفي أقل من ثانية كانت هذه الصينية في حضن الزبون أبي بدلة، وأصابته الهيستريا لبضع دقائق ثم أصبح حرا طليقا يقوم إلى الناس يعانقهم ويقبلهم إذ لم يعد في حياته ما يخاف عليه، أما الجرسون فقد أصابه حيالي وسواس قهري فأصبح لا يدخل المجال المغناطيسي للمنطقة التي أنا فيها فإذا طلبت مثلا فنجان قهوة سلمه لأول من يليه عند المطبخ وظل الفنجان يمشي بالسند المتصل إلى أن يأتيني، وبالطبع لا أعدم من يشفط منه شفطة في الطريق.

هذه عقبات كثيرة كان يمكن أن تكون بالنسبة لي سكرات الموت ولكنها كانت والحمد لله آلام الشفاء.



من عبق الجامعة

منذ بضعة شهور ذهبت إلى الكلية لأتسلم شهادة الدكتوراة، وبعد أن تسلمتها ونزلت السلم ووليت وجهي تلقاء بابها أحسست أن مسافة بعيدة تفصلني عنها، لم يكن يفصلني عنها ذلك السلم المتعدد الدرجات فحسب بل كان يفصلني عنها ربع قرن تقريبا.

لم أتعجل بالانصراف بل وقفت أسفل السلم كأنني أنتظر أحدا لم أحدده بعد، استندت إلى إحدى السيارات الواقفة، وأشعلت سيجارة، وبقيت أتنهد بعمق بين موجات الصاعدين والنازلين من الطلاب والطالبات، وبدون أن أدري أخذت أسترجع شيئا فشيئا ذكرى أول مرة دخلت فيها هذه الكلية، وأول ما جرى لي بين جدرانها، وأول من عرفتهم فيها، والذكريات التي لابست التحاقي بها، فإنني أعرف عن نفسي منذ عهد بعيد أنني قد أكون أحيانا مغامرا أحمق لا أحسب للأمور حسابها مهمى كلفني ذلك.

ومما أذكره في هذه السبيل أنني حين حصلت على الثانوية الأزهرية تقدمت بأوراقي إلى كلية دار العلوم، ولم أقدم أوراقي إلى أية كلية أزهرية دون أن أكون على علم بما إن كانت كلية دار العلوم سوف تقبلني أم لا، ومعنى هذا أن الكلية إن رفضتني فلن يكون لي مصير إلا الشارع، ومع ذلك قبلت المغامرة، فإما دار العلوم وإما الشارع، ولكن الله قد شملني بعنايته وقبلتني كلية دار العلوم وودعت الأزهر إلى غير رجعة وتغيرت حياتي رأسا على عقب.

كنت قد ضقت ذرعا بالأزهر ومناهجه القديمة العقيمة في تناول العلوم الشرعية واللغوية، كما ضقت ذرعا بالطرق التي يتبعها الأساتذة الأزهريون في تدريس هذه العلوم وما هم عليه من إصرار على الحفظ حتى وإن لم يكن

هناك فهم لما يحفظون، لهذا كانت فرحتي غامرة حين دخلت كلية تتبع مناهج جديدة في التعامل مع اللغة والأدب، كلية ليس فيها متون يجب أن تحفظ، وشروح على هذه المتون، وحواش على تلك الشروح، وتقارير على الحواشي، وخلافات لا طائل تحتها.

كانت كلية دار العلوم مجتمعا يحاول أن يجمع بين التحفظ والانفتاح، فالطلاب والطالبات في مدرج واحد إلا أن للطالبات صفا وللطلاب آخر، وبهذا تجنبت الكلية الجفاء الذي تتصف به الكليات الأزهرية في العلاقة بين البنين والبنات، كما تجنبت الملاصقة التي تقع في كلية الآداب وما جرى مجراها.

ارتبطت بالكلية عاطفيا إلى حد العشق الذي كاد يبلغ بي مبلغ الهوس، فأصبحت أكره كل ظرف يحول بيني وبين الذهاب إليها، وكانت عودتي إلى بيتي هي الحل الأخير بعد أن تنتهي جميع المحاضرات والسكاشن وبعد أن ينصرف جميع أصحابي.

نعم كان عشقي للكلية هو الذي يصبرني على أن أحتمل البقاء فترة طويلة في أتوبيس ٥٠٣ الذي كان دائما مزدحما معطلا بالإشارات المرورية إلى حد أنه كان يستغرق ساعة ونصفا من ألف مسكن حيث أسكن إلى بين السرايات حيث الكلية.

كانت الجامعة بالنسبة لي مهرجانا متصلا يستغرق العام كله، ففيها الكتاب المدعوم، وفيها المأكولات والمشروبات الرخيصة، وفيها تسلمت جهاز تسجيل صغيرا يعينني على تسجيل المحاضرات، وفيها الأسر والنشاطات المتعددة والرحلات، وفيها كتب لي في الامتحانات مرافقون كبار هم من موظفي الكلية بدلا من الصبي الذي كنت أصطحبه معي ليكتب لي في

امتحان الثانوية الأزهرية، وفيها الحب الصاخب والصداقة الوطيدة، وفيها مهرجانات الشعر والمسابقات الثقافية وما يتبع ذلك من منافسات حميدة أو ذميمة، وفيها رأيت الأساتذة الذين كنت أسمعهم في الراديو وأراهم في التلفزيون.

كان منهم المرحوم الدكتور عبد الله شحاتة الذي حضرت محاضراته عاما كاملا دون أن أسمع منه كلمة واحدة، وذلك أنه كان يلقي محاضراته صبيحة يوم الأحد من كل أسبوع، فكنت قبل محاضرته أذهب إلى كلية الآثار المجاورة لنا حيث تباع سندوتشات الفول، فكنت آكل أربعة منها أشفعها بكوب من الشاي الساخن في أيام الشتاء الباردة، ثم سيجارتين أو ثلاث، ثم أمضي إلى محاضرة الدكتور عبد الله شحاتة معمر الطاسة، فإذا سمعت صوته الحنون جدا رحت أغط في نوم عميق لا ينتهي إلا بانتهاء المحاضرة نفسها، فوالله ما أذكر شيئا مما قال على الإطلاق. وكان منهم الدكتور عبد الصبور شاهين الذي كان فيه قدر من النرجسية يشعرك أنه قد رشح نفسه لانتخابات الألوهية القادمة إلا أن نرجسيته كانت حلوة المذاق وكانت مثار تندرنا، وكان يدرس لنا علم الصوتيات فكنت أعجب من قدرته الخارقة على إخراج أصوات غريبة من مخارج غريبة، وقدرته على تقليد الطيور والحيوانات، وكان كريما شهما بحق، فذات يوم كسرت نظارتي ولقيني وأنا بلا نظارة فقال لي: يا واد هات لك نظارة وخذ ثمنها مني، فلما قلت له يا دكتور إنني لا أقبل الإعانة فإني من القوم الذين هم هم، ضحك وقال وماله يا واد أنا كمان هم هم، وقدمت إليه في إحدى المحاضرات بعد انتهائها فهمس في أذني قائلا وهو يضحك: ارفع سوستة البنطلون أحسن يطل منه خطر، وتحققت مما قال فإذا هو صحيح.

أما الدكتور أحمد شلبي فقد كانت نرجسيته تشعرك أنه قد فاز بالفعل في انتخابات الألوهية السابقة وأن عنوانه المسجل في بطاقته الشخصية إنما هو جبل الأولمب حيث يسكن آلهة الإغريق. قال له طالب في إحدى المحاضرات يا سيدي أنت تقول كذا وكذا، ولكن الدكتور أحمد عمر هاشم يخالفك في الرأي، فقال له الدكتور شلبي على الفور: أحمد عمر هاشم دا حشرة زيك، فقال لي الطالب بعدها وهو يضحك: لقد سرني أنه جعلني أنا الأصل وشبه الدكتور عمر هاشم بي.

وكان مع هذا يتفتت قلبه وتذوب كبده وراء كل حسناء أو غير حسناء المهم أن تكون أنثى والسلام، فإن دخلت عليه طالبة المكتب أو ناقشته في محاضرة رق صوته وارتعش كأنه إعادة صياغة للفنان عماد حمدي!!

ولن أنسى أبدا ما حكاه لي أحد أصدقائي، وكان يعمل مدرسا مساعدا في تلك الفترة، قال: إنني طلبت من الدكتور أحمد شلبي بعض كتبه، فاعتذر فأطلقت عليه إحدى المعيدات فطلبت منه كتبه فأتاها بها جميعا في اليوم التالي وعلى كل كتاب إهداء مختلف .

وكان الدكتور محمود الربيعي رجلا مصقولا يحافظ على مسافة بينه وبين طلابه، وقد يشعر بالإهانة حيال الألفاظ العادية التي يستعملها الناس فيما بينهم، ولن أنسى أبدا أن طالبا منا قال له ذات يوم أعصابك يا دكتور، فجن جنون الرجل وقال في المايكروفون: إنني لن أنسى أنه في يوم كذا من شهر كذا من عام كذا قال لي طالب في الفرقة الأولى أعصابك يا دكتور! وأساء إليه طالب ذات يوم ثم مضى إلى مكتبه ليعتذر إليه فلما مد الطالب إليه يده بالسلام أبت على الدكتور نفسه إلا أن يعطر يده بالمعطر قبل أن يمدها للطالب تحقيرا لشأنه، لهذا كنا نتحسس ألفاظنا بعناية قبل أن نتلفظ بها أمامه

مخافة أن نقع في المحظور، إلا أن من إحقاق الحق أنه كان كريما سهلا سمحا ما لم يُستثر.

أما الدكتور علي الجندي فلولا خوفه من الله لأعلن أن الجاهلية خير من الإسلام، وذلك لأنه كان متعصبا للأدب الجاهلي يراه أكمل صيغة للأدب العربي، ومما أذكره أنني سألته يوما فقلت له: يا سيدي ما كل هذا الاهتمام بالأدب الجاهلي ذلك الأدب الذي صدر عن قوم تختلف حياتهم عن حياتنا كل الاختلاف؟ أليست دراسة الأدب المعاصر أولى على أساس أنه يعكس حياتنا ومشاكلنا؟ فقال: أيها الجاهل إن في رأسك هلسا أنا كفيل بإزالته، إن كل جملة في الأدب الجاهلي تحتاج بحثا مستقلا. والحق أن السنوات التي تلت قد وقفتني على صحة هذا الرأي، خصوصا بعد أن قرأت كتاب المرحوم جواد علي المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ذلك الكتاب الذي يقع في عشرة مجلدات، وأذكر أنني دخلت محاضرته ذات يوم متأخرا بضع دقائق فصمم على أن يطردني فقلت له لكي أغيظه: على فكرة يا دكتور الأدب الجاهلي كله منحول ليست فيه كلمة صحيحة، فهم بأن يجري ورائي.

ولست أعرف رجلا كان أحلى مذاقا من الدكتور محمد حماسة، فإنه كان يعرف تماما كيف يفصل بين جده وهزله، فإن بدأ شرحه كان معلما بحق، وإن عقد النية على المزاح خيل إليك أنه طالب من زملائنا، ومما أذكره أن القناة الثالثة وجهت له دعوة مع بعض شعراء الكلية لتسجيل برنامج عن الشعراء الشبان، فكنت أنا واحدا من الذين اصطحبهم معه في سيارته ذهابا وإيابا وكان يقص علينا من حياته وذكرياته طرفا كأننا أساتذة أو كأنه طالب.

وكان لصوت الدكتور أحمد كامل استاذ التاريخ أثر مدهش في أن ينام المدرج كله بلا استثناء، وأذكر أنني دخلت المدرج من الخلف في إحدى محاضراته فوجدت طالبين يلعبان الدومنو سرا وهو ذاهل عنهم أتم الذهول.

ولعل أشد ما كان يثير عجبي في الدكتور رجاء جبر أنه كان ملتقى صفتين قل أن تجتمعا في رجل، كان يلتقي فيه منتهى الدقة في العلم ومنتهى السذاجة في الحياة المعيشية، فقد كان يرسل الأقوال على عواهنها بلا تدقيق أحيانا بقطع النظر عما قد تؤدي إليه من نتائج.

في أحد مهرجانات الشعر وقفت شاعرة اسمها أمل شحات تلقي قصيدة من قصائدها، واستكثرت من تعبير"أنا يا سمير الروح"فلما فرغت من قصيدتها علق الدكتور رجاء على هذه القصيدة بوصفه من أكابر النقاد فقال: إن الشاعرة تستكثر من تعبير أنا يا سمير الروح، يبدو والله أعلم أن هناك علاقة خاصة بينها وبين الشاعر سمير فراج، فشهر بالفتاة وأحرجها دون أن يدري!!!! ومن عجب أن هذه الشاعرة كانت تكره سميرا وتخاف منه أشد الخوف.

وأذكر أنني كنت أساعد إحدى زميلاتي على عمل بحث عن شخصية المرأة الساقطة في أعمال نجيب محفوظ، فاختلفنا أنا وهي حول إحسان شحاتة بطلة رواية القاهرة الجديدة هل كان أبواها متزوجين أم لا؟ ومضينا إلى الدكتور رجاء نسأله فقال والفتاة إلى جانبي: لأ لأ جواز إيه يا عم صلاح؟ دا كان بينهم شوية شغل كدا، فوضعت وجهي في الأرض وأنا أتصبب عرقا لأن الفتاة كانت شديدة الخجل ولم يكن الذي بيني وبينها يسمح بهذا اللون من المزاح، والعجيب أننا حين بحثنا وجدنا أبويها متزوجين!!!!.

وعن له في إحدى المحاضرات أن يسأل الطلاب عن جملة والله يرزقكم من حيث لا تعلمون فقال: هي دي آية من القرآن يا أولاد؟ فلما قالوا له لا قال: بس شكلها حلو تنفع!!! ووقف أمامه طالب يكفر الحلاج بحجة أنه قال كذا وكذا فقاطعه الدكتور رجاء قائلا: يا ابني إحنا غلابة، هو الحلاج ما كانش

عارف الكلمتين الفارغين إلي أنت بتقولهم دول؟ اسكت اسكت إحنا غلابة يا ابني.

وكان الدكتور رجاء قد سمح لي بتسجيل محاضراته فكنت أضع جهاز التسجيل أمامه مباشرة، وفي منتصف إحدى المحاضرات أتاه شخص فهمس له بكلمات قليلة وانصرف، فقال الدكتور على الفور: لازم أمشي دلوقتي عشان أقابل العميد، فلما سمعت تسجيل المحاضرة وجدت هذا المسمع بين الرجل والدكتور قال الرجل: بنت حضرتك وصلت دلوقتي وجابت معاها السمك، وبتقول لحضرتك يا ريت نمشي دلوقتي قبل السمك ما يبرد، فقال له الدكتور قل لها نازل حالا، فهذا هو العميد، فلما أطلعت أصحابي على هذه القصة بقينا نضحك منها إلى آخر العام، وكانت هذه التلقائية التي يتصف بها هي سر فتنتنا به والتفافنا حوله.

وكان الأساتذة متفاوتين في تقديرهم للحرية، فمنهم من يسمح بأن تناقشه حتى النهاية، وأن تخالفه في الرأي، وأن تستعين بمراجع تختلف عن كتابه دون أن يحقد عليك أو يحرمك حقا من حقوقك، وهم القلة النادرة، أما كثرتهم فلم تكن من ذلك في شيء وأذكر أن معيدة من معيدات الدكتور عبد الله شحاتة دخلت لنا ذات يوم، فكان مما قالته لنا حين تسأل عن رأيك في امتحان آخر العام فق رأي الدكتور، لأن إلي زيك ماهوش رأي، إلى حد أنني قلت لأصحابنا يوما: يوشك النظام الجامعي أن يكون دينا مستقلا كبقية الأديان، له آلهته الذين لا يعصون وهم الأساتذة، وكهنته المبشرون بتعاليم الآلهة وهم المعيدون والمدرسون المساعدون، وله كتبه المقدسة التي لا يجوز الخروج عليها، وهي كتب الأساتذة، وله معابده التي يجب أن يتصف المريد فيها بالولاء والطاعة والخشوع وهي قاعات المحاضرات، وله يوم قيامته وهو

امتحان آخر العام، وله ثوابه وعقابه حين تظهر النتيجة، وأخشى ما أخشاه أن يأتي يوم يكتب فيه للطالب في خانة الدين من بطاقته إنه جامعي.

على أن أساتذتي كانوا يحبونني مثلما كنت أحبهم، وكانوا يهدون إلي كتبهم ويكتبون لي عليها إهدااتهم ويحفظون اسمي عن ظهر قلب منذ الفرقة الأولى.

وكان لمناقشاتي مع أساتذتي أبلغ الأثر في أن يلتف حولي كثير من الطلاب والطالبات ينشدون صداقتي، ولم يسعني أن أصاحبهم جميعا فتخيرت منهم طائفة طيبة متنوعة لم تزل في قلبي إلى يوم الناس هذا.

كان من أوائل من عرفت في الكلية م. الصعيدي، كان طويلا، عريضا، ضحوكا، عنيفا، طيب القلب، يغضب الآن ويرضى بعد ساعة،متدينا، حلو الصوت في تلاوة القرآن، لقيته أول مرة في المدرج وكان في يدي كتاب الدكتور زكي نجيب محمود المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري، فقال لي بلهجته الصعيدية: عايز تجرا؟ وقبل أن أقول له نعم أو لا اختطف الكتاب من يدي وأخذ يقرأ فأعجبتني فصاحته جدا فأصبحت منذ ذلك اليوم صديقا له، ثم لم ألبث أن لقبته بالجمل، فصار أصحابنا جميعا يقولون راح الجمل وجاء الجمل.

كان م. رجلا عنيفا وكان مشروبه المفضل الزنجبيل بالحلاوة الطحينية خصوصا في ليالي الشتاء، لهذا فإن المزاح معه كان يكلف الطرف الآخر خسائر لا يستهان بها، وذلك لأن لسانه لم يكن يدخل في المزاح بل كان يمازح بشيءين لا ثالث لهما، بيده إن أعطاك بالبكس، أو برجله إن أعطاك بالشلوت والويل كل الويل لمن أصابته من م. ضربة أو ضربتان.

ورغم أن ضرب م. لنا كان ضربا موجعا، لأن يده كانت أشبه ما تكون بمطرقة رغم هذا فإننا لم نكن نكف عن مغايظته ليطاردنا فنفر منه كما تفر

الخراف من عصى الراعي، كنت أهجوه بالشعر غيظا له فكان أصحابنا يحفظون هذا الشعر ويغيظونه به فيضربني أشد الضرب وأنا أضحك وأتوجع ولا أكف، فلما ضاق ذرعا بهذا الهجاء عمد إلى السخان الذي كنا نستخدمه في عمل الشاي في المدينة الجامعية فأشعله ثم وضعه على ظاهر قدمي فلما صرخت قال لي: هل أوجعتك النار؟ فقلت له نعم، فقال إن هجاءك يوجعني أشد منها.

وكان م. كثير البطش بأصحابنا يضربهم بمناسبة وبغير مناسبة، فلما طال عليهم ذلك قرروا أن ينتقموا منه، ولن أنسى أبدا تلك الليلة التي ائتمر فيها به بعض أصحابنا ليضربوه فأمسك به اثنان من أعلى واثنان من أسفل ورفعا رجليه إلى أعلى ثم تقدم الخامس وفي يده فردة شبشب فمد بها م.ا على رجليه ونحن نتقطع من الضحك وم. يتقطع من الغيظ، فلما فرغوا من مده تفرقوا عنه وبعثرهم الرعب في شوارع المدينة الجامعية وم. يتتبعهم وهو يزأر ويتوعد أعداءه بالإبادة.

وكانت لنا مع م. مواقف طريفة لا تكاد تحصى، منها أنني في الفرقة الأولى كنت أصاحب فتاة سمينة فلما رآني م. معها يوما سألني في اليوم التالي: مين الجاموسة إلي كانت معاك إمبارح؟ وقبل أن أجيبه التفت فإذا الفتاة وراءه تسمعه بمنتهى الوضوح، فلم ينطق بكلمة بل انصرف خجلا، فلما كان من الغد أقبل م. إلى الكلية وعليه معطف من الصوف فلما أبصرته الفتاة قالت لصاحبتها: شوفي يا أختي الصوف إلي على الخروف، فلم يستطع م. أن يقول لها حرفا واحدا.

وزارني م. مع بعض أصحابنا في بيتي وكنت أقيم مع أمي العجوز في غرفة واحدة، لهذا كنا نسهر في فناء البيت، فلما أرادت أمي أن تنام اتخذت سترا بيننا

وبينها وتمددت على أريكتها، ثم طلبت من م. أن يقرأ شيئا من القرآن لأنها تحب أن تنام على تلاوته، فما فتح الله على م. بشيء من القرآن كله إلا بقوله تعالى)قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون) فلما سمعت أمي هذه الآية وهي على وشك الدخول في النوم أحست أن هذا هو آخر عهدها بدار الفناء وأول عهدها بدار البقاء، فاقشعرت ثم قامت قاعدة وأزالت الستر الذي بيننا وبينها وقالت: يا م. مفيش في القرآن كله إلا الآية دي؟!!! فتزلزلنا ضحكا من اختيار م. وفزع أمي.

وعرفني م. على ناشي، وهو فتى شرقاوي، رومانسي، تنويري، متدين، حالم، عذب القلب والصوت، طاهر اللسان والفرج والنية، عفيف عما في أيدي الناس إلى حد السخف، سخيا بما في يديه إلى حد السفه أحيانا.

وكان يؤثر أصحابه على نفسه ويستحيي منهم إلى حد يدعو إلى الإعجاب حينا وإلى الغيظ أحيانا، فحين كنا في المدينة الجامعية زاره واحد من زملائنا وأقام معه في غرفته إلى حوالي الثانية صباحا وناشي يتثاءب ولا يستطيع أن يقول له إنه في حاجة إلى النعاس، وأنه يجب أن يصحو مبكرا ليدرك محاضرات الصباح، فما كان مني إلا أن طردته أنا متهما إياه بالثقل وقلة الذوق.

وكان لنا زميل متشاعر اسمه بدر فلما أراد أن يسمعني بعض شعره ليعرف رأيي فيه قلت له يا بدر أنا لا أفهم إلا في الفلسفة، ولكن عليك بناشي فإنه متخصص في النقد الأدبي فهو قادر على أن يفيدك خيرا مني، فمضى البدر إلى ناشي وأفرغ في أذنيه كل ما عنده وناشي المسكين يستحيي أن يستوقفه، حتى إذا فرغ البدر من أشعاره جميعا توجه ناشي إلى غرفتي يسبني ويلعنني، أما علاقته بأصحابه في بلده فقد كانت أعجب، فإن زاره زائر بغير موعد استيقظ

من أجله كرها وأخذ يرحب به حتى يجف لسانه، ثم لم يقنع بهذا حتى يمضي معه فيوصله إلى بيته، وأذكر أنني قلت لأصحابنا حين تزف إلى ناشي عروسه فسوف يقول لها أهلا وسهلا بلا انقطاع حتى ينقضي شهر العسل.

لهذا لم يستغرق ناشي وقتا طويلا ليستحوذ على قلوبنا جميعا، بل إننا كنا نعده أبانا رغم أنه أصغر منا، وكنت أنا أسميه الأنبا ناشييوس ثم تابعني أصحابنا على هذه التسمية، وكان أعجب ما في ناشي أنه يسترسل إلى الكسل ما لم تكن هناك ضرورة للجد، فإذا دعا داعي الجد فإنه أسرعنا فهما وحفظا ولن أنسى ذلك اليوم الذي استعار فيه رواية أولاد حارتنا من أحد الأصدقاء فدفعه الشغف بها إلى أن قرأها في يومين اثنين، كان ناشي حين ينشد الشعر يخيل إليك أنه هو كاتبه وحين يقرأ النثر بصوته الحالم الرصين يأخذك صوته إلى عصر لم يوجد بعد، لهذا كنت أستمع إلى تسجيلاته أحيانا بغرض الاستذكار وأحيانا بغرض الاستمتاع.

أما حمدي الذي عرفته في ذلك الوقت فقد كان تحفة من التحف، حين رأيته أول مرة خيل إلي أنه من الحكماء السبعة، لأنه كان يتكلم في كل علم وكل فن، وبتتابع الأيام، وكثرة المناقشات، وتمحيص الأفكار التي يعرضها، والرجوع إلى الكتب التي يشير إليها، نقص إعجابي بعقله وثقافته وإن لم ينقص إعجابي بقلبه وعواطفه الإنسانية.

والسبب الذي أفقدنا ثقتنا بحمدي هو أن حمدي كان يقرأ كثيرا ولكنه كان يدعي أكثر مما يقرأ فعلمنا بكذبه فيما لم يقرأ شككنا فيما قرأه بالفعل.

كان حمدي شابا بسيطا إلى حد يخيل إليك معه أنه يقيم في ملابسك، أو في جيب من جيوبك، أو تحت سريرك، أو في درج مكتبك، فأنت تستطيع أن تغديه في بيتك دون دعوة سابقة، وتستطيع أن تزوره بلا موعد سابق دون أن

يشعر هو بالمفاجأة كما تستطيع أن تأخذه معك إلى من شئت حيث شئت بلا إذن، تستطيع أن تستبقيه حتى وإن كان ذلك على حساب شيء يجب أن يعمله في بيته، وتستطيع أن تطرده بلا مبرر، كما يمكنك أن تستخدمه في أشق عمل بأقل أجر، وحمدي في كل هذا ضاحك الوجه، لا يبدي إعجابه بشيء، لكنه لا يرفض شيئا، فلا هو مبهور بالأشياء الغالية ولا هو محتقر للأشياء الرخيصة، كأن رهانه الأول والأخير إنما هو على إيقاع الحياة ومادتها بصرف النظر عما في محتوياتها من تفاوت فإن أنت حدثته بمنتهى الحماس عن الكباب والبيكاتا، والسيارات الفارهة، والملابس الأنيقة، والأماكن الفخمة، حدثك هو بحماس أشد منه عن الكشري والطعمية والعصافير المقلية التي يضعها في الخبز ويأكلها، والأتوبيسات التي يركبها، وأهمية الملابس المشتراة من وكالة البلح، والمقاهي الحقيرة التي يقصدها، كأن حياته مبنية على معاني الضرورة دون معاني الجمال.

كان حمدي شاعرا، قاصا، صحافيا، باحثا في التراث، ومع هذا فهو صاحب أكبر نسبة رسوب بين زملائنا.

أما على مستوى الحب الذي لا بد أن يقع بيننا وبين زميلاتنا في تلك المرحلة، فقد كانت فيه صفتان غريبتان، إحداهما أنه لم يستمل قلب واحدة من زميلاتنا كأنه مولود من كل رحم مع كل أنثى فهو أخوها وإن لم تره إلا الآن، والأخرى أنه أقام مجموعة من العلاقات المتميعة مع حوالي ست بنات اسمهن جميعا عزة حتى تزوج زوجته الحالية واسمها أيضا عزة!!!!.

نعم كانت في حمدي إنسانية تنفع ومكر لا يضر، كان فيه من الكرم ما لا نحتاج إليه فهو لا يسرنا، ومن البخل ما لا نأنف منه فهو لا يضرنا، وكان حمدي يحب أن يقص علينا من القصص ما يأسر به أسماعنا، فإن لم تسعفه

الحياة بحقائقها الجافة أسعفه الخيال بمحتوياته التي لا تنتهي، وكنا نرحب بصدقه وكذبه على السواء لأن كليهما مادة صالحة للتسلية حين يكون النهار مملا أو الليل طويلا وذلك لأن أكثر الناس يرحبون بالحقائق حين يترتب عليها شيء ينفعهم، ويفزعون من الكذب حين يبنى عليه شيء يضرهم، أما حين يستويان في البعد عن النفع والضرر فإنهما يستويان في السمع، فإن قال لك حمدي مثلا إن جارته قد خلعت ملابسها ووقفت أمامه عارية وراودته عن نفسه فاستعصم فافهم أن هذا هو ما يتمناه حمدي في داخله وأن السبب الوحيد الذي جعله يستعصم هو أن القصة لم تحدث أساسا.

أما الشاب الصعيدي م.ع ذلك الذي كان متأخرا عنا بفرقتين فقد قدم علينا من بلده البعيد متصوفا، متدينا، محبا للأدب، وكان فيه قدر من ثقافة وشيء من خفة ظل، لهذا احتضناه جميعا وحرصنا على إفادته، إما بالمناقشة بين بعضنا وبعض في الأدب والفكر والسياسة أمامه، أو بمناقشاتنا معه، أو بتوجيهه إلى ما يجب أن يقرأ من الكتب.

غير أن الفتى كان ربيب ترهل أسري حاد كان ضامرا في أول أمره ثم لم يلبث أن أورثه وسواسا قهريا لم يزل يملي عليه دائما وبشكل ملح أن رجال القاهرة جميعا يريدون أن يغتصبوه، وانعكس ذلك على قصصه التي يكتبها، وعلى سلوكياته حيال الناس خصوصا المحيطين به، وتفرعت عن هذا الإحساس المرضي أحاسيس أخرى، منها أن الله لم يعد معنيا بالكون وأن الإنسان متروك، وأنه أي هذا الشاب فوق مستوى الدراسة والشهادة، فكان من نتائج ذلك أن ترك الكلية وهو في الفرقة الثانية أو الثالثة.

ومنها أن كل التراث السابق على مدرسة الحداثة وقصيدة النثر إنما هو تراث متعفن يجب عدم الالتفات إليه وارتمى بالفعل في أحضان هذه المدرسة فأصبحت له مصطلحاته التي لا يفهمها إلا هو والقلة التي يصاحبها.

واستولى عليه الشعور أنه من أكابر المبدعين في مجالي القصة والرواية فاستسلم لهذه الهواجس فأخذ يتعالى على كل وظيفة تعرض عليه، ولن أنسى أبدا ما وقع لي معه، حين زارني ليلا وقد ترك منزله وأصبح بلا منزل ليسألني أن أجد له حلا لهذه المشكلة، فلم أزل أدور به على شقق أصحابي العزاب أسألهم أن يبيتوه عندهم، وأخيرا وافق واحد منهم أن يقيم صاحبنا عنده بضعة أيام حتى يجد عملا ومسكنا مناسبين، وبعد ذلك بقليل استطعت أن أقنع عم سيد الذي حدثتكم عنه في مقالي جائزة الحمار أن يشغل أخانا عنده، فكان من طرائفه معه أنه كان يمضي إلى الكلية صباحا ويبقى فيها طول اليوم ثم يعود إلى دكان عم سيد منهك القوى لينام في الدكان إلى صبيحة اليوم التالي، وفي الصباح يأخذ المصروف من عم سيد ثم يذهب إلى الكلية وهكذا كأني استقللت أولاد الرجل الذين كانوا ثمانية فأردت أن أضيف إليهم ولدا آخر ينفق ولا يعمل!!!!.

وكان صاحبنا كثيراما يشكو أباه لعم سيد، فلما طال عليه ذلك قال له عم سيد: يا فلان لا تتسول بعاهة أبيك.

وأخيرا مل صاحبنا من العمل الشاق عند عم سيد، أقصد من نومه الشاق في دكانه ليلا، فاستقال بلا استئذان.

وبعد أن طرد من الكلية أخذ يتقلب في أعمال رخيصة، وحين أمكنه أن يتزوج تزوج فتاة من زميلاتنا مجهدة القلب من كثرة المغامرات العاطفية وكثرة الصدمات التي ترتبت عليها، فاعتبرت زواجها منه انتحارا قد أحله الله وما يدريك؟ لعل بعض الناس يصلحون أن يكونوا قبورا يدفن فيها ما بقي من أيام ناس آخرين.

ثم انقطعت أخباره عني إلى يوم الناس هذا، فما أدري في أي ركن من أركان الحياة هو الآن.

أما مجموعة الشعراء فقد كانوا متحابين متعادين فيما بينهم، كان من بينهم الشاعر أحمد بخيت، وهو شاعر موهوب ولص أشعار محترف، فلا سرقاته تحد من موهبته ولا موهبته تصده عن السرقة.

فإن أنت قلت له يا بخيت هذا البيت مأخوذ من نزار، أو من محمود درويش، أو غيرهما، قال لك باستخفاف: إيه يعني؟ أنا قايلها أحسن منه.

ولكن من أحقاق الحق أن له حضورا مدهشا ولغة عذبة لها سحرها الخاص، أما على المستوى الإنساني فهو كثير الأعداء، سريع التقلب، شديد الترهل، وكان لي معه سجال شعري لطيف غلبني فيه وكنا نذكره ونتندر به.

ولم يكن كذلك نبوي، بل كان سليم الصدر رقيق الشعر، وكانت له معجباته مثلما كانت لبخيت معجباته، وكانت في نبوي خفة ظل حلوة المذاق، فقد كان يقيم في إحدى غرف المدينة الجامعية مع طالب بخيل جدا، ولقيته في فناء المدينة ذات صباح فقلت له يا نبوي ألا نمضي إلى غرفتك لنشرب كوبين من الشاي؟ فقال ضاحكا أنت عايز أحم عطية يطلقني!!!.

وكان صاحبنا يحيى عبد العظيم جاهليا بعث في العصر الحديث، فإذا سمعت إحدى قصائده خيل إليك أنه يركب جملا ويحمل آخر، وأنه يملأ قلمه سمنا لا حبراكأن كل قصيدة من قصائده إوزة قد تم تسمينها قبل أحد المواسم الدينية، لم حصل نجيب محفوظ على جائزة نوبل كتب يحيى قصيدة مطلعها: أنجيب يا فخر البلاد وعزها فلما فرغ من قصيدته قلت له يا يحيى أنا أجيبه أنت تجيبه مش مهم المهم ييجي.

وعلى العكس من يحيى كان زميلنا رضا، فقد كان حداثيا مؤمنا بقصيدة النثر لا تكاد تفهم منه إلا ما يشرحه هو لك، وأذكر أن الشاعر حلمي سالم حضر أحد المهرجانات التي كنا نقيمها في الكلية وألقى إحدى قصائده، فلم سألت رضا عن معنى هذه القصيدة قال إنها سياسية، فسألت عنها الشاعر أشرف أبو جليل أكد لي أن القصيدة عاطفية.

أما صديقنا الشاعر أحمد مسعد فقد كان ناعم الروح، حلو الشعر، طويل الصمت، كلما سمعنا نتكلم قال بصوته الخفيض: الصمت يا جماعة الصمت الصمت، فلما طال علينا ذلك قلت له ذات مرة: يا أحمد هو أنت متربي في مدارس الخرس؟.

وفي هذه المهرجانات الشعرية التي كانت تقام في دار العلوم التفت ذهني لأول مرة إلى ما سميته وثنية الوعي، وهي التصفيق لاسم الشاعر بقطع النظر عما إن كانوا يفهمون ما يقول أو لا يفهمون، ففي أحدها دعونا الشاعر عبد الله البردوني الشاعر اليمني المعروف، وكان الرجل مسنا قد أجهز القات على مخارج حروفه إلا قليلا، لهذا كنا لا نفهم ما يقول إلا بشق الأنفس، ورغم هذا فإن جمهور الحاضرين كان يتخيل مواضع التصفيق فيصفق سواء أكان هذا هو الموضع المناسب أم لم يكن.

على أن المهرجانات الشعرية لم تكن هي المهرجانات الوحيدة التي كنا نشارك فيها، بل كانت هناك مهرجانات أخرى ربما كانت أشد صخبا وعنفا، أعني بها انتخابات اتحاد الطلبة، ففي الفرقة الرابعة قررت أن أشترك في هذه الانتخابات، ولم أشأ أن أدخل مع الجماعات الإسلامية بل دخلت مع الأسر، كانت الانتخابات في أولها تتسم بقدر من التسامح بين المتنافسين، ثم لم تلبث أن مالت إلى العنف حين دخلت في مرحلة الجد، فحين اتهمتنا الجماعات

الإسلامية أننا شيوعيون لم يكن بد من الرد عليهم بشعارات مسجوعة يسهل حفظها عند العامة، ولم أضيع الوقت بل سرعان ما كتبت هذه الشعارات ودفعت بها إلى الهتيفة، وهي (ما ليناش دعوة بعبد الناصر، عايزين مسلم حر معاصر، قول لإخواتي الطلبة يا عم، دقن الأخ اتعاصت دم، شعارهم سيفان، بينهما إنسان، حكم السيف عز وجل، الإجرام هو الحل)

فلما سمعت منا الجماعات الإسلامية هذه الشعارات أذن فيهم مؤذن الجهاد وأحاطوا بنا ثم كبروا على قلب رجل واحد وهجموا علينا بكل ما طالته أيديهم من عصي وغيرها، وكسروا ظهر الهتيف وأسفرت هذه المعركة غير المتكافئة عن عدد من الضحايا كاف في أن يعلم المتحررين الآتين من بعد ألا يتصدوا للطوفان.

وكانت أيامنا في الجامعة تتقلب بين الأفراح والأحزان، إما بسبب الحب، أو بسبب الصداقة، أو بسبب ما نراه في الشارع والمواصلات، يا إلهي!! أتراني أنسى تلك الليلة التي حصلت فيها على جائزة الطالب المثالي وكنت فرحا أود أن أعود إلى بيتي في أسرع وقت، وفي أتوبيس ٥٠٣ رأيت فتاة مسكينة خشنة الصوت نحيفة الجسم صلعاء الرأس، تسأل الناس أن يعطوها من فضل الله ولا يصدق الناس أنها فتاة فتضطر أن تكشف عن نهديها لتثبت لهم أنها بنت لا ولد، كانت تبكي وتضحك وتتحرك وتحتمل التعبيرات الساخرة من الركاب أملا فيما عسى أن تجود به أيديهم، فلا والله ما وصلت إلى بيتي إلا منكسر القلب، منطفئ الفرحة، ودفعت الجائزة إلى أمي بلا أدنى ابتسامة وكأن المتسولة قد مدت يدها في داخلي فاختطفت فرحتي.

وفي ليلة أخرى وبعد مهرجان شعري نجحت فيه نجاحا منقطع النظير وفي طريق عودتي إلى بيتي ركبت إلى جانبي فتاة لطيفة هي إحدى زميلاتي، ودار

بيني وبينها حديث لطيف، فلما همت بالنزول ومددت يدي لأصافحها أخبرتني أنها بلا يد يمنى، فقد فقدت يدها اليمنى على إثر حادث أليم، وأنها كانت مخطوبة لشاب كانت تحبه، فلما وقع لها هذا الحادث قام خطيبها بفسخ الخطوبة، فلا أذكر أن ليلة كانت أشد علي من هذه الليلة.

وكانت أيام الامتحانات زمنا منفصلا عن كل أيام قبله وعن كل أيام بعده، زمنا مختلفا في نوعه، وطوله، والإحساس به، زمنا تعرف فيه كل لحظة من أين اكتسبتها وأين أنفقتها.

في الليلة السابقة على أحد الامتحانات سهرت إلى الصباح رغبة في أن أستوعب المقرر كله، فلما دخلت الامتحان أحسسست أن عندي ميلا شديدا للنوم، وبين مقاومة النوم والاجتهاد في تذرك ما ذاكرته ليلة أمس تعجلت الإجابة، ومضيت إلى بيتي ونمت، فلما صحوت من نومي اكتشفت أنني لم أكتب نصف ما كان يجب أن أكتبه، وعلمت حينئذ أن النوم وفي رأسي نصف المعلومات أفيد لي من السهر وفي رأسي معلومات كاملة لا أستطيع أن أكتبها.

نعم دار كل هذا في رأسي وأنا مستند إلى السيارة أشعل سيجارة من سيجارة، ولم أنتبه إلى على فتاة رقيقة وضعت يدها الرقيقة على كتفي وهي تسألني: عايز تروح حتة يا حج؟ فشكرتها مبتسما ثم توجهت إلى الرصيف الملاصق للباب ذلك الذي كنا نقعد عليه أنا وأصحابي فإذا هو بارد كأنه لم يعرفني ولم أعرفه، وكأن كل جيل يهب هذا الرصيف روحا خاصة فإذا هم بأن يترك الكلية أخذ تلك الروح معه وترك جسمه للجيل القادم ليبث فيه روحا جديدة، لهذا لم يطل قعودي على الرصيف الذي ودعته منذ ربع قرن نضى، فتركته وانصرفت عائدا إلى بيتي مفعما بقدر من الشجن اللذيذ.

***

مزيل لرائحة الأرق

كان حسين زيان زميلنا في الكلية وصديقنا المقرب من أبخل من يمكن أن ترى وكان في نفس الوقت من ألذ من يمكن أن تقابل، وكنا نحن نعتبر طريقته في التعبير عن بخله جزءا لا يتجزأ من لذاذته فإذا طلبت منه سيجارة على سبيل المثال قال لك باستنكار أملس)عيب بقا عيب بقا الناس بتتفرج علينا) ولكن فرجة الناس لا تمنعه من أن يأخذ منك سيجارة أو أكثر على حسب ما تسمح نفسك.

وكان يطيب لي أحيانا أن أتحسس جسمه السمين قائلا له يا سلام على لحمك يا حسين فتخرج منه ضحكات تشبه تنفيض السجاجيد.

وأي شئ أدل على بخل حسين زيان من أنه قد ورث سيارة عن أبيه فلم يستعملها مرة واحدة مخافة ثمن البنزين فبقيت السيارة في الجراش إلى أن خربت!!!.

وكان حسين حين يحدثك عن نفقاته يعتبر إنفاقه على نفسه نوعا من الغرامة فيقول لك مثلا)إمبارح ركبت الأتوبيس أنا وفلانة وفلانة وقطعتلهم وقطعت لنفسي وكعيت)، ولا تعجبوا من قوله وقطعت لنفسي فإن حسينا كان يعتبر طعامه وشرابه وتدخينه ومواصلاته مسؤولية المحيطين به لا مسؤوليته هو.

وأذكر أنه لقيني في كفتريا الكلية بعد غياب طويل فلما بدأت أعانقه قال بصرامة يتخللها ضحك)الحساب على مين عشان نبقا واضحين؟) فقلت له (الحساب علي أنا.. كمل الحضن يا حسين!)

وكانت فكرة استخراج سيجارة من حسين أصعب جدا من استخراج النفط والآثار ولم نكن نحن نبذل هذه الجهود الخارقة في الحصول على سيجارة من

حسين طلبا للسيجارة نفسها بل رغبة في أن نرى رد فعله الذي كنا نعشقه أو رغبة في أن نرى كيف سيتخلص من هذه الورطة.

وأذكر أننا كنا مجموعة ضخمة من الأصدقاء نقف على كبري قصر النيل في ليلة من ليالي الصيف بعد عودتنا من ندوة أدبية وكان معنا حسين كما هي العادة فتقدم الشيطان الشاعر سمير فراج فقال لحسين (يا حسين أنا عايزك في موضوع مهم على انفراد) وعلى الفور وافق حسين فجرني معهما سمير بلا مناسبة وحين ابتعدنا عن المجموعة بعض الشئ قال له سمير (يا حسين أنا عايزك تفهمني جذور وتاريخ الحركة الطلابية) وكان الحديث عن الحركة الطلابية واللائحة هو أحب حديث إلى حسين في الدنيا، بل إننا لا نبالغ حين نقول إنه الموضوع الوحيد الذي كان حسين يفهم فيه.

وحين بدأ حسين حديثه عن الحركة الطلابية قال له سمير (وَلع يا حسين عشان نعرف نفهم) وبالفعل أخرج حسين علبته التي لا تخرج إلا للعزيز الغالي وأعطى سميرا سيجارة وأعطاني مثلها وأشعل لنفسه ثالثة فلما التقط سمير النفس الأول من هذه السيجارة الميمونة ربت على كتفي وقال لي (ابقا هاته وتعالى!!) وتركنا وانصرف عائدا إلى بقية أصحابنا.

وأراد حسين أن ينتهزها فرصة ويحدثني أنا عن تاريخ الحركة الطلابية فقلت له على الفور (لأ لأ طلابية إيه ولايحة إيه يا حسين أنا مش بتاع كدا أنا جاي أغسل بشرفي، وعلى كل حال إخص على الزمن ابن اللايحة إلي حوجني لواحد زيك)، وعدنا إلى الجماعة وحسين يتقطع حسرات على السيجارات الثلاث التي ذهبت سدى.

وذات ليلة جمعتنا سهرة حلوة بالأخ حسين زيان وقبل أن نفترق قال حسين ليتنا نجد مكانا نبيت فيه لكي لا نفترق فنفقد هذه السهرة الحلوة فقال

الداهية المحنك ممدوح الشيخ ما قولكم في أن نبيت عند حسين؟ وسرعان ما لقيت منا الفكرة ترحيبا منقطع النظير فلما أحس حسين أننا مصرون عليها شهق شهقة كادت تذهب معها نفسه، لأنه يعلم علم اليقين أن المبيت معناه العشاء، وأن العشاء سوف يستتبع الشاي والسجائر، وأن النوم على المراتب سوف يستهلكها بما قد يقصر عمرها.

وأخيرا أذعن حسين للفكرة ووافق على أن نبيت عنده وفي الطريق إلى بيته أخذ حسين يردد (نفسي أعرف مين ابن الوس** اللي طرح الطرح دا؟).

وقبل أن نبلغ بيته ببضعة أمتار همس حسين في أذن ممدوح قائلا له (يا ممدوح أربعة كتير قوي إيه رأيك ترجع إنت؟) وحين أخبرنا ممدوح بما قال حسين انفجرنا في الضحك وأصر ممدوح على البقاء وأصررنا نحن على أن يبقى ممدوح معنا.

وإذا كان الحصول على سيجارة من حسين أمرا لا يتم إلا بالعناية الإلهية فما ظنك بالعشاء والشاي في بيته؟ لهذا حين دخلت بيته أحسست أنني فقير كان يتمنى زيارة مسجد أم هاشم فأتيحت له العمرة، من هنا خامرني شعور عميق أن أقول وأنا داخل لبيك اللهم لبيك.

وأخيرا دخلنا بيت حسين، دخلنا البيت الذي لم تستطع قطة أن تنال منه لقمة، واحتجت إلى دخول الحمام فقلت له (يا حسين أنا عايز أدخل الحمام.. حاضر) وأخذ يواصل حديثه وحالتي آخذة في الصعوبة (يا حسين أنا ما جبتش غيارات وعايز أخش الحمام حالتي وحشة.. حاضر) وكان حسين يتحدث باستفاضة ولا يريد أن يقطع حديثه لكي لا يسأله أحد عن العشاء والشاي، وحالتي تزداد تدهورا (يا حسين أرجوك عايز أخش الحمام.. حاضر) وبعد أن طال علي الأمد رأيت أن أخاطب عنصر البخل الذي فيه

فقلت له (يا حسين يا ريت تفتكر إني أنا داخل أحط مش داخل آخد) وعندها فقط وبين ضحك الجميع قادني حسين إلى الحمام.
وكان حسين يرى أن العشاء ترف لا مبرر له وأظنه كان يتمنى في أعماقه أن نموت جميعا قبل أن ندرك الإفطار لهذا فقد جاءنا بالشاي الذي يعمل عمله في سد النفس. وبالفعل شربنا الشاي وبدأنا نتصفح ما يقتنيه حسين من جرائد ومجلات فقد نسيت أن أقول لكم إن حسينا كان في أيام الرخص يشتري كل يوم بجنيهات جرائد ومجلات.
وعز علينا أن تنقضي الليلة دون أن يغتاظ حسين فتركناه حتى نعس ثم سكبنا على وجهه كوبا من الماء فقام فزعا يشتم ويسب ثم نعس ثانية فلما استغرق في النعاس أعدنا الكرة وسكبنا على وجهه كوبا آخر من الماء فقام أشد فزعا وأقبح سبابا من المرة الأولى. وضحكنا جميعا حين قام في المرة الثالثة فزعا دون أن تمتد إليه يد.
وأخيرا نمنا حتى الصباح وفي الصباح حانت اللحظة الحاسمة تلك اللحظة التي سوف يضطر فيها حسين إلى أن يأتينا بالإفطار وبالفعل جاءنا بالسم الهاري وبدأنا نأكل وفي منتصف الأكل قال حسين بتحسر (يا خبر نسيت أجيب الجبنة الفلمنك) فقلت له (إحنا فيها قوم هاتها) فقال ضاحكا (عيب بقا).
وبعد الشاي أراد حسين أن نغادر البيت فقلت له انتظر حتى أصلي الصبح وأعترف لكم أنه لم يكن في نيتي أن أصلي بل كنت أريد أن أبقى في بيت حسين أطول فترة ممكنة لأغيظه. ووافق حسين على أن أصلي فأدخلني الحمام فخرجت منه بدون وضوء ووقفت أقرأ سرا قصيدة الآتون من رحم الغضب للشاعر سمير فراج لأنها طويلة جدا جدا وسوف تأخذ وقتا طويلا وهذا هو

عين المنى، والحق أقول لكم لقد كان في نيتي أن أورط حسينا في الغداء ولكن (هو مين!!!).

وأخيرا استطاع حسين أن يجلينا عن بيته وفي طريق عودتنا إلى الجامعة أخذ حسين يقص علينا كرمه القديم في أيام العز، (آه يا أبو صلاح لو شفتني زمان لما كانوا زمايلي ييجو يزوروني كان الشاي ينزل، والقهوة تنزل، والحلبة تنزل، والسحلب ينزل) فقطعت حديثه ضاحكا وقلت له (يا حسين أظن إن الوحيد إلي كان بينزل هو الضيف!!).

ولم يفوت حسين هذه الفرصة فابتزنا على أكمل وجه في الكلية شاي وسجائر وأكل ولو علم حسين أن فينا إمكانية لمعاشرة الأزواج لما تردد في أن يفعلها بنا. ولعب الشيطان برؤوسنا بعد هذه الحادثة ببضعة أشهر فذهبنا لزيارته إلا أن حسينا في هذه المرة كان صارما صريحا واضحا فقام بطردنا من على الباب.

وكدنا جميعا نذهب إلى السراية الصفراء يوم أخبرنا حسين أنه سوف يدعونا إلى أكلة سمك ولم يقنع بهذا بل حدد لنا يوم الأكلة وفي اليوم الموعود اصطحب معه زميلين لنا ليحملا معه السمك من بيته. وطارت عقولنا بالفعل حين أتى حسين مع زميلينا ومعهم السمك، والخبز، والصلطات، والليمون، والمخللات.

وكنا حوالي عشرة أشخاص فبدأ الهمس يدور بيننا عن سر هذا السمك العجيب فقال فريق والله لقد جن حسين، وقال فريق بل هذه طريقة أخرى في الانتحار لقد أراد حسين أن يصاب بسكتة قلبية حين يرانا نأكل طعامه، وقال فريق لا لا بل السمك مسموم وحسين يريد أن يتخلص منا جزاء ما غرمناه من قبل، وقال فريق ليس السمك مسموما بل انتهت مدة صلاحيته وتعفن وأراد الزبال أن يأخذ من حسين جنيهين مقابل التخلص منه فرفض

حسين وقال للزبال بريال سوف أحمله إلى كلاب الجامعة فيأكلونه ويقبلون يدي.
وكلاب الجامعة هم نحن طبعا، واقترح بعض أصحابنا أن نؤرخ بهذه الحادثة الجسيمة فنقول مثلا حدث هذا الأمر ق.س.ح أو ب.س.ح أي قبل سمك حسين أو بعد سمك حسين. ومن عجب أننا أكلنا السمك فكان في غاية الطعامة وبقينا ننتظر الموت أو المرض فلم يحدث شئ من هذا.
وبعد حوالي عشر سنوات من هذه الحادثة قال لي صديق مقرب كم مر على أكلة حسين؟ فقلت له حوالي عشر سنوات فقال رغم مرور هذا الزمن الطويل فإنني لا أصدق أننا أكلناها فقلت له ولا أنا والله!!.
نعم كنا نحتمل حسينا وبخله الشديد لخفة روحه فقد كان بالنسبة لنا أو لي أنا على الأقل عبارة عن مزيل لرائحة الأرق.
وحين علمت بموته في الغربة انكسر له قلبي وأحسست بحزن عميق لأن كل من يموت من أحبائك يأخذ معه قطعة من عمرك هي العمر الذي عشته معه.

***

من الحب إلى الحمام

كنت أيام الكلية عفريتا بجد، ساحر الحديث محبا محبوبا، وكانت قد أحبتني فتاة رقيقة ثم لم ألبث أن انشغلت بها أنا أيضا، وأخيرا لم نجد أنا وهي بدا من المصارحة بعد أن فاض بنا الشوق فجلسنا نتصارح حتى جرنا ما أمكن من الهمس إلى ما أمكن من اللمس.

وكان يوما دراسيا من أيام الشتاء فشربت فيه حوالي تسعة أكواب من الشاي وأنساني حرصي على البقاء معها أن أدخل الحمام قبل أن ننصرف. وفي نهاية اليوم الدراسي خرجنا أنا وهي من الكلية وركبنا الأوتوبيس المتجه من بين السرايات إلى ألف مسكن.

ونزلت هي حيث تسكن وبقيت أنا كما هي عادتنا، ولكن بعد نزولها بمحطتين أو ثلاث أحسست أن المثانة سوف تنفجر فنزلت من الأوتوبيس دون أن أسأل حتى عن المحطة التي نحن فيها الآن.

وتوجهت إلى أقرب مسجد لأدخل الحمام فإذا الناس قد فرغوا من صلاة العشاء وأغلقوا المساجد فذهبت إلى أقرب مقهى فإذا هي بغير حمام وسألت عن أقرب بنزينة فإذا هي بعيدة عن المكان الذي أنا فيه بمحطتين على الأقل.

وأخيرا هداني أولاد الحلال إلى بيت قريب فلما طرقت بابه وفتح لي أهله دخلت كالسهم وأنا أقول بصوت مرتفع وجسم مرتعش الحمام الحمام الحمام.

وأدخلني أهل الخير الحمام فلا تسل عن الحال التي كنت فيها وأنا أشعر بهذه الأزمة وهي تنفرج.. يكفي أن أقول لك إنها حاصل ضرب المتعة في السكينة.

وخرجت من الحمام أمشي بطمأنينة وشكرت الناس مبتسما ورجعت إلى بيتي. وفي بيتي عاودني الشعور بالحب والطمأنينة.. كان الحب بسبب ما حدث اليوم بيني وبين الفتاة، وأما الطمأنينة فكانت بسبب قربي من الحمام.

***

أحياء رغم أنف الحياة

ترى من الذين يستحقون أن يطلق عليهم اسم الأحياء؟ أهم القادرون عليها بما يملكون من أدواتها؟ الأصحاء سمعا وبصرا وأعضاء؟ أم المتشبثون بها؟ المصرون عليها مهمى حيل بينهم وبينها بما فقدوا من أدواتها؟.

إن يكن أرقني هذا السؤال حينا من الدهر فلطالما أرقني عجزي عن الإجابة عنه، لأن الذين ينظرون إلى الحياة نظرة سطحية يسمون كل من فيها أحياء حتى وإن كانوا عالة على الحياة. ولعل الأصوب أن يقال إن الحياة ملك للمصرين عليها الذين يتحدون بشراسة كل معوق يعوقهم عن المضي فيها قدما.

وسوف أكتفي هنا بذكر حالتين إحداهما يتراوح فيها نبض الحياة قوة وضعفا، والأخرى تترقرق فيها الحياة بأكمل معانيها.

فأما الحالة الأولى فهي حالة شريف الذي تعرفت عليه أو قل عرفته حين كنت أعمل في قصر النور في إحدى إجازات المدرسة، أي حين التحقت بهذا المركز من مراكز المكفوفين لأعمل حرفيا أقوم بتصنيع الفرش التي تستخدم في المقاشات. كانت تلك بالنسبة لي فرصة رائعة أن أرى الحرفيين من المكفوفين وأن أقارنهم بالحرفيين المبصرين.

وسوف أحدثكم عن هذا الموضوع في مقال لاحق إن شاء الله، ولكن دعوني أتحدث إليكم الآن عن واحد من الذين لفتوا نظري في هذا المركز إنه شريف.

كان شريف أعمى، أصم، أبكم، ولم تكن له من وسيلة يدرك بها مفردات الحياة إلا يداه، ولم يكن الأستاذ صالح مدير الورشة يكلفه بأي عمل بل كان على هواه. إن شاء أن يعمل فله أن يقعد إلى منضدته الخاصة كما أن له وبنفس القدر أن يقيم من شاء عن منضدته ليعمل مكانه، ولما كان شريف لا يصلح أن يكون فردا عاديا فقد جعله أهل دنياه وأنا واحد منهم ملكا عليهم يأمرهم بما شاء وينهاهم عما شاء، فقد تفاجأ بشريف يتحسس جسمك برفق ثم يفتح يدك ويضع عليها يده وقد كببها على شكل كوب، ومعنى هذا أنه يريد منك أن تأتيه بكوب من الشاي على حسابك، أو يفتح إصبعيك ويضع بينهما إصبعه ومعنى هذا أنه يريد سيجارة، أو يفتح يدك ويضع فيها بضع أصابع ثم يطبقها مرة أخرى ومعناه أنه يريد منك بعض النقود.

وآخر ما يمكن أن يخطر على بال شريف أن يكون معك ثمن الشاي أم لا، أو أن تكون مدخنا أم لا، أو أن يكون معك نقود أم لا. هذه كلها أمور لا تخصه، اقترض، أو تسول، أو اسرق، أو فرط في عرضك أو ما بدا لك، المهم أن تأتيه بما يشتهي الآن، وقد تقول لنفسك وأنت تقرأ هذا المقال: وما علي؟ فليضرب رأسه بالحائط، وهي كلمة سهلة تستطيع أن تقولها ما دمت لست معنا في الورشة.

أما إن كنت معنا فسوف تعلم أن إعراضنا عنه وعدم تلبيتنا لطلبه معناه أن يتعطل العمل تماما، لأن شريفا سوف يطلق صيحات متتابعة لا تنتهي هي أشبه ما تكون بصفافير المطافي، كما سوف يتمرغ على الأرض في كل اتجاه، وسرعان ما يلتف حوله زملاؤه وتعم الورشة كلها حالة من الفوضى.

ولم يكن شريف يدقق في نوع أو عدد ما يطلبه، فهو لن يسألك أبدا عن نوع السيجارة التي تعطيها إياه، كما لن يستفسر عن عدد النقود التي تقدمها له، لا ولن يقف كثيرا أو قليلا أمام مستوى الشاي الذي تدعوه إليه، وقد يظهر كثيرا من التسامح حين يسمح لآخر أن يلبي له الطلب الذي طلبه منك. المهم أن يتحقق له طلبه بأية طريقة.

وعلى كل حال فهو بشكل أو بآخر معدود في العاملين المنتجين، ولم أكن للأسف الشديد أتقن اللغة التي يتواصل معه الناس من خلالها، كما لم أكن عميق الصلة به، ولو كان ذلك لسألته أسئلة كثيرة كانت تدور في رأسي كلما أحسست به.

كنت أتمنى أن أسأله عن علاقته بالنساء وكيف يدخل العشق إليه وهو ذاهب السمع والبصر؟ وما عسى أن يكون تصوره لعلاقة جنسية بينه وبين أخرى؟ وما مدى شعوره بالإحباط كلما عجز عن التعبير عما في نفسه؟ ولكنني تركت المركز وتركت الورشة وبقيت تؤرقني تلك الأسئلة التي ربما لم تخطر له على بال.

أما الحالة الثانية فهي ليست حالة بل هالة، ليست هالة من ضوء بل هالة من إرادة يتعلم منها كل من سمعوا عنها حتى وإن لم يتح لهم أن يروها، كانت هالة فتاة صحيحة السمع والبصر، قد تخرجت في إحدى الكليات وحصلت على مؤهل عال مثلها كمثل أية فتاة تحلم بالزوج والبيت والأطفال، إلا أن هذه الأحلام الحلوة كلها جعلت تذروها الرياح حين أصيبت بفيروس أفقدها السمع والبصر في خمسة عشر يوما.

وأصبحت هالة بين عشية وضحاها صماء عمياء، وكان هذا كافيا في أن يوردها موارد اليأس والإحباط، إلا أن إصرارها على الحياة بأتم معانيها قد جعلها هي ومن حولها يلتمسون لغة للتواصل فيما بينهم، وبعد محاولات يفترض فيها النقص تم التوصل إلى هذه اللغة، إنها ببساطة أن يقوم من يريد التعامل معها بالتنقيط على يدها كأنه يكتب كلمة أو جملة، على أن تقوم هي بتجميع الحروف في كلمات بسيطة ثم ضم هذه الكلمات في جمل بسيطة أيضا، ولما كانت صحيحة النطق فإنها ترد على الأسئلة الموجهة إليها أو تنفذ ما يطلب منها.

وكان على هالة أن تسير في خطين متوازيين: أحدهما أن تتعلم حرفة من تلك الحرف اليدوية التي يتعلمها من هم حديثو عهد بفقد البصر، والآخر أن تتعلم طريقة برايل ليسهل عليها مطالعة ما شاءت من الكتب والدوريات.

ولم تحتج هي إلى وقت طويل لكي تتقن الأمرين معا، وجعل المحيطون بها ينقطون بأصابعهم على يدها كأنهم يكتبون بطريقة برايل وهي تجمع من النقاط حروفا ومن الحروف كلمات ومن الكلمات جملا.

وارتقت هالة في المشغولات اليدوية حتى بلغت فيها منتهى المهارة ولك أن تعجب حين تعلم أن مدرسة النور والأمل تعطيها ١٥٠ جنيها في الشهر وذلك رغم أن المصنوعات التي تعملها هالة من القش كالأواني وما جرى مجراها تباع بأغلى ثمن لأنها إلى جانب كونها سلعة تشتمل على معنى التبرع كأن الذين يشترونها يعدون أنفسهم متبرعين إلى جانب كونهم مشترين،

فالمدرسة تبيع منتجات هؤلاء البنات بأغلى ثمن وتعطيهن عنها أبخس الأسعار!!!!.

وبفضل الله ثم بجهود صديقنا الدكتور أحمد عبد الظاهر تم إقناع بعض رجال الأعمال بأن يشتروا لهالة جهازا يقوم بتحويل كل ما على الشاشة إلى كتابة بطريقة برايل فإن كنت تحدثها على skypeمثلا فإن كل ما تكتبه لها يتحول إلى كتابة برايل، فإذا وصل إليها قرأته ثم أجابتك بالنطق، ولم تقنع هالة بتفوقها في الثقافة والصناعة بل ذهبت إلى أبعد من ذلك فأتقنت الأعمال المنزلية، وكم سعدت حين أخبرني أحمد أنها قد صنعت له المحشي بيدها بعد أن أعجبها تدريسه لها.

أجل أيها القراء، هذه هي الحياة ومراياها هم أولئك العاجزون في الظاهر القادرون في الباطن من كان له أذنان للسمع فليسمع.

***

أديبة رائعة وصالون رائع

كان من الأيام المشهودة في حياتي ذلك اليوم الذي دعاني فيه صديقي الشاعر سمير فراج لحضور صالون الأديبة المشهورة حياة أبو النصر، وذلك لأنه كان قد حدثني عنه من قبل، وذكر أهمية هذا الصالون المستمدة من أهمية الذين يحضرونه.

وفي اليوم الموعود ارتديت أفخم ملابسي، وتوجهت مع سمير في الثامنة مساء إلى الصالون، وذلك لأنه كان يبدأ في الثامنة، وينتهي في حوالي الرابعة صباحا.

كانت السيدة حياة أبو النصر تقيم صالونها في بيتها مرة كل شهر، وكان بيتها بيتا فخما بكل معنى الكلمة، أما صاحبته فلم تكن أقل من بيتها فخامة، فقد كانت جميلة من عدة جهات، كانت جميلة بوجهها الجميل الذي لا يكف عن الابتسامات لمن عرف ومن لم يعرف، وكانت جميلة بخلقها الجميل الذي كانت تلقى به أصاغر الأدباء كما كانت تلقى أكابرهم، كما كانت جميلة بما كانت تتيحه لرواد صالونها من وسائل الرفاهية التي تشتمل على أطيب الحلوى والمعجنات وجميع أنواع الأشربة الساخنة والبارد التي أحلها الله.

وكانت نفسها الكريمة تأبى عليها أن تذكر لأحد أنها لا تعرفه، أو أنها قد نسيته، فمن طرائف ما وقع لنا معها في هذا الموضوع أنني اصطحبت معي ويكة ذات مرة، ونبهته إلى أن يخبرها أنه من قدامى مرتادي الصالون، وأن يقول ذلك بمنتهى الثقة، ففعل ما أشرت عليه به، فما هو إلا أن وقعت عيناه في عينيها حتى سألته من أنت؟ فقال لها بثقة :أنتي مش فاكراني يا ست الكل؟ أنا صابر، فقالت بمنتهى البشاشة والتهلل :يا سلام صابر!!! أنت فين يا راجل من سنين طويلة؟ والله ليك وحشة.

وكان أعداؤها يعدون ذلك تملقا منها ونفاقا، أما نحن محبيها فكنا نعدها أريحية وكرم نفس.

ورغم شهرتها في ذلك الوقت فإنها لم تكن تتردد في أن تجيب أية دعوة توجه إليها من أية جهة ثقافية، ومما أذكره أن أحد أبناء أخواتي -وكان يومئذ طالبا في الجامعة العمالية- طلب مني أن أرشح له شخصية مشهورة تقيم لهم ندوة، واقترحت عليه الأديبة حياة أبو النصر التي وافقت بلا تردد، فلما وصلت إلى مقر الندوة، فوجأت بعاصفة من التصفيق استمرت حوالي خمس دقائق، غير أنها سرعان ما أصيبت بإحباط حين علمت أن الطلاب إنما صفقوا لها كل هذا التصفيق لأنهم ظنوها الوزيرة آمال عثمان، وأنها جاأت لحل مشاكلهم!!!.

ورغم أن صالونها كان يرتاده عشرات وعشرات من شتى ألوان المثقفين والفنانين والسياسيين والصحافيين، أقول رغم هذا فإنها كانت قادرة على أن تشعر كلا منهم أنه في بيته وأنه في البيت وحده، فكان لكل واحد بمقتضى هذا الشعور أن يطلب ما شاء من الجرسونات القائمين على خدمة الصالون ورواده والذين كانت السيدة حياة تستأجرهم من أرقى الفنادق. وكانت ضريبة هذا بالطبع أنها لم تكن تعدم وجود أدباء مستهترين يطفؤون سجائرهم على سجاجيدها الفخمة، أو فوق مفارشها الأنيقة.

كان الصالون ينقسم إلى قسمين أساسيين، فالقسم الأول منه عبارة عن مناقشة قضية عامة، أو احتفال بعلم من أعلام الثقافة في مصر أو في العالم العربي، أو استضافة شخصية مهمة يجري الحوار معها حول تخصصها، بعد أن تقوم تلك الشخصية بإلقاء محاضرة مصغرة في مجالها.

أما القسم الثاني فقد كان عبارة عن فقرات فنية تتكون من شعر، وموسيقى، وغناء، وكان النظام المعمول به في هذا القسم من الصالون أن يقول شاعر أو

شاعرة ثم يقوم بعده مطرب، أو مطربة، أو عازف، أو عازفة، لهذا كان شعارنا نحن الأدباء الشبان في ذلك الوقت إن شئت فقل وإن لم تشأ فكل.

وكانت السيدة حياة لا تقول قصيدة كاملة من شعرها في فقرة مستقلة، لكنها كانت تقدم كل صاحب أو صاحبة فقرة بما تيسر من شعرها، فتكون النتيجة في آخر الصالون أنها هي أكثر من ألقى شعرا.

كانت المرة الأولى التي زرت فيها ذلك الصالون بداية سلسلة طويلة من الزيارات، لهذا تعرفت فيه إلى كثيرين من الشعراء، والروائيين، وأساتذة الموسيقى، والسياسيين من سفراء ووزراء، ومطربين ومطربات، وممثلين كبار لم أكن أحلم أن أراهم.

كان من بين الذين لقيتهم من السياسيين الدكتور زكريا عزمي والوزير وليم نجيب سيفين، أما السفراء من مصر والعالم العربي فحدث عنهم ولا حرج.

وأما الفنانون فقد لقيت من بينهم المرحوم محمود مرسي، وسعد أردش، وصلاح ذو الفقار، وجلال الشرقاوي، وغيرهم ممن لا يتسع المجال لذكرهم.

وكان من أهم من لقيت من الأدباء المرحوم طاهر أبو فاشا، والشاعر الأردني علي هاشم رشيد، والزجال الرائع عبد الحميد عبد العظيم، وسواهم ممن يضيق المجال عن حصرهم.

أما المطربون والمطربات فأذكر منهم شفيق جلال، وأحمد سامي، وحورية حسن، وزينب يونس، والمطربة القديمة جدا لور دكاش تلك التي كنت أسمع غناءها في برنامج ألحان زمان الذي كان يكتبه لإذاعة البرنامج العام المؤرخ الموسيقي المرحوم محمود كامل، وكانت تقدمه هالة الحديدي.

كان من نتائج زياراتي المتكررة لصالون الأدبية حياة ذكريات كثيرة ذهب قدم العهد ببعضها وبقي في رأسي بعض، فمما أذكره أن السيدة لور دكاش كانت تصر على أن تغني مع أنها كانت في ذلك الوقت فوق الثمانين، وكانت مواقف المستمعين تتراوح بين المجاملة الباعثة على التصفيق والضحك المستتر.

وكان بعض الخبثاء من الأدباء ينتهزون الفرصة ليعبروا عن استهجانهم لغنائها، فذات ليلة تغنت بقول علي محمود طه: ذكريني فقد نسيت ويا رب ذكرى تعيد لي طربي... وارفعي وجهك الجميل أرى كيف هذا الحياء لم يذب، ونصبت كلمة النيل فالتقطها الدكتور يسري العزب فقال لها: إيوة النيلة يا ست النيلة قولي كمان!!!.

وكان الشاعر إبراهيم عيسى شديد الحساسية فيما يخص شعره، فإن أنت سعلت مثلا أثناء إلقائه لقصيدة، ظنك متآمرا عليه تريد أن تفسد عليه جمهوره!!!، وكانت لور دكاش قد طلبت منه قصيدة لتغنيها، وكان من بين جمل القصيدة جملة تقول وأشرقت بين الحروف، فغنتها هي هكذا: وأشرقت بين الحروق، فقامت قيامة الرجل، وظن أن مستقبله الأدبي قد ضاع بسبب هذا التحريف، فما كان منا إلا أن قضينا بقية الصالون نعتذر إليه، ونقسم له أن البائسة المسكينة لا تقصد.

وكان للسيدة حياة كلب يعد بحق بطلا من أبطال الصالون، فقد كان يعن له بلا مبرر معروف أن يخرج على رواد الصالون بفاصل طويل أو قصير من الهوهوة، هنالك كان يجب على الشاعر أو العازف أو المغني أو المتحدث أن يتوقف حتى يفرغ السيد الكلب من هوهوته.

وكنا نتندر بهذه القصة قائلين إن كثيرا من أدباء مصر يحلمون أن يعيشوا كما يعيش هذا الكلب، لهذا فليس من المبالغة في شيء أن أقول لكم إن كثيرا من

الأدباء الذين كانوا يحضرون الصالون كانوا يكنون أحقادا دفينة عليه، ومما قلته في هذا الكلب" يالي كلبك رومي نِنا يالي كلبك رومي هوه، عندي
ناس لو شافو كلبك يمضغوكي ويمضغوه، علَّقي التسجيل في وسطه، علميه يرقص توسته، واللي باع عمره لأرسطو، فقره طلَّع دين أبوه".

ومن أطرف ما وقع لنا مع هذا الكلب، أن ذهبت أنا وسمير لزيارتها بعد انعقاد الصالون ببضعة أيام، فلما هممنا بالنزول خرجت تشيعنا وكان من الطبيعي أن تنزل معنا درجتين أو ثلاثا من درجات السلم، فلما تبعها الكلب ونزل معها ابتسم له سمير وقال: أنت رايح فين؟ بشرفي مستقبلك هنا أضمن، ولما نزلنا الشارع سألني سمير وهو يضحك ترى ماذا يفعل أبي إن أنا دخلت عليه بكلب كهذا؟ فقلت له وقد زلزلني الضحك إن اختار الأنظف منكما فسوف يدخله ويطردك!!!.

ومن طرائف المطربين التي أذكرها في هذا الصالون أن الفنان أحمد سامي قال ذات ليلة:عبد الحليم حافظ كان واقف وراي من ضمن الكورس، فقال له قائل على البديهة فلما رفع صوته أسكتوك إلى الأبد!، أما الفنان شفيق جلال فقد أخروه حتى قلق فلما هموا بتقديمه قالت (يا جماعة الأستاذ شفيق هايقول على روحه) فنهض قائما ثم قال بطريقته الشفيقية الجلالية (الأستاذ شفيق هايقول على روحه. أنا باغني بقا لي خمسين سنة، ما غنتش للحب، غنيت للوفا) ثم بكى وغنى موالا قصيرا وشرع في الخروج، وعبثا حاول الجميع إعادته فلم يفلحوا.

ولم أعرف مطربة ولا مطربا أسرع بديهة من الفنانة زينب يونس، ذلك أنها غنت شعرا لعمر بن الفارض فأحسنت فيه غاية الإحسان، فلما فرغت من غنائها نبهتها إلى خطأ نحوي وقعت فيه، فقالت بسرعة: يا صلاح أما سمعت

قول القائل ما على المطرب من معرب؟ فاعتذرت إليها وأبديت إعجابي بثقافتها فضلا عن غنائها.

أما الفنانة حورية حسن فقد أقسموا عليها بكل يمين مغلظة أن تغني، فأبت عليهم ذلك، كأنها أرادت أن تقول للور دكاش وأمثالها إن الناس مواسم مثل الفاكهة والخضراوات، فنالت من احترام الحاضرين ما لم ينله مغن أو مغنية.

وكنت قد قرأت قليلا للكاتبة الإسلامية صافيناز كاظم فلما رأيتها في الصالون وجدتها أسمج خلق الله طبعا، وأثقلهم ظلا، وأشدهم اعتدادا بنفسها في حق وباطل، واتفق أنها قالت بعض ما لا أوافق عليه، إذ راحت تنكر بوقاحة لا تتناسب مع توقير العلم أن سكينة بنت الحسين كانت تسمع الغناء وكانت تقابل الشعراء، ضاربة بكتب التاريخ والأدب عرض الحائط، فقمت معلقا فقلت: تقول السيدة صافيناز، فقاطعتني قائلة أستاذة لو سمحت، فتبسمت ضاحكا من قولها، وقلت لها :مهلا يا سيدتي، إن كنت تقصدين بقاء التكليف بيننا فالتكليف باق بأي كلمة أضعها قبل اسمك، وإن كنت تقصدين أن أعترف لك بمنزلة علمية فإنني لا أعترف لك بأية قيمة علمية، وإن كنت تتهربين من شبح الأنوثة الكامن في كلمة مدام أو سيدة فإن تاء التأنيث موجودة في كلمة أستاذة.

فما كان منها إلا أن انهارت ولم يستعدها الحاضرون إلا بشق الأنفس، ومن عجب أنني حين حدثت عمارا الشريعي بهذا الحديث قال لي أقسم لك أنها اتصلت بي وأثنت منتهى الثناء على برنامج غواص ثم طلبت مني خدمة فلما لم أقم بها كتبت ضد البرنامج بمنتهى العنف، متهمة إياه بالتفاهة والسطحية، فيا ليتني كنت سجلت لها ما قالته لي في التلفون!!!.

وانقسمنا ذات ليلة حول الشاعر نزار قباني، فكنت أنا وعشاقه ندافع عنه، وكان فريق آخر يهاجمونه بعنف، وكان من بين المهاجمين الفنان الفاشل نبيل الهجرسي الذي كتب قصيدة في هجاء نزار، فلما نبهناه إلى ما في قصيدته من اختلال لغوي ومعنوي، قال -بنرجسية لا نظير لها- :يكفيني إن كل الستات معاي، فقال له أحد الحاضرين :دا بسبب وحدة النوع!!!.

وأراد أحد مهاجمي نزار أن يثبت أنه مخنث، فأوقعه لسانه في الشرك، حين قال بحماس: يا جماعة دا راجل مخنث، أنا شفت له صورة وهو نايم على بطنه كأنه حياة أبو النصر! وخيم على الجميع سكوت مروع.

فما شق الصمت إلا صوت السيدة حياة نفسها وهي تقول له بمنتهى الاستنكار: إمتا يا أستاذ شفتني نايمة على بطني! ثم جعلت تستعرض سيرتها الذاتية وكيف أن أبحاثها تدرس في الجامعات، فما أنقذه من هذا الحرج إلا خروجه العاجل وهو كاسف البال مطأطأ الرأس.

ولم تكن نوادر الشعراء تقل غرابة عن نوادر المطربين، فمن الشعراء الذين أذكرهم الشاعرة أ.ه.ع تلك التي كانت زوجة لمسؤول كبير، غير أنها تعلقت بشاعر صعلوك، فما كان منها إلا أن طلقت من زوجها الأول وتزوجت الثاني فأقامت في بدروم بعد أن حرمت من أولادها، ورغم ما كانت تعانيه من الشدائد فإنها لم تنشغل عن الرسم على أظافرها، فما كان من أحدهم إلا أن قال لها: يبدو أنك قررت الانتقال من الشعر إلى الفن التشكيلي!!!.

وقدم علينا ذات ليلة شاعر عجوز، قد كتب قصيدة عن الرئيس السادات، وكان قد كتب قصيدته على ورقة طويلة، قد لفها على بكرة، فأخذ ينشرها ويقرأ، فلم يطق الحاضرون السكوت، فأخذوا يتهامسون، ثم بدأت تعلو

أصواتهم، وزعمت أنني أريد دخول الحمام، لأضحك كما أشتهي، ففوجئت بالسيدة حياة قد قتلها الضحك، وإذا هي قد وقفت بعيدا لنفس السبب.

كان الصالون عيدا شهريا لنا جميعا، وكان ربما دفعنا شعورنا بالسرور إلى أن نمشي من السبع عمارات في مصر الجديدة حيث تسكن السيدة حياة إلى شارع مصر والسودان في حدائق القبة ونحن نضحك ونتذاكر ما حدث في الصالون.

نعم هذا هو صالون الأديبة حياة أبو النصر، كان رواده لا يحصون عددا، لهذا كانت التلفونات لا تنقطع عن الرنين في بيتها، كما كانت ملء السمع والبصر أينما حلت، ولن أستطيع أن أحصي لكم معشار ما كانت تسمعه من كلمات الثناء، فلما أصابتها الحادثة المروعة، وأصيبت بارتجاج في المخ، وتكسر معظم جسمها، وأمسكت عن عقد صالونها، لم يعد يتصل بها أحد، فضلا عمن تتصل هي بهم فلا يردون.

يا إلهي، لقد أنجاها الله من موت محقق، ولكن مجتمع الأدباء والمثقفين المتحضرين الذين يلهجون بذكر القيم العليا صباح مساء قضى عليها بموت من نوع آخر، إلى حد أنها كانت تعد ردها على المتصل قديما جميلا تسديه إلى المتصل فأصبحت اليوم تعد اتصال المتصل جميلا يسدى إليها فسبحان من له الدوام.



إلا هذا

حين يعصف بك الاحتياج تطلب ما تحتاج إليه في كل ما حولك، حتى وإن لم يكن له فيما حولك وجود. تطلب الحياة فيما هو مميت، وتطلب الطعام اللذيذ في الصحراء، وتطلب الماء حتى في جوف الصخرة الصماء، هذه هي طبيعة الاحتياج، يسلمك إلى الوهم بعد الحرمان، وإلى الحرمان بعد الوهم.

أقول لك هذا وأنا أذكر ما وقع لي ذات صباح حين كنت ماضيا إلى عملي، وحين أشرت بالعصى إلى المكروباص واستوقفته، وقام أحد الركاب بفتح بابه لي، امتدت يد رقيقة، فأخذت بيدي، وأقعدتني.

واستطاعت هذه اليد الرقيقة في لحظات معدودات أن تجب ما قبلها من مشاعر، وأفكار، وكلام، كان يدور بيني وبين نفسي قبل أن أركب.

ولست أدري كيف استسلمت لهذا الخدر اللذيذ حين تخيلت أن وراء هذه اليد الرقيقة قلبا رقيقا لم أعاشره، وصوتا رقيقا لم أسمعه، إلا أنهما استطاعا أن يسكبا في أعماقي حلما حلوا لم أستطع أن أدفعه عن نفسي.

توشك المسافة أن تنتهي، وأوشك أنا أن أنزل، وما يدريني لعلها تنزل معي، وتأخذ يدي بيدها الرقيقة، وتسألني عن وجهتي، وتقودني إلى حيث أريد، وتسألني عن اسمي، وعن عملي، وأعرف اسمها وعملها، ونحدد موعدا للقاء آخر، وتتحول هذه المشاعر الملساء إلى حب عميق، وما يدريني لعل هذا الحب يكون هو الطريق إلى البيت الذي أحلم به منذ سنوات بعيدة.

ترسخ الحلم في داخلي حتى ملأ علي نفسي، فجعلت ألتفت بين حين وحين لأبتسم ابتسامة عذبة، وما أدري كيف تخرج الابتسامة العذبة من بين أسناني الصفراء!! أجل كنت أتقي برودة الشتاء الصباحية بحرارة الإحساس الجديد

الذي تمكن مني. وصدقني حين أقول لك إنني كنت أتمنى أن أدفع للسائق ألف أجرة لتمس يدي تلك اليد الملساء.

وكأني بك أيها القارئ تستنكر علي ما كنت فيه قائلا أهذا هو الذي يكتب في الأديان والفلسفة؟ أيكون على هذا القدر من السطحية والتسرع!!!!

ولكن مهلا، فلو أنك عشت كما عشت أنا لعلمت أن الكتب لا تؤنس المستوحشين.

أجل استغرقتني هذه الأحاسيس، ولم أفق منها إلا على الجسم الذي بجواري يخرج منه صوت رجالي خشن يقول عندك هنا يا اسطا، أنا نازل هنا، وإذا هو رجل بأتم معاني الرجولة، إلا أن يده ملساء.

وحين وضع يده على كتفي وهو نازل تملكني خزي لا أستطيع أن أصفه لك، فلم أدر ماذا أقول هل أقول بارك الله في العمى الذي لولاه ما تسلل إلي هذا الحلم الحلو؟ أو أقول لعن الله العمى الذي لولاه ما وقعت في هذه الخديعة الكبرى!!!



وقعة سودا

كان صديقنا الأستاذ س.ف صحافيا موهوبا بمعنى الكلمة، وكانت موهبته تتجلى في أمرين كبيرين: أحدهما قدرته الفذة على تحويل موضوعات الشارع العادية إلى موضوعات صحافية، والآخر أنه يكتب هذه الموضوعات بلغة شعرية راقية تسلك بها مسلكا وسطا بين الصحافة والأدب.

ولكنه كانت تعترضه أيضا عقبتان كبيرتان، إحداهما احتياجه إلى سيارة تسهل عليه التنقل بين مصادره التي قد تتوزع من أقصى القاهرة إلى أقصاها، والأخرى احتياجه إلى تلفون يستطيع من خلاله أن يحدد مواعيده مع مصادره كما يمكنه من إجراء تحقيقاته الصحافية دون أن يتحرك من بيته، وذلك لأن صاحبنا كان مشط العقل كسول الجسم.

لهذا كانت فرحته غامرة حين أخبره السنترال القريب من بيته أن الدور قد أصابه وأنهم سوف يقومون بتركيب التلفون في بيته خلال يومين أو ثلاثة على الأكثر.

وحين تم تركيب التلفون ودبت فيه الحرارة لم يدخر الأستاذ س.ف وسعا في أن يتصل بنا ليعطينا رقمه ويستحثنا على الاتصال به في أي وقت، وبقي صاحبنا فرحا بالتلفون فرحة الأم اللهفى بأن تجد ابنها المفقود بضعة أسابيع.

ثم لم يلبث أن أصابته مشكلة كانت مصدر متعته أولا وفزعه آخرا، لم تكن المشكلة هي انقطاع الحرارة، أو فسادا في العدة، أو خروشة في الأسلاك، أو ارتفاعا في الفاتورة، بل كانت مشكلة من نوع غريب نادر، نوع يتمناه كل عزب يطول عليه الليل وتحرقه الوحدة.

كانت المشكلة أن خطه ملامس لخط امرأة منحلة على المستويين الإجرائي والتلفوني، فإن هي بقيت في بيتها فالتلفونات لا تنقطع ليل نهار، وإن خرجت إلى الشارع فلعمل مناورات بالذخيرة الحية.

وكانت لا ترد اتصال متصل، فيمكنك أن تتصل بها الآن باسم أحمد، وبعد ثلاث ساعات باسم أكرم، وفي المساء باسم عطية، وفي السهرة باسم سعيد، وكان من عجائبها أنها كانت تتلقى جميع الأسماء وجميع الأصوات بنفس الشوق والحرارة مؤكدة لكل متصل أنها تحبه وحده وأنها من أجله هو تقوم بهذه التضحية وأنه أول رجل في حياتها، وذلك لأنها من كرمها البالغ لم تكن تحفظ أية أرقام أو تدقق في أية أصوات كما كانت الأسماء لديها متساوية فالمهم أن يكون على السماعة الأخرى رجل. أي رجل.

والسعيد الموعود حقا هو من يجد تلفونها غير مشغول، لأن التلفون إما في يدها، أو في يد ابنتها الشابة، أو في يد ابنتها الصغرى.

فقد نسيت أن أخبركم أن السيدة الفاضلة ربة أسرة تتكون من أولاد وبنات وزوج يبدو من صوته أنه ضخم الجثة، وكان من لطائفها أنك إن سألتها عن أصوات المحيطين بها أخبرتك أنهم أولاد زوجها أما هي فصغيرة السن اضطرت إلى الزواج من هذا الرجل لظروف قاسية ذاهلة عن سنها الذي يكشف عنه صوتها العجالي، ولم يكن لديها وقت لتأنيب الضمير، فقد كانت المكالمات المتتابعة لا تنقضي إلا عند النوم وربما أثناءه أيضا، ولن أنسى تلك المكالمة الغريبة التي تمت بينها وبين أحد أصدقائها إذ قال لها في آخر المكالمة بعد أن قضى وطرا ألا تتوبين عن هذا الفسق؟ فلا والله ما اهتزت لها شعرة بل

صاحت عليه صيحة تجمد الدم في عروق الشجعان آمرة إياه ألا يتصل بها مرة أخرى بعد أن حدثته عن زوجها الذي ينام تاركا إياها لليل وحاجات النساء.

بدأت المسألة بالنسبة لصاحبنا ممتعة في أول الأمر، وذلك أن كسله الذي أشرت إليه أولا كان يملي عليه القعود في بيته ما لم تكن هناك ضرورة، وبالصدفة البحتة اكتشف صاحبنا هذه القصة حين رفع سماعته ذات ليلة ليجري اتصالا ففوجئ بصوت نسائي يمارس الجنس بمنتهى الحرارة وكأن تلفونه المعجزة ينطوي على نوعين من الحرارة كما ينطوي على نوعين من الاتصال، بدأت اللعبة بالنسبة لصاحبنا لطيفة مسلية جدا جدا، فقد أتيح له ان يتابع عن كثب أسرة بأسرها وأن يقف على أخبارهم نهارا وخطاياهم ليلا وأخذ يسمعهم حينا من الدهر ثم لم يلبث أن انتقل من مرحلة السماع إلى مرحلة التسجيل.

واستطاع أن يجد رقم هذه الأسرة بمنتهى السهولة وأن يوزعه علينا بمنتهى الكرم بعد أن أخبرنا بقصتهم كاملة، كانت حياة هذه الأسرة بالفعل فلما متصلا مفعما بالإغراءات، والشكوك، والأكاذيب، والابتزاز أحيانا، فإلى جانب نشاط الأم كان هناك نشاط البنت الكبرى، وكانت هذه الفتاة أقل كرما وأشد ذكاء من أمها فلم تكن تستسلم لكل أحد بل كانت تسأله عن بياناته كاملة ولم تكن تثق به إلا بعد مرور فترة من الزمن.

ورغم أنها كانت مخطوبة فإنها كانت كثيرة العشاق بأدق معاني العشق، ومن المضحك أنها قبيل زواجها احتاجت إلى بعض المال لاستكمال جهازها، فما كان منها إلا أن لجأت إلى حيلة لا يقدم عليها إلا متمكن ولا ينخدع بها إلا

مغفل.. إذ أخذت تتصل بعشاقها واحدا بعد واحد لتجري معه هذا الحوار (على فكرة يا بيبي بعد إلي حصل بيننا بكام يوم حسيت بدوخة ورحت للدكتور فقال إني حامل وأنت عارف إني أنا مخطوبة وما ترضاليش الفضيحة ولما سألت الدكتور على الإجهاض قال إن عملية الإجهاض هاتتكلف خمس آلاف جنيه كفاية تدفع أنت ألفين وأنا هاتصرف في الباقي).

ولم يجرؤ واحد من عشاقها أن ينكر، إنما اختلفوا في طريقة الدفع وزمنه، فمنهم من دفع فورا، ومنهم من استمهلها ريثما يجمع المبلغ المطلوب، ومنهم من أخذ يفاصلها في المبلغ ويطلب تخفيضه ولو قليلا، ومنهم من طلب أن يسدد المبلغ المطلوب على دفعات لا مرة واحدة، فما مر إلا أسبوع أو أكثر قليلا حتى كانت الشيطانة قد جمعت حوالي كيلو فلوس.

بل لم تكن الصغرى التي لم تتجاوز المرحلة الإعدادية تخلو هي الأخرى من عشاق، فقد كان عشاقها من المرحلتين الإعدادية والثانوية يتصلون بها فتتفنن في وصف مفاتنها لهم كما تتأوه لهم على قدر ما يحتمل سنها ويستطيع أن يؤدي صوتها وكل فولة ولها كيال وكانت دائما تختم مكالماتها بهذا السؤال الذي أوله سذاجة الطفولة وآخره بذور النفعية (قل لي يا توتي: لما نخرج مع بعض هاجيب لي شندوتشات وكاكولا؟).

نعم كانت حياة هذه الأسرة فيلما متصلا تملؤه الشكوك، والغيرة، والخوف، والترقب، والإغراء، والابتزاز، والأكاذيب من كل لون، فلمَا نتابعه بأنفسنا أو بوساطة صاحبنا، وكان بعضنا يكمل للبعض التفاصيل التي فاتته أو يقص عليه ما جد من أحداث وليس في رؤوسنا إلا اللعب.

ولكن هذه اللعبة المسلية سرعان ما بدأت تتكشف عن وجهها القبيح، فلو كان هو وحده الذي يستعمل التلفون لهان الأمر، ولكن له زوجة متدينة تقيم معه في البيت، ولهذه الزوجة أسرة يسألون عنها وتسأل عنهم، كما أن له هو الآخر أسرة يسألون عنه، ولها صديقات، وله أصدقاء، ومن وراء هذا وذاك هناك عمله الذي يفترض أن يتم من خلال التلفون، وأصبحت المشكلة ذات شقين: فهو من ناحية لا يريد أحدا من ذويه أن يسمع ما يجري على الخط الساخن، وهو من ناحية أخرى لا يريد أهل الخط الساخن أن يطلعوا على مشكلاته ومشكلات أسرته التي تتم مناقشتها خلال التلفون.

ليس هذا فحسب بل إنه لم يكن يريد لأحد من مصادره الذين يحاورهم على التلفون أن يطلعوا على هذه المهزلة، ورغم أنه لم يدع وسيلة من وسائل التأمين إلا احتمى بها فإنه لم يسلم من هذه المهزلة.

فمن أطرف المواقف التي وقعت له في هذا الصدد أنه كان ذات مرة يحاور عضوا من أعضاء مجمع اللغة العربية ووجه إليه صاحبنا هذا السؤال: ما طبيعة الأزمة التي تواجهها اللغة العربية المعاصرة؟ وأتته الإجابة بالفعل، ولكنها لم تأته من ناحية مصدره الذي يحاوره بل من ناحية الخط الساخن، والإجابة باختصار هي (آه آه آه مش قادرة أنا سخنة قوي يا عصام) عرق صاحبنا عرق الخزي وحاول أن يرفع صوته ليشوش على هذا الصوت الملتهب فرفعت هي أيضا صوتها لتؤكد لصديقها أنها معه، وأخذ المصدر يسأل بدهشة فيه حاجة يا أستاذ س؟ فيجيب الأستاذ س بخزي منقطع النظير ولا حاجة يظهر دا تداخل خطوط، ولكن المرأة تعود إلى التعليق

بصوت لا يمكن التشويش عليه (سيبك منهم يا عصام خليك معاي أنا دي ناس سخنة بيريحوا نفسهم على حسابنا ها ها ها).

وأخيرا يضطر صاحبنا إلى افتعال مشكلة في التلفون لإنهاء المكالمة بهذا القدر من الخسائر، نعم لقد تحول الفيلم السينمائي الممتع إلى كابوس يؤرق على صاحبنا مضجعه، فأصبح لا يعطي رقمه لأي شخص جديد، كما اشترى أنسر ماشين ليتلقى المكالمات ناهيا زوجته المتدينة عن أن تقترب من التلفون لا طالبة ولا رادة، وعبثا جدد شكواه للسنترال وعبثا وعده السنترال بحل المشكلة. وأصبح مضطرا لأن يجري مكالماته المهمة من بيت أبيه حرصا على عمله وسمعته بين مصادره.

ولم يحسم هذه المشكلة إلا خاصية إظهار الرقم التي بدأ العمل بها في أوائل التسعينيات فأنحسر السيل الجارف من المكالمات بفعل الخوف، خصوصا أن زوجها كان يتصل بكل رقم يجده على تلفونه وهو لا يعرفه، ولم يتم الإجهاز على المشكلة تماما إلا حين قامت التلفونات بتغيير بعض الكبلات فكان من حسن طالع صاحبنا أن كبله الملامس قد تم تغييره فيما تغير، يا إلهي ما أصدق من قال الأم مدرسة.



الحلاق الفيلسوف

كان رشدي الحلاق شخصية غريبة بمعنى الكلمة، فرغم أنه لم يحصل إلا على الابتدائية، ورغم أنه ليس لديه وقت لقراءة الكتب فإنه كان صاحب عقل ثاقب. كان يجمع بين خفة الظل، وحدة الذهن، وسرعة البديهة، وصدق الفراسة، والمهارة الفائقة في صنعته.

كم تعجبت منه حين أخذ يحدثني عن أن البعث يكون للأرواح لا للأجسام، ولم يكن سر عجبي أنني مؤمن بهذا، فأنا والحمد لله مسلم، بل كان سر عجبي أنه قد عرض هذه الفكرة بطريقة تشبه إلى حد بعيد طريقة ابن سينا، أو الرازي، مع أنه لم يسمع بهما.

وكان فيه لطف عشرة قد مكن له في قلوب المحيطين به جميعا، فكان ينال بالرفق ما لا يناله غيره بالقوة. وكانت أحب الألعاب إليه هي الألعاب الذهنية التي تحتاج إلى مزيد من التفكير، ويتبين بها التفاوت في مستويات العقول.

ومن نوادره الطريفة أنه قال يوم لجلسائه تعالوا نلعب لعبة لطيفة، فليقل كل منا أخطر عيب من عيوبه، فأخذ أصحابه يذكرون عيوبهم عيبا عيبا، فلما انتهى الدور إليه قال: أخطر عيب من عيوبي أنني لا أحب أن أقول عيوبي!!!.

ومن هذه النوادر أنه سهر معنا يوما رجل مغفل وكانوا يتكلمون عن قدر الله التي لا حدود لها، فقال رشدي لهذا المغفل (سبحان الله أنا هاحكي لك حكاية هاتستغرب منها.. من كام سنة القطر داس على واحد وفصل رقبته عن جسمه فأخينا من حلاوة الروح مسك الرقبة وقعد يبوس فيها!!) فقال المغفل سبحان الله قادر على كل شيء!!!.

وكان يكن حساسية شديدة للغة تجعله يدقق في الألفاظ المستعملة حتى ولو على سبيل المزاح، قالت له أخته يوم عيد ميلادها (كل الناس جابوا لي هدايا مش ناقص إلا أنت) فقال لها (يا بت عيب ما تقوليش ناقص أنت لأن ناقص من النقص ولكن قولي فاضل أنت لأن فاضل من الفضل).

وسألته يوما من أين لك هذه الآراء في الناس والحياة على نحو تتخلله الدقة من حين إلى حين؟ فقال لي من أول الفلاسفة؟ فقلت له طاليس فقال من أين جاء بآرائه؟ فقلت له من تأملاته فقال اعتبرني مثله.

وكانت له فراسة يحسد عليها، فلم أزل أذكر أننا ذهبنا لزيارة صديق لنا معه شهادة معاملة أطفال، ومع ذلك فهو عبقري في الشترنج، وكان يسكن في فلة أنيقة، ولاحظ رشدي أنني شارد الذهن، لا أكاد أتكلم، فقال لي: هذه أرزاق، فلا تتعب نفسك في التفكير فيها.

فقلت له عن أي شئ تتحدث؟ فقال ألست تقول في نفسك الآن سبحان الله، أنا بعد كل هذه العلوم والمعارف أسكن في حجرة ضيقة، وهذا المتخلف يسكن هنا؟ فأخذت أضرب كفا بكف، لأن هذا هو فعلا ما كنت أفكر فيه.

وكانت بيني وبينه نوادر طريفة، تدل على سرعة البديهة مني ومنه، ومنها أنه قبض عليه، فطال حبسه، فاضطررت إلى الحلاقة عند آخر، فلما خرج قال لي (ماشي ماشي يعني حلقت في محل تاني) فقلت له على الفور (أبدا وحياتك دا أنا من حزني عليك شعري ما طلعش). وزرنا يوما صديقنا صاحب الفلة المتخلف فقال له رشدي (يا جلال أنا عايزك تجيب لي اسم مكون من أربعة حروف إن حذفنا منه الحرف الأول يكون الباقي لال) وأخذ جلال يفكر ويفكر حوالي ساعة ورشدي يسأله من حين إلى حين وصلت ليها يا جلال؟

فيقول جلال صعبة قوي وبعد أكثر من ساعة توصل جلال إلى الاسم المطلوب فقال بفرح عرفتها دلال!! فقال له رشدي عايزين اسم رجالي.
واحتاج جلال إلى مزيد من التفكير ثم قال فرحا هلال!! وجاءنا بجميع الأسماء المكونة من أربعة حروف وآخرها لال إلا اسمه هو.
وذات يوم سولت له نفسه الآثمة أن يختبر الناس اختبارا غريبا، فقال أمام الناس: لقد سمعت في إذاعة لندن عن نبي جديد ظهر في إيران، يقول :إن الله قد أبطل النوم، والشيخوخة، والموت، وإن نبوءته سوف تتحقق بدءً من العام الهجري القادم، وإن لم تتحقق فاقتلوني.
فسأله الناس ماذا عن الجنة والنار والحساب؟ فقال لهم بسرعة :هذا كله في حق الذين ماتوا من قبلنا، أما هذا الجيل فلن يكبر، ولن ينام، ولن يموت.
واختلف الناس بين مصدق ومكذب، وسألوا أسئلة غريبة، فقال رجل لأبيه وهما يحلقان (يا نهار أسود يابا يعني أنت هاتعيش على طول؟) فقال له أبوه (يا ابن الكلب هو أنا قاعد على قلبك!!) وسأله سائل (طيب مادمنا مش هانعرف ننام السراير دي نعمل بيها إيه نبيعها؟) وقال آخر(دي تبقا مصيبة هانعيش العمر كله نصرف على العيال في المدارس؟) وكثر اللغط، ولكنها كانت فرصة لنعرف أنا ورشدي كثيرا مما في نفوس الناس.
ولكن عقل رشدي كان سببا من أسباب مصيبته، لأن ذكاءه لم تحرسه قناعة نفسية، أو وازع من دين يضمن له ألا يستعمله في الشر. وذلك أنه كان يقوم بعمل جمعيات ضخمة مع تجار كبار، فسول له بعض أصحابه ممن كانوا يسهرون معه في مجالس الأنس أن يتاجروا بهذه الأموال، فيربحوا منها أرباحا ضخمة، ثم يردوا أموال الناس إليهم، وبالفعل وافق رشدي على هذه الفكرة، مخدرا بأحلامه، فسلم هذه الأموال إلى صديقه النصاب.

واستطاع صاحبه هذا أن يهرب بهذه الأموال، وبقي التجار الكبار يطاردون رشدي وهم يريدون أن يقتلوه على الأقل، ومنذ سنوات بعيدة ورشدي هارب من بيته، لا يعلم مكانه إلا خاصة أصدقائه، فلم يغن عنه عقله شيئا، ورغم أنني كنت أحبه حبا شديدا فإنني رفضت تماما أن أقابله، وحاول بعض أصدقائنا المشتركين أن يجمعوا بيني وبينه، فرفضت ذلك رفضا قاطعا وقلت له :هو أسوأ حالا من اللص، لأن اللص يدخل بيوت الناس على مسؤوليته الشخصية، فإن نجى فالذي أراد، وإن قبض عليه فهذه ضريبة المغامرة، أما رشدي فقد أخذ أموال الناس لا بمهارة عقلية منه، ولا بقوة بدنية، ولا بنفوذ يخضعهم له، بل بثقتهم فيه، والذي لا يقنع بما تتزن به الحياة فلن يقنع بشيء، ولله در من قال يا ابن آدم إن كنت تريد من الدنيا ما يكفيك فأقلها يكفيك، وإن كنت تريد فوق ما يكفيك فكلها لا يكفيك.



الصاحبة الصاخبة

منذ سنوات بعيدة، وفي ليلة لن أستطيع أن أنساها، ولا أن أذكر تاريخها، رن تليفوني وأنا جالس بين أصحابي، ورفعت السماعة فإذا المتكلم صوت أنثوي، لم تمنعني رقته من أن أقف على ما فيه من عصبية، لا ولا حالت عصبيته دون أن أستمتع بما فيه من رقة.

لم أعلم من أين عرفت اسمي، ولا من أين حصلت على رقم تليفوني، لأن ثقافتها الواسعة قد أذهلتني عن كل هذا، وكان سهلا علي أن أتخلص من أصحابي لأتفرغ للحديث معها. واستمر حديثنا بضع ساعات وأنا في حال من النشوة، قلما أحسست بها في حياتي كلها.

كانت تنتقل من حديث في الفلك، إلى حديث في التاريخ، إلى خوض في أمور الدين، إلى كلام عن الموسيقى، هذا مع معرفة صحيحة باللغتين العربية والإنجليزية، أما روايتها للشعر فحدث عنها ولا حرج.

نعم كانت علا أو عالية كما كنا نسميها مهرجانا بشريا بمعنى الكلمة، كانت أزيد من أن يحتاج إليها رجل واحد، وأعف من أن يشترك فيها رجلان.

كانت علا مفتونة بالكلمة الحلوة، تقرؤها، أو تسمعها، فتتزلزل من أعماقها، وربما حملتها النشوة على أن تضرب بيدها على صفحة الكتاب قائلة لصاحب الكلمة التي أعجبتها :يا ابن الوس**! ولا تعجبوا من هذا، فإن علا كانت عفيفة الفرج مبتذلة اللسان، كانت تعشق الفكاهة الجنسية في المجالس بقدر ما كانت تكره الزنى والزناة.

وكان هذا سرا من أسرار إعجابنا بها وتقديرنا لها، ولو أنك أردت أن تضرب لها مثلا لكانت أشبه شيء بجواري العصر العباسي، كعنان جارية الناطفي، أو أميرة من أميرات العصر الأندلسي، كولادة بنت المستكفي.

وكانت تقعد معنا نحن الرجال، فتبادلنا جدا بجد، ومزاحا بمزاح، وعلما بعلم، فلم تكن تقل عن واحد منا، وكنا نحن نعدها واحدا منا، فلا نتحرج من أن نتراشق أمامها بالفكاهات الجنسية الصاخبة دون أن يكون ذلك مدخلا لعلاقة خاصة بينها وبين واحد منا.

وكان وعيها المعرفي والمعيشي ابنا شرعيا لعواطفها العاجلة، الجزئية، المؤقتة، الصاخبة، فقد كانت تستطيع بكل اقتدار أن تضحك، وتبكي، وتحب، وتكره في أقل من ساعة. وكنت أنا وأصحابي نتقي الخروج معها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، لأن انفعالاتها قد تحول بينها وبين تقدير الوضع الراهن.

أذكر أننا حضرنا معها مسرحية في الهناجر، فجعلت تهمس همسا مسموعا في أذن صديق لنا، حتى علق الناس قائلين :وبعدين!! وكانت تستطيع أن تكون علاقات عميقة في أقصر وقت يمكن تخيله، فإذا جرت الألفة بينها وبين رجل تراه لطيفا فإنها يمكن أن تتأبط ذراعه حين تمشي معه دون أن ترى هذا غريبا.

وهذه العشوائية التي ترجع إلى سلامة الصدر كانت سببا من أسباب إحجامنا عن الخروج معها في كثير من الأوقات.

لهذا كنت أستعين عليها بها، فكنت أتقي ما فيها من حماقة بما فيها من إنسانية، وأستعين على ما فيها من تهور بما فيها من حب، لأنها كانت كاذبة الكره صادقة الحب. أما تدينها فلا يمكن وصفه بالصدق ولا بالكذب، بل كان معنى من معاني الاعتياد، تزيده نعمة وتنقصه أزمة.

فلم يكن نقابها الذي اتخذته لسنوات طويلة يعكس أي معنى من معاني التدين، بل كان وسيلة لإظهار عينيها اللتين هما الشيء الوحيد الحلو في وجهها الذي غزاه حب الشباب، ثم أوشك الشباب أن يرحل تاركا حبه في وجهها دليلا على أنه كان هنا في يوم من الأيام.

وكانت تجيد رسم عينيها بشكل لا نظير له، فإذا نظر إليهما رجل من خلف النقاب أصابه مس من السحر، فإن أتيح له أن يرى ما بقي من وجهها بطل ذلك السحر.

وكانت علا قليلة المطالب في الدنيا، لم تكن تريد من دنياها إلا رجلا يدفئها، وطفلا تدفئه، وحين تعرفت بها عرضت علي الزواج فأبيت، لا شكا في سلوكها، بل لأن صخبها المعيشي كان أزيد من أن أحتمله.

وافترقنا حينا من الدهر، ثم عاودتني وقد تزوجت شيخا من الذين يقرؤون القرآن الكريم، تزوجها على اثنتين، فصار في حوزته ثلاث نساء، فكانت لهم كل أسبوع مشكلة، كان علي أن أكون طرفا فيها.

ويوم حملت علا فرحنا جميعا بحملها، لأننا كنا نعلم أن هذا هو حلم عمرها، وبقينا ننتظر معها طفلها القادم، ولكن حين أتاها ذلك الطفل المنتظر أتتها معه حمى النفاس، وبقيت في غيبوبة إلى أن ماتت دون أن تعلم أن حلمها قد تحقق.

***

ألطف الكائنات

البنات، البنات، ألطف الكائنات، تلك هي الأغنية الحلوة التي كتبها المرحوم صلاح جاهين وغنتها المرحومة سعاد حسني ضمن المسلسل المشهور هو وهي الذي أعدته سناء البيسي. كلمات حلوة لا أظن الواقع يوافق عليها بلا تحفظات، وتجاربي هي خير شاهد على ذلك.

فبعد تخرجي بفترة قصيرة عملت مدرسا للتربية الدينية بإحدى مدارس البنات الإعدادية، وكانت تجربة جديدة بالنسبة لي أن أقف أمام جمع من الصغار أشرح لهم، وأعطيهم الواجبات، وأصحح كراريسهم، وأمتحنهم، وأصحح الامتحان.

وكان علي أن أتسم بحزم رقيق أو رقة حازمة تتناسب مع عقول وعواطف هؤلاء الصغار، وحين وقفت أمام البنات في أول حصة كن يبدين صخبا شديدا، فما كان مني إلا أن وقفت أمامهن باسم الوجه، مرسل اليدين، لا أنطق بكلمة واحدة.

وطال صخبهن فطال سكوتي، إلا أن سألتني إحداهن ألن تشرح يا أستاذ؟ فقلت لها برفق :إما أن تتحدثن أنتن أو أتحدث أنا، فما كان منهن إلا أن لزمن السكوت تماما، وبدأت الشرح.

كان ما أتمتع به من قدرة على التبسيط في الشرح وخفة ظل في ضرب الأمثلة سلاحا ذا حدين، كان يجذبهن إلى ما أقول من ناحية ويحرك فيهن الدوافع الأنثوية من ناحية أخرى، ولا تعجبوا من هذا، فالفتيات في هذه المرحلة إن كن ناقصات عقل فهن مكتملات الأنوثة، أو على الأقل يخيل إليهن ذلك.

وكان ما أتصف به من كف البصر يسهل للبنات أن يغازلنني وهن آمنات من العقاب، ولم يكن الباعث على غزلهن لي هو إعجابهن بي دائما، بل كان هناك سبب آخر هو الرغبة في ارتكاب المحذور وكسر القانون.
تتأكد إحداهن أني واقف وحدي، فتتسلل إلي، ثم تقول لي بصوت شبق :على فكرة أنت لازم تتجوز، وتتحسسني ثم تجري مسرعة وهي آمنة من أية عقوبة، وتصنع أخرى صنيعها، فتقول لي :بحبك، وتقلد صوت القبلة، ثم تجري إلى حيث يعلم الله، أما الثالثة فهي عاقلة، ناضجة، تسأل مدرس التربية الدينية سؤالا في الدين (إلا قل لي يا أستاذ هي إلي عليها الدورة تصلي؟) كأنها لم تسمع من أمها، وأختها، وعمتها، وخالتها، أن التي عليها الدورة لا تصلي!!! فأقول لها بمنتهى الجد (لأ يا بنتي إلي عليها الدورة ما تصليش وبعدين أنا ما أظنش إنكم وصلتم) فتقول لي ضاحكة (أنا وصلت يا أستاذ) فأقول لها متهكما (حمد الله على السلامة).
وكانت أصعب حصة علي وعليهن هي حصة تسميع القرآن، فيها ينتشر المرض بشتى أنواعه، فهذه عندها مغص بسبب الدورة، وهذه ترجع لأن في معدتها بردا، وهذه عندها مشكلة في بيتها بين بابا وماما، وهذه وحياة ماما حافظة لكن عندها مغص في الكلية. وحين أسامحهن وأمنحهن فرصة أخرى للحفظ أفاجأ في اليوم التالي بالمديرة تستدعيني لتخبرني أن البنات قد قدمن في شكوى واتهمنني أنني مهمل في تسميع القرآن، لا حول ولا قوة إلا بالله.
وحين تكون مدرس بنات فأنت مهدد مع كل طلعة شمس بأن تتهم بجريمة لم ترتكبها، ألا وهي أنك حاولت أن تتحسس فتاة بغية الفاحشة، وقد حدث هذا بالفعل لزميل لنا، وأجريت له تحقيقات مطولة، ولم تثبت برأته إلا بشق الأنفس، وكان لهذا التهديد عمله السحري في نفوس المدرسين، إذ أصابهم

بالجبن الشديد في التعامل مع الآنسات، فإن هي لم تقم بعمل الواجب المدرسي وأعطاها المدرس درجات قليلة تتناسب مع مستواها، أشاعت عنه أنه إنما قلل درجاتها لأنها لم توافقه، وإن أطالت لسانها على إحدى زميلاتها وأراد المدرس أن يضربها بالعصى على يدها فعليه أن يجمع شهودا كثيرين يثبتون أنه لم يمسها بيده، ولم يحاول أن يتحسس جسمها المقدس.

ولن أنسى ذلك اليوم الذي قامت فيه إحدى التلميذات بضرب مدرسة، وبعد تحقيقات مجهدة تمت إدانة المدرسة، بحجة أنها أثارت أعصاب التلميذة حتى أخرجتها عن شعورها فضربتها، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وربما يخيل إليك أنني ككفيف معفى من هذا الحرج، وأن لي عذرا إن طاشت يدي فمسست إحداهن، أما أنا فكنت مصابا بحالة من الوسواس القهري، فكنت أتحرك بمنتهى الحذر، بل لم أكن أسمح لإحداهن أن توصلني إلى بيتي وأنا عائد من المدرسة.

ولم تكن جرائم البنات فيما بينهن تقل خطورة وضراوة عن جرائم الصبيان، بل ربما أخطر، ففي يوم لم تطلع له شمس أغمي على إحدى التلميذات في الفصل أثناء الحصة، ولم يكن الإغماء هو كل ما أصابها، بل كان هناك نزيف أيضا، وظنت إدارة المدرسة أنها ربما كانت مريضة سكر، أو أن هذه تبعة من تبعات الدورة الشهرية، فأخذوا يبحثون في حقيبتها عن الدواء الذي تستعمله.

وأصيب من فتشوا الحقيبة بصدمة عنيفة حين لم يجدوا دواء للسكر، بل وجدوا نقودا كثيرة، وقطعة ضخمة من المخدرات، ولم يعد ممكنا كتمان الخبر، فكان من الضروري التحقيق مع التلميذة، وحاصرها المحققون حتى

اعترفت بأن هذه المخدرات هي ملك أبيها، وأنها وإخوتها يمنعونه من تعاطيها، لهذا فهي تحتفظ بها في حقيبتها.

ولم يقتنع المحققون بهذا، بل اتهموها بأنها تتاجر فيها داخل المدرسة، واستدلوا على صحة رأيهم بكثرة ما معها من النقود، فدفعت عن نفسها هذه التهمة، وأقسمت بالله أن هذه النقود قد جمعتها هي وزميلاتها من أجل زميلتهن الحامل!

واستدعيت التلميذة وكانت تلقب بسماح مدرسة، فأقرت بعد جهد بأنها كانت على علاقة لمدة شهرين بأمين الشرطة إبراهيم هنبكة، وأنها قد تورطت معه.

وبعد توقيع الكشف عليها في الوحدة الصحية ثبت أن الفتاة حامل فعلا، وزلزلت الأرض زلزالها، إذ عوقبت الإدارة، وفصلت الفتاة من المدرسة، وساءت سمعة المدرسة في الوزارة كلها.

على أن من الإنصاف أن أقول لكم إن هذا الوجه المظلم لم يكن هو الوجه الوحيد لعلاقتي بالبنات، فقد استطعت أن أنظم منهن فريقا يقرأن لي الكتب المختلفة أثناء الفسحة، وكن يناقشنني فيما يقرأن.

وكانت علاقتي بمدرسة البنات بخيرها وشرها درسا مهما لي في تعلم الصبر على الصغار، ومحاوَّلَت فهم نفوسهن، الأمر الذي مكن لي بعد ذلك من التفاهم مع أولاد إخوتي وأخواتي، والقدرة على حل مشاكلهم، فأصبحوا يستعينون بي كلما واجهتهم معضلة.

***

العبيطان

الشارع في كل مكان في الدنيا ابن حرام، لم يلد أحدا، فلم يذق حلاوة الأبوة، ولم يلده أحد، فلم يعرف معنى البنوة، فليس للشارع قلب يحزن على أحد، ولا عينان تدمعان تعاطفا مع أحد، ولا روح تبتهج من أجل أحد، ولا يدان تحميان أحدا من أحد. فالعريس والقتيل، والمولود والمنتحر، وابن الكرام وابن الحرام في نظر الشارع سواء.

فما أرقى الشوارع في أرقى المدن إلا غابات ملساء، يتعامل الناس فيها بشيء من التهديد المعلن الصامت.

لهذا فإن كل واحد منا ينزل الشارع على مسؤولية نفسه، فمن الناس من ينزل الشارع محتميا بقوته، أو جاهه، أو ماله، أو أخلاقه، كما أن منهم من ينزل الشارع محتميا بضعفه وذله وخنوعه وهوانه على الناس، فالناس يكادون يكفون أذاهم عن صنفين من الناس: عن القوي الذي لا طاقة لهم به فهم لا يملكون له ضرا ولا نفعا، وعن الضعيف المتخاذل الذي يحتمي بهم منهم ويعلن لهم دائما أنه أقل شأنا من أن يؤذوه.

وإنما يقع الأذى بين الأكفاء الذين تجمعهم مصالح وتفرقهم أخرى، فلا مجال بينهم لخوف يصدهم عن الأذى أو شفقة ترفعهم عنه، والشوارع في حينا مرايا تعكس ما هو موجود بالفعل، وترينا من الحقائق ما لعلنا نبذل جهودا خارقة لكي نتجنب معرفتها، فهي لا تتصدق على الوجه القبيح بلمعة من لمعات الجمال، ولا تبشر الجسم المريض بصحة آتية.

لأجل هذا لم يطل تعجبي من تلك المعاملة الغريبة التي يتعامل بها الناس في الشوارع مع المكفوفين والصم والبكم والمتخلفين عقليا الذين يسميهم العامة العبط جمع عبيط، فقد كان في حينا أخوان شقيقان عبيطان هما صلاح العبيط وأخوه علي العبيط، كانا ربما ينزلان من بيتهما ويمشيان معا دون قصد منهما لأن يجتمعا، ثم يفترقان دون قصد منهما لأن يفترقا، فإذا هما مشيا معا بضع خطوات ثم توجه أحدهما ذات اليمين والآخر ذات الشمال فليس ذلك لمنفعة ترجى أو خطر يتقى، ولا لأن اليمين له معنى عندهما وللشمال معنى آخر، ولا لأن هناك مكانا خيرا من مكان، ولا لأن المكان القريب أقل عندهما مشقة من المكان البعيد، بل هي الصدفة وحدها التي تقود كليهما هنا أو هناك.

ولم يكن كلاهما يشعر ولو أقل شعور بأهمية الأشياء التي يقتتل عليها الناس من مقتنيات ومناصب، فإن أنت أعطيت أحدهما نقودا أخذها منك دون أن يشكرك، وإن سلبته ما معه من النقود تركها لك دون أن ينازعك، وذلك لأن النقود بالنسبة إليه إن هي إلا أجسام ورقية أو معدنية في جيبه، أو في يده، أو على الأرض تحت قدمه، ولكنه قد يقاتلك بمنتهى الشراسة إن سولت لك نفسك أن تأخذ الطوبة التي يلعب بها أو الفتلة التي يلفها على يديه.

وكان كلاهما قد علم بفطرته أن بعض الأناقة كذب بالملابس يساوي الكذب باللسان فأعرض كلاهما عن الأناقة كل الإعراض، فلم يكن أحدهما يجد بأسا بأن ينزل إلى الشارع مرتديا قميصا وبنطلونا، أو جلبابا، أو بجامة، أما غلاء الملابس وتناسقها وألوانها وما يترتب على ذلك من تقدير اجتماعي صحيح أو

زائف ، وما لذلك من أثر في العلاقة بين الرجال والنساء، فلم يكن يخطر لهما ببال.
وكان كلاهما قد علم بفطرته أن المدح باب واسع من أبواب النفاق، وأن الذم باب واسع من أبواب الكراهية فلم يكن أحدهما يمدح ولا يذم، وإذا كان الله قد حرمهما من أن ينافسا الناس في الأناقة الظاهرية فإنه قد من عليهما بأن يتفردا في أناقة أخرى هي أناقة الفطرة الصادقة، تلك الأناقة التي لا تَتَّسخ فتحتاج إلى تنظيف، ولا يصيبها القدم لتحتاج إلى تجديد، وإذا كنت أنت ترى أن هاذين العبيطين وأمثالهما عالة على الدنيا لأنهم يعيشون بدون الأمل الباعث على انتظار الغد، والإبداع الذي هو سر التقدم فإنهم يرون الدنيا عالة عليهم لأنهم يعيشون بدون المقتنيات والمناصب التي هي سر الخطايا والشرور.
وكان أحدهما إذا سار في الشارع يتبعه الأطفال قائلين العبيط أهوه، أو يرشقونه بالحجارة فيهرب منهم أو يبادلهم رشقا برشق دفاعا عن نفسه لا رغبة في إيذائهم، أما الذين يشهدون هذا المشهد من الناس فقد كان منهم من يبكون، ومن يضحكون، ومنهم من يتوجعون، ومنهم من يتعجبون، ومنهم من لا يهتمون، ولم يكن كلاهما يعبأ بالفرق بين بيته، وبيوت الناس، والشوارع، والدكاكين، فإن كان بينها اختلاف فإنما هو اختلاف في الأسماء فقط، لا، ولم يكن أحدهما يحتاج إلى معرفة سابقة بك لكي يكلمك، بل يَكْفي في ذلك أن تكون أنت أمامه بمحض الصدفة ليكلمك بما شاء، ولا عليه أن تفهم أو لا تفهم، ولا عليه أن ينصرف عنك قبل أن يتم حديثه، كما لا عليه أن

ترد أو لا ترد، لأنه في الحقيقة لا يكلمك بل يتكلم أمامك، فأنت، والطير، والحيوان، والشجر، وتراب الأرض عنده سواء، فهو ملك الدنيا وإن لم يكن مالكها.

لهذا كان يسهل على أحدهما أن يدخل أي بيت شاء، في أي وقت شاء، بدون إذن أهله أو السلام عليهم.

كان صلاح العبيط مثلا يفاجأ به أهل بيت في وسط بيتهم قاعدا على ما يصلح للقعود من أريكة أو كرسي أو على الأرض إن لم يجد ما يقعد عليه.

ثم يسأل الناس بلسانه الثقيل أن يأتوه بشاي ثقيل، وكان قد عمد إلى مليم من نحاس فثقبه من منتصفه واتخذه خاتما في إصبعه لا يفارقه أبدا، فإذا أتاه أهل البيت بالشاي رفع إصبعه فوق الكوب، فإن بدا له خاتمه على صفحة الشاي عده شايا صالحا وشربه، وإن لم يبد له خاتمه فليست في الأرض قوة تجعله يشربه.

وكانت النساء تتبركن به غاية التبرك خصوصا الحوامل منهن، لأنهن كن يعتقدن أنه على صلة مباشرة بالله، وأن الله إنما جعله على هذه الشاكلة لأنه أودعه أسرارا من عنده.

وآه ثم آه حين يقول صلاح لإحداهن إنها سوف تأتي بولد كما تحب ثم يكون الأمر على ما قال، هنالك تحكى عنه القصص وتحمل إلى بيته الهدايا وتتمسح الحوامل برأسه وجسده ويسألنه البشارة والدعاء الصالح أملا في أن يصيبهن ما أصاب الوالدة التي تحققت فيها نبوؤة صلاح.

على أن هذا لم يكن الوجه الوحيد لتعامل صلاح العبيط مع الناس، بل كان هناك وجه آخر يشق علي أن أذكره وعليكم أن تسمعوه، ذلك أن الفتى كان مصابا بالصرع، فكان إذا غشيته نوبات الصرع يتشنج وجهه وجسمه، فكان يطيب لبعض السفهاء حين يلقونه أن يلحوا عليه في أن يفتعل التشنج، فكان إن تشنج افتعالا عاوده الصرع فعلا.

وحدث أنه دخل ذات يوم بيتا لقوم لا يعرفونه، فظنوه إنما قدم عليهم قاصدا بعض نسائهم، فلم يزالوا به يضربونه حتى أفقدوه الوعي، ثم طرحوه خارج البيت، فلما مر به بعض من يعرفونه حملوه إلى بيته، فما مر إلا أسبوع أو أكثر قليلا حتى مضى إلى خالقه، فلما رأى أخوه علي ما حل به ذهب لزيارة أخته التي تسكن في الطابق الخامس ثم ألقى بنفسه من النافذة فتلقفه ملك الموت ولم يكن بين موتيهما إلا حين من الدهر لا أذكر أطال أم قصر واحد كأنهما قد تعاهدا على ألا يفترقا أو كأن الدنيا قد ضنت بهما وبما فيهما من نقاء وعفوية، على الذين استهلكتهم الحياة بما فيها من أطماع ومادية، واليوم وبعد أن مرت سنوات طويلة على موتهما لا يكاد يذكرهما أهل حينا إلا عرضا فإن ذكروهما فبصوت خفيض وابتسامة شاحبة، ويبدون تأثرا تحته ضحك، أو ضحكا تحته تأثر، كأن الحزن على العبيط يجب أن يكون مثله عبيطا.

***

العمى الأمريكاني

العمى هو العمى والعميان هم العميان في كل زمان ومكان ولكن هناك فرقا بين مجتمع يكرسهما لخدمته ومجتمع يكرسهما لمصلحة التواكل والبركة.

ففي الحالة الأولى يجتهد المجتمع في تحويل هذه الخصوصية إلى طاقة خلاقة تنتفع هي بنفسها وتنفع غيرها أما في الحالة الثانية فإن المجتمع يستثمر هذه الخصوصية للانفتاح على عالم الغيب. لهذا فإنه يضيف إليها ما ليس فيها كما يتغاضى عما فيها من مزايا.

فتعبيرا عن التدليل الذي ينتهي إلى التضليل تراهم في مجتمعنا يقدمون الكفيف في الطابور أو يقومون له في المواصلات العامة كأن مشكلته ليست في عينيه بل في رجليه.

وعلى صعيد مناقض تراهم في مجتمعنا إذا أرادوا مخاطبة الكفيف رفعوا أصواتهم كأنه أصم أو قال واحد منهم لآخر اسأله هو رايح فين؟ كأن للمكفوفين لغة خاصة لا يعلمها إلا الصفوة.

ولست أدري والله ماذا أقول لكم فرغم الأناقة التي تتصف بها ملابسي ما زال هناك من يضعون الجنيهات في يدي وهم يمصون الشفاة ولا يعتذرون إلا حين يرون ثورتي!

وسوف ترون هذا الفرق حين أقص عليكم ما وقع لي في أمريكا: قبل أن يقبلني المركز الذي من المفترض أني في ضيافته أغمضت مديرته عينيها وقامت بالتجول في المركز صعودا وهبوطا وذات اليمين وذات الشمال لتعلم إن كان سهلا على الكفيف أن يتجول فيه أم لا. وحين علمت أنه سهل ميسور توجهت إلى المحافظ وقالت له سوف يفد علينا كفيف من الشرق ولا بد من تركيب الأعمدة الضوئية.

والأعمدة الضوئية هي عبارة عن أعمدة توضع متقابلة على الأرصفة المتقابلة بحيث يتمكن الكفيف بوساطتها من عبور الشارع.
فإذا أراد عبور الشارع ضغط على زر في أحد هذه الأعمدة فتصدر عنه أضواء معينة تتوقف بمقتضاها جميع السيارات فإذا عبر الشارع فعلا ضغط على زر في العمود الذي يقابله فتنطفئ تلك الأضواء فتعود السيارات إلى استئناف السير.
وحين دخلت مدرسة المكفوفين وجدت عالما آخر وجدت مكفوفين يعتمدون على أنفسهم في كل شئ. يغسلون ملابسهم ويكوونها، ويتحكمون في الأوراق النقدية التي في جيوبهم عن طريق تطبيقها تطبيقات مختلفة بحيث تطبق كل فئة تطبيقة معينة فلا يقع اللبس، ويلتزمون أتم الالتزام بالطابورفلا مجال لتأخير المتقدم أو تقديم المتأخر وهم لا يفعلون ذلك مكرهين بل مؤمنين، ويستخدمون العصى بمنتهى المهارة وفقا للقواعد العالمية لاستخدام العصيالتي تحدد بأية يد يجب استخدام العصى وكيفية تحريكها، ويتحركون في الطرقات حاملين طعاما أو شرابا دون أن يصدم بعضهم بعضا فالصاعدون يصعدون عن اليمين فقط والنازلون ينزلون عن اليمين فقط بناء على ضوابط مقررة معلومة. ويمتهنون مهنا شاقة فمنهم من يعملون بميكانيكا السيارات ومنهم من يصلحون المكن الكهربائي الذي يقص الحشيش الزائد.
وأما الفتيات الكفيفات فماهرات ليس فقط في الأعمال المنزلية بشتى ألوانها بل في تجميل وجوههن. بما في ذلك تلوين الأظافر وقص الشعر.
وأذكر أن التي علمتني الطبخ كانت ماهرة في الأعمال المنزلية وكانت تضع المساحيق على وجهها بيدها وكانت مغنية مشهورة كما كانت من أمهر من عرفت في الكمبيوتر.

ولهم تكنولوجيا تعينهم على ذلك إلى حد كبير فعندهم الخريطة الناطقة التي تعينهم على معرفة المنطقة التي يمرون بها، وعندهم مميز الألوان وهو جهاز يوضع على الملابس وغيرها فينطق لوها، وللطباخين منهم منبه يصدر صوتا حسب ضبطه، وعندهم جهاز آخر مزود بكمرة يقوم بقراءة ما على العلب المغلقة أو زجاجات الأدوية وغير ذلك.

والسؤال الذي نحب أن نطرحه عليكم في منتهى هذا الحديث هل مكفوفو أمريكا أذكى من مكفوفينا؟ بالطبع لا فالفرق ليس في الذكاء بل في التأهيل.

لقد أعد مكفوفوهم بشكل علمي بناء على ضوابط وقواعد تنتظر نتائجها في أقرب وقت أما مكفوفونا فيعاملون بشكل عشوائي في مجتمع عشوائي.

فكانت النتيجة المباشرة أنهم أصبحوا طاقة خلاقة في مجتمعهم بقدر ما أصبح مكفوفونا عالة على مجتمعناكأننا نؤهل كثرة منهم للقعود أمام الحسين والسيدة.



الكفيف والجمال النسائي

أعزائي القراء دعونا نتفق منذ اللحظة الأولى على نقطة مهمة قبل أن أسوق إليكم هذا الحديث، هذه النقطة هي ألا تسألوني عما لا تفهمون ولا تطلبوا مني أن أقيم الدليل على صحة شيء مما سوف أقول، لأن كل ما سوف أقوله هنا يعتمد على الحدس والإحساس لا على المنطق والقياس.

اتفق الناس في كل زمان ومكان على عشق الجمال والجميل، ولكنهم عند التطبيق الفعلي اختلفوا في معناهما أشد الاختلاف، لأن تقدير الجمال مرتبط بطبيعة الحواس التي تتلقاه من ناحية ومستوى الذوق للعصر الذي يعيش فيه المتلقي من ناحية أخرى.

فالجميل الذي قد يجعلك أنت متيما به قد يكون منفرا لغيرك إلى حد أنه لا يطيقه. وما من حاسة من الحواس إلا وهي نافذة على لون معين من ألوان الجمال فإن نقصت حاسة من هذه الحواس تركز الإحساس بالجمال في ما بقي من هذه الحواس بعد أن تتوزع عليها قوة الحاسة المفقودة.

فالمبصر العادي الذي يتلقى لونا من الجمال البصري هو في مرتبة وسطى بين الكفيف الذي لا يرى والأصم الذي يغرس عينيه في كل ما هو بصري واللمسة الواحدة قد يكون لها معنى بالنسبة للمبصر ومعنى بالنسبة للكفيف ومعنى بالنسبة للأصم، وقل مثل هذا في غيره فيما هو قائم على تفاوت الحواس.

ولنعد الآن إلى علاقة الكفيف بالجمال فنقول.

يطل الجمال النسائي على الكفيف من نافذتين إحداهما الصوت والأخرى اليد.

والصوت ليس مجرد حروف منطوقة يدفعها الهواء خارج الفم بل لعلنا لا نبالغ إن قلنا إن الصوت مثل الوجه، يستطيع أن يعكس ملامح الشخصية.

فهناك صوت شفاف يحمل إليك ما بداخله فتشعر حين تسمعه أنك تنظر في صاحبه من الداخل، وهناك صوت مكتوم لا يسفر عما في نفس صاحبه كأن صاحبه قد استأجره ليتكلم به، وهناك صوت عدواني حتى وإن كان يقول كلاما معسولا، وهناك صوت مبتذل حتى وإن كان ينادي بأرفع القيم الخلقية.

وهناك صوت مبطن بالحنان المنزلي يحمل في تضاعيفه ملامح الأمومة حتى وإن كانت صاحبته آنسة، وأذكر أنني لقيت ذات يوم امرأة فجعلت أقول لها شكرا يا مدام فتقول لي آنسة وبعد ذلك بدقائق أنسى فأقول لها آسف على الإزعاج يا مدام فتصحح لي وتقول آنسة فلما ضاقت بذلك ذرعا قالت لي ما حكاية مدام هذه؟ فقلت لها صوتك مبطن بالحنان المنزلي فإن لم تكوني قد تزوجت ولم يكن لك أطفال فلا بد أنك قمت بتربية أحد.

فأخذت الفتاة تضرب كفا بكف وتقول سبحان الله لقد وقفت على بعض الحقيقة لقد مات والداي منذ عهد بعيد وقمت أنا بتربية إخوتي الصغار. كما أذكر أني لقيت فتاة ذات صوت مصقول لا يدخله الترهل فقلت لها إني أجد في صوتك شيئا عجيبا، فقالت ما هو؟ فقلت إنك من الطراز الذي يبوح له الناس وأما أنت فلا تبوحين لأحد لأنك لا تحبين أن تكوني ضعيفة أمام أحد

أليس كذلك؟ فقالت بلى واهتزت جدا لهذا الحديث لأن الناس في كل زمان ومكان يحبون من يخبرهم بما يعرفونه عن أنفسهم.

وهناك صوت رصين مفعم بالحكمة والرشد حتى وإن لم تكن صاحبته مثقفة فهو صوت يجبرك على احترامه،

وهناك صوت يحمل ملامح قيادية كأن صاحبه قد خلق ليأمر لا ليؤمر، وأذكر أنني لقيت رجلا بهذه الصفة في إحدى وسائل المواصلات فقلت له يا سيدي هل تعمل مديرا لشركة أو مصنع؟ فقال نعم فقلت له صوتك ليس ممن يقال له افعل ولا تفعل

كما أن هناك صوتا انقياديا تبدو عليه الكرمشة كأنه عبد بلا سيد فلا فرق في هذا بين صوت رجالي وصوت نسائي، وأظن أن حساسيتي في تلقي الأصوات قد جلبت علي بعض المتاعب فمما أذكره أنني سمعت في أحد الصالونات الأدبية مطربة لا علاقة لها بالطرب وكان من شؤم طالعها أنها تركت الموجودين جميعا واختارتني لتسألني ما رأيك في صوتي؟ فقلت لها بصراحة صوتك يشعرني أنني أشرب شايا شديد البرودة عليه عشر ملاعق من السكر في ليلة باردة جدا جدا وفي بيت شخص أكرهه فقالت لي (انت مش متربي).

وهذا كله ليس مرتبطا بأن يكون الصوت غليظا أو دقيقا ولا مرتبطا بطبيعة الكلمات التي تقال لأن اختيارنا للكلمات أمر مرهون بالإرادة بل هي خواص في بنية الصوت.

وبعض الأصوات مشحون بالافتعال خال من المصداقية يدلك على حقيقة صاحبته وإن كانت تتصرف عكس شخصيتها، وهذه الفروق بين الأصوات ليست لها قواعد ثابتة كقواعد النحو أو قواعد المنطق.

بل لا بد لمتلقي هذه الأصوات من فراسة تعينه على تلقيها تلقيا صحيحا. وأذكر بهذه المناسبة أنني لقيت فتاة ناصعة الصوت فقلت لأصحابي لا بد أن تكون هذه الفتاة جميلة فسألوني كيف عرفت؟ فقلت لهم من الواضح أن بينها وبين الحياة معاهدة صلح قد توسطت في عقدها المرآة وعيون المعجبين لأن في صوتها ثقة هي أبعد ما تكون عن معاني الانكسار الذي يخلقه القبح فيبدو على قسمات الصوت ولو بطريقة لا شعورية.

ولا تقل اليد النسائية أهمية عن الصوت في تقدير الجمال، وقد اختصصنا اليد بالحديث دون بقية الجسم لأن المصافحة والملامسة متاحتان في الطرقات وبين الذين تربطهم معارف سطحية وليس كذلك العناق وما وراءه مما يكشف عن نبض الجسم النسائي واليد النسائية متعددة الدلالات.

فهناك يد متحيزة إلى من يمسها كأنها تريد أن تفارق الجسم الذي هي فيه لترحل معه.

وهناك يد محايدة لا تشعر بمن مسها كأنها مخلوقة بالجونتي فهذه اليد لا تعطيك أي انطباع على الإطلاق لأنها يد لا ملح فيها، وفي مثل هذه اليد قلت (أنا لو سلمت عليكي والنعمة بأحس بكارثة، وبأحس بإن صوابعك كتاكيت خنقتها العِرسة)

وهناك يد نكرة مسكينة كأنها طلقت مع أن صاحبتها لم تتزوج،

وهناك يد معادية لمن يلمسها فأنت تكاد تسمع صراخها في يدك وهي صامتة.
وهناك يد قد رقت حتى كادت تكون تنهدا بين عاشقين يفترقان، فهذه اليد حين تمسها تملؤك حبا، وفي مثل هذه اليد قلت ذات مرة (حبيبتي أنا دبت من لمسة، سلامك خلا قلبي يطب، كأن صوابعك الخمسة، خمس كلمات جداد في الحب).
ومن الأيدي النسائية يد توشك أن تكون سريرا مفروشا يدعوك إلى الجنس حتى وإن كانت صاحبته تلقي عليك درسا في الفضيلة. وهذا ليس مرتبطا بأن تكون اليد ممتلئة أو نحيفة خشنة أو ناعمة بل هو نبض اليد نفسها.
هذه هي انطباعاتي عن الجمال النسائي متمثلا في الأيدي والأصوات فإن صدقتموني فلكم الشكر، وإن كذبتموني فلكم العذر لأنني أعلم علم اليقين أن ليس كل أحد قادرا على أن يفهم هذا أو يحسه لأن إفراط المبصرين في الاعتماد على الخبرة البصرية قد يحول بينهم وبين الانتفاع بمعطيات الحواس الأخرى على الوجه الأكمل فليست المشكلة في من لا يعرف بل المشكلة في من ينكر ما لا يعرف.



اللص التعس

منذ أكثر من خمسين عاما أذاعت الإذاعة المصرية برنامجا غنائيا كتبه المرحوم عبد الفتاح مصطفى ولحنه وغناه المرحوم محمود الشريف كان عنوانه قِسَم.

وقصته بإيجاز شديد أنه كان في حارة الكعكيين في القاهرة القديمة إسكاف كثير العيال إلا أنه كان سعيدا يغني في دخوله وخروجه وقيامه وقعوده.

وحدث أن جاره الخياط حسده على هذه السعادة مع شدة الفقر وكثرة العيال.

فاستقدم رجالا من الشرطة ليضربوا الإسكاف ويطردوه فلما علم الإسكاف بهذا النبأ عن طريق زوجته فر هاربا من الحارة، وكانت معه السلطانية التي كان مفترضا أن يشتري فيها السمن اللازم للكنافة التي اشتهاها أولاده المساكين. فلما أتاه نبأ الخياط أنساه الذهول أن يرد السلطانية إلى زوجته فأخذها معه وركب البحر وهي معه.

فلما استشعر الغرق وضعها فوق رأسه تحت عمامته وحين غرقت السفينة وتعلق صاحبنا بلوح خشبي قذفت به الأمواج إلى أرض يابسة وأغمي عليه ثم أفاق فإذا هو في جزيرة الهمج بين الجبال السبعة في بحر الظلمات.

وكان أهل الجزيرة جميعا عراة لا علم لهم بالكساء وسأله شيخ الجزيرة إن كان يحمل معه هدية لهم يثبت بها أنه من الأحياء؟ قدم إليه الإسكاف السلطانية فطار بها عقل شيخ الجزيرة وكافأه بكنوز جعلته أغنى أهل بلده حين عاد من رحلته.

وأحاط الخياط علما بالجزيرة والكنز فباع ما ملكت يداه واشترى لأهل الجزيرة وشيخها ما لم يخطر لهم ببال. وأراد شيخ الجزيرة الذي طار عقله أن

يكافئ الخياط بأنفس ما في الجزيرة فلم يجد أنفس من سلطانية الإسكاف التي اتخذها شيخ الجزيرة تاجا ليقدمها له والتي رجع بها الخياط مفعما بالإحباط.
ترى هل يستطيع الناس حقا أن يزيدوا في أرزاقهم مهما عملت أيديهم؟ وهل نحن الذين نختار أرزاقنا أو هي التي تختارنا؟وهل فشل الناس في تحقيق ما يحبون هو عجز منهم أو إصرار من الحياة على ألا تغير خطتها..
كان كل هذا يدور في رأسي بعد أن أصابني ما أصابني وأنا واقف على المحطة في انتظار الأتوبيس وفي يدي كيس قد أمسكته بإصبعين لا أكثر فلم يرعني إلى لص اختطف الكيس من يدي وولى مطلقا ساقيه للريح.
والذي منعني من أن أجري خلفه أو أصيح عليه بصوت مرتفع أو أحرض عليه الناس هو ما لحقني من الضحك إذ تخيلته يجري بكل قوته ويقبض على الكيس بكل قوته ويلتفت ذات اليمين وذات الشمال ويبحث عن شارع هادئ ضيق وحين يجده يدخله بمنتهى الحذر ويجري فيه إلى نصفه ليشعر بالأمان ويختبئ وراء سيارة ويفتح الكيس ليجد فيه كوبا بلستيكيا ويفتح الكوب فيجد فيه عينة البراز التي كنت أحملها معي إلى المستشفى بغرض تحليلها.. يا الله إنها قِسَم!!



المتسولة

منذ سنوات أرهقني عدها وفي صبيحة يوم من أيام الشتاء مضيت إلى المدرسة كعادتي وطالت وقفتي على محطة المترو الذي سوف يقلني إلى المدرسة.

وكنت رافعا وجهي إلى أعلى منتفخ الجسم مفعما بالعنجهية التي يخلقها الشباب في الشبان لغير سبب معروف وأنا يومئذ على قدر من الأناقة قد يبرر هذه العنجهية في عقل صغير مثل عقلي.

نصف عقلي مع أصوات البنات اللواتي يتحدثن ويضحكن من قريب أو من بعيد. ونصفه الآخر يستعد لحصص المدرسة يعد الاعتذارات للأساتذة الذين لم أستذكر موادهم. فلم يخرجني من الحالتين معا إلا متسولة تطلب مني إحسانا كما هي عادة المتسولين وحين قلت لها الجملة المشهورة يحنن أطالت الوقوف أمامي بعض الوقت.

ولم أحاول أن أتبين سبب هذه الوقفة فالمرأة بكل ما يخصها كانت خارج اهتمامي ولكن الذي لفت نظري بحق هو أنها كانت تتردد علي بين حين وآخر. وكان صوت شبشبها الخشن هو الذي ينبهني كلما استغرقت في الشرود وطال هذا الأمر وكثر إلى أن بدأت أصاب بالقلق.

ما قصة هذه الملعونة؟ وما سر ترددها علي بين حين وحين؟

ومما زادني قلقا مصمصة الشفاة التي بدأت أسمعها من بعيد وأخيرا قررت أن أتبع خطاها مهتديا بصوت شبشبها الخشن وحين اتبعت صوتها كانت صدمتي العنيفة أنني اكتشفت أنها تتسول باسمي وتقول للناس ساعدوا العاجز.

وحين سألت بصوت مرتفع من العاجز الذي تقصدين؟ نبهني بعض الواقفين على المحطة أنها كانت تشير إلي وهي تتسول زاعمة للناس أنها تأخذ هذه الحسنة لي أنا وحين أعلنت بصخب أنني لا علاقة لي بها كانت قد غاصت في سمع الأرض وبصرها فلم يسترد منها أحد شئا وبقيت أنا أتعجب والذين من حولي يتعجبون من المتسولة التي تتسول برجل وهو لا يدري وبعد أن سكت الغضب عنا جميعا استغرقنا في ضحك هستيري ولم يكن للمحطة كلها حديث إلا عن المتسولة التي استغفلتني وأنا لا أرى واستغفلتهم وهم لا يشعرون يا إلهي لم يكذب من قال إن من الناس ناسا يستطيعون أن يحولوا التراب إلى ذهب.



الملاك الكفيف

يبدو أن الحلاوة التي قد تنطوي عليها نفوسنا التي بين ضلوعنا هي أيضا رزق، مثلها كمثل المال، والجاه، والصحة، وخفة الظل، والوسامة والذكاء.

فمن الناس من يعرفك على حال بين رجاء المنفعة وخوف المضرة، ومنهم من يعرفك ليوم يحتاج إليك فيه، وإن كان لا يعرف ذلك اليوم، ولا تلك الحاجة.

كما أن من الناس من يبغضك، لا لشيء إلا لأنك موجود، وحسبك بها جريمة.

لهذا فإن أصحاب النفوس العالية يعدون ندرة يجب أن توضع في القلوب كما توضع النوادر في المتاحف.

وصاحبي الذي أحدثكم عنه هنا قد أحس بالآخر وذاب فيه حتى كاد يصبح هو ذلك الآخر نفسه، إنه صاحبنا الكفيف أحمد عبد الظاهر.

لقد عانى أحمد كثيرا من الفجوة بين عشق المعرفة الذي قد تتوقد به نفس الكفيف ووسائلها التي قد تكون بعيدة عنه إما بسبب كف البصر أو بسبب الفقر، فما هو إلا أن تعلم الكمبيوتر حتى أخذ على عاتقه ألا يدع كفيفا محتاجا إلى المعرفة أو مستعدا لها إلا أوصلها إليه أينما كان.

والمسترخي في فراشه أو القاعد في مكان مكيف أو تحت مروحة قوية لا يستطيع أن يتخيل مدى المشقة التي يعانيها هذا الرجل ومن يصنعون صنيعه، وحسبك أن تعلم أنه كان منضما إلى إحدى الجمعيات فكان يسافر كل أسبوع

إلى بلد ليعلم من فيه من المكفوفين مجانا ما يستطيع أن يعلمهم من مبادئ الكمبيوتر.

ولعلك تستطيع أن تتمثل الصورة ولو بشكل تقريبي حين تعلم أنه قد بقي أكثر من عشرة أيام يقطع المسافة من مدينة الخامس عشر من مايو إلى مدينة نصر حيث جمعية رسالة في رمضان تحت حر كهذا الذي نعيشه الآن لا لشيء إلا ليلقي على المكفوفين محاضرات في الكمبيوتر بلا ثمن.

تصوره معي ينزل من مواصلة ليركب أخرى، وينتقل من المشي على أسفلت منبسط إلى رصيف متكسر، ويمشي في شارع مستقيم ثم ينعطف منه إلى آخر متعوج، هذا سوى الصعود والنزول، وفوق كتفه حقيبة ثقيلة فيها جهازه الخاص وما يحتاجه المكفوفون من برامج أو كتب.

فإن أنت لقيته حيث يدرس لم تلقه إلا باسم الثغر واسع الصدر هادئ الصوت، يتحمل من المكفوفين كل شيء وقيعتهم فيه عند رؤساء الجمعيات، ونميمتهم ضده فيما بينهم، واستخفافهم بما يقول أحيانا أو إعراضهم عنه.

وهو لا يلقى ذلك إلا بمزيد من الصفح كأنه يتحمل أنانية الأنانيين منهم تقديرا لحاجة المحتاجين أو اجتهاد المجتهدين، فإذا رجع إلى بيته فإن بيته لا يقل صخبا عن الجمعية التي كان فيها، ذلك أنه قد أوصى زوجته أن توقظه إن اتصل به كفيف ذو حاجة ولو في منتصف الليل أو حتى قبيل الفجر.

ولن أنسى أبدا فرحته يوم لقي تلك الكفيفة الصماء التي تريد أن تتعلم وكانت مشكلتها أنها بحاجة إلى جهاز يحول الكتب الإلكترونية إلى طريقة برايل. وكانت طريقته في التفاعل معها أن يكتب على يدها بطريقة برايل ما

يريد أن يقول لها فتجيبه بالصوت لأنها لم تولد صماء فلم تفقد النطق. ولم يزل أحمد ينشط اتصالاته في كل اتجاه حتى استطاع أن يقنع بعض الأغنياء من رجال الأعمال أن يشتروا لها ذلك الجهاز الذي سوف يمحق ما تعانيه هذه المسكينة من ظلام.

وكاد قلبه ينشق فرحا يوم وصل الجهاز إلى القاهرة مشحونا من بلد أجنبي وهو اليوم يواصل عمله معها ثم يعود فرحا كأنها هي التي تعلمه.

وتنزلت عليه جوائز السماء إذ آتاه الله طفلا مثله في ذكائه وحبه للخير، وزوجا نقية تعينه على كل ما يقدمه إلى المعوزين وما من مرة يقص فيها علي قصة من قصص البطولة هذه إلا حسبته بحق علامة صلاة في جبين الحياة.



أمي الثانية

لا شك أن حياتنا يتغير مذاقها بتغير الذين يدخلونها، فمنهم من يجعلها بستانا، ومنهم من يجعلها جحيما لا يطاق.

ومنهم من يكون سلما يصعد بنا إلى ما لم نكن نحلم به ومنهم من يكون حفرة تهوي بنا إلى غير ذات قرار، وهذا إنما يختلف باختلاف الذين يدخلون حياتنا كما يختلف باختلاف علاقتنا بهم عمقا وسطحية.

ولما كانت علاقتي بالناس ترتكز في مبدئها على أصواتهم فإن هذه الأصوات هي المسؤولة عن الانطباع الأول الذي يتخلق في داخلي حيال هذا الشخص أو ذاك. وهذا هو ما حدث لي بالفعل، حين تلقيت آلاف المكالمات بعد أن ظهرت في برنامج فكر ثواني لطلب قراء، كما حدثتكم من قبل.

أجل من بين آلاف المكالمات التي تلقيتها كانت هناك مكالمة حملت إلى مسامعي صوتا أنثويا عجوزا، حنونا، قد أفرغ من كل معاني المنافسة والتحدي، كأن صاحبته قد ملكت كل شيء أو زهدت في كل شيء.

أجل كان صوتا أريحيا مغلفا بالسكينة يغوص فيه سمعك كما تغوص رجلاك في سجاجيد مسجد الحسين، وبدأت المكالمة على هذا النحو: أنا الدكتورة د.ع، مستعدة لتسجيل ما تريد من كتب، وعلي ثمن الأشرطة.

خرج صوتها من قلبها لا من حلقها، فنزل في قلبي لا في سمعي، وأحسب أن أثر هذه المكالمة كان شديدا علي إلى حد أنها أنستني كثيرا مما قبلها، وأذهلتني عن كثير مما بعدها، ورغم ما في صوتها من حلاوة ودفء فإن صوتها لم يكن من تلك الأصوات النسائية التي تثير في سامعها بواعث الرجولة التي تتشوف إلى المغامرة مع الأنثى، بل كان صوتا أموميا، يثير في سامعه كوامن

البنوة، كأنه يريد أن يغسله من الداخل، فصاحبة هذا الصوت تصلح أن تكون أما حتى للذين يكبرونها سنا.

على أن من إحقاق الحق أن أقول لكم إن هذا الذي ذكرته عن صوتها المتدين الحنون لم يكن هو الباعث الوحيد الذي بعثني على التواصل معها، بل كان هناك سبب آخر هو تطوعها بأن تشتري هي الأشرطة، وذلك لأنني بعد إذاعة البرنامج وكثرة القراء الذين تفاعلت معهم كنت قد اشتريت حوالي ألف شريط وقمت بتوزيعها على القراء داخل القاهرة وخارجها مع الكتب.

وبدأ التواصل بيننا رسميا مفعما بالرتابة، أقدم إليها الكتب ثم أتسلمها مسجلة على الأشرطة، وكان يعجبني في أدائها شيء ويغيظني شيء، كانت تعجبني عربيتها السليمة رغم أنها لا تعرف كثيرا عن قواعد اللغة، وكان يغيظني منها أنها كانت أحيانا تنسى أنها تسجل فتأخذ في التعليقات التي تحمل انطباعاتها عما تقرأ من دهشة واستفهام وتعجب واستنكار وسخرية من نوع: إيه دا؟ إزاي كدا!!! هو قال قبل كدا غير إلي بيقوله دلوقتي!!! إلى آخره، وربما تتجاوز ذلك إلى النعاس أثناء القراءة ثم تصحو فتعيد ما قرأت من قبل إلا أنني كنت أحمل هذه على تلك.

وكنت في أول أمري معها لا أطيل البقاء في بيتها لسببين: أحدهما أنها لم تكن تسمح بالتدخين في بيتها، الأمر الذي كان يضيق صدري ويدفعني إلى سرعة الخروج، والأمر الثاني أنها كانت تقدم لي عصير الليمون وهو عند أمثالي من الأشربة المخنثة إذا ما قيس بالقهوة المرة الحلوة.

إلا أن مناقشاتها معي كانت تكشف عن اطلاع واسع وعقل منظم وكان هذا مما يحفزني إلى البقاء معها وتحدي رغبتي في التدخين، ليس هذا فحسب بل كانت من أشره من رأيت في القراءة فكم من كتاب استبقته بعد تسجيله لتعيد

قراأته أكثر من مرة، وحسبك أن تعلم أنها سجلت لي كتاب قصة الحضارة الذي يقع في خمسة وعشرين مجلدا تتضمن خمسين جزءا ثم استبقته لتعيد قراءته.

وبقينا حينا من الدهر لا نتواصل إلا على هذه الشاكلة، حتى اضطرتني الظروف إلى قراءة بعض المراجع الأجنبية عن الغنوصية فكان لزاما علي أن ألجأ إليها إذ كانت تجيد الإنجليزية إجادة تامة.

وسرعان ما وافقت على أن نقرأ معا وجها لوجه، ولبثنا معا شهورا طوالا نقرأ المراجع الأجنبية أو نعد رسالة الماجستير،، وكانت هي لا تدخر وسعا في أن تقدم إلي أكبر فائدة ممكنة في أقصر وقت ممكن، وذلك بأن تراوح بين القراءة، والترجمة، وكتابة ما قد يعن لي من ملاحظات أثناء المطالعة، فإن هي آنست مني شعورا بالملل أو الإجهاد قعدت تسوق إلي أحاديثها الحلوة عن طفولتها، وأبيها، وأمها، وإخوتها، ومدرستها ومدرسيها ومدرساتها، وصواحبها، والقواعد المرعية في البيت والمدرسة، وما قد تتضمنه الحياة اليومية من نوادر.

ثم تتعدى ذلك إلى الحديث عن الجامعة ثم عن زوجها وإقامتها في بريطانيا، وما وراء ذلك من انطباعات عن الإنجليز والعرب المغتربين والفرق بينهم وبين غيرهم من الطوائف الأجنبية الأخرى، وكانت ربما لا ترى بأسا بأن تتحدث عن أولادها والظروف التي لابست مجيء كل واحد منهم والصفات المشتركة بينهم والفروق التي يتفرد بها كل منهم إلى آخره.

ولما كنت قليل الحياء بعض الشيء فإنني لم أكن أستحيي أن أخبرها بجوعي حين أجوع فتقدم لي أحلى ما عندها سواء عليها أكان هذا الطعام رفيعا أو وضيعا.

وكان قربي منها لا يزيدني إلا فتنة بها، فقد رأيت في بيتها الموائد الضخمة حين تستغني كما رأيتها تأكل الخبز بالجبن الفلاحي حين تفتقر فلا والله ما رفعها الغنى ولا وضعها الفقر.

كانت إن استغنت أعطت فكأن الغنى عندها ليس إلا معنى من معاني التواصل، وإن افتقرت عفت كأن الفقر عندها ظل من ظلال الغنى.

وما ذاك إلا لأنها كانت تتخذ كل ما في الأرض سبلا إلى السماء، فإن فرحت اتخذت أفراحها معراجا إلى السماء بالشكر، وإن حزنت اتخذت أحزانها معراجا إلى السماء بالرضا.

وكان من نتائج هذا الإيمان العميق أن استوى الناس في عينيها فلا تكاد تميزهم إلا بمقدار امتثالهم للمثل العليا التي تؤمن هي بها.

ولا أدل على ذلك من أنها يوم عرس ابنها الأكبر أصرت على أن تركب خادمتها معها في نفس السيارة، ودخلت معها الفندق الفخم ويدها في يدها لتلقى بها فلانة هانم زوجة فلان بيه المدير، أو الوزير، أو لتلقى بها مديرة مدرسة أجنبية إلى آخره، وإنك لتعجب حين تراها توزع الحديث بالقسطاس بين خادمتها وبين علية القوم من النساء.

وكانت ضحكاتها الشقية النقية تريك روحا طفلة في بدن عجوز فكان بعض أصدقائها حين يرونها يقولون لها أهلا بد.ع الصغيرة الكبيرة، وهي اليوم سقيمة الجسم سليمة الروح قد جعلت كنزها في السماء فتبعته روحها، وأما أنا فألجأ إليها كلما عصف بي اليأس لأرقع بإيمانها الغض الطري إيماني الأعجف اليابس.



أمي معلمتي الأولى

قيل عن الفرق بين الحضارة والمدنية: إن الحضارة هي ما عليه الناس، وأما المدنية فهي ما عملت أيديهم.

فالحضارة بناء على هذا هي أمر مرتبط برقي الإنسان من الداخل والخارج، أما المدنية فهي الوسائل التي يستخدمها لتسهيل الحياة، وإذا كان بعض الحضارة يأتي عن طريق التربية والثقافة فإن بعضها الآخر قد يأتي عن طريق الفطرة تلك التي يسمونها الاستعداد الأولي.

وعلى هذا فإن سماحة النفوس السمحة، وسخاء النفوس السخية، وما يستحسنه الناس فيما بينهم ليست مرتبطة بفقر أو غنى بل بالطاقة النفسية التي فطر الله بعض الناس عليها.

وأحسب أن أمي في عداد هذا النوع من الناس، لم يتح لأمي أي قدر من التعليم الذي هو غنى العقول، لا ولا أتيح لها قدر من المال الذي هو غنى الأجسام، ولكنها تستغني ببعض قلبها عن بعض عقلها، كما تستغني ببعض قناعتها عن بعض ما كان يجب أن تملك.

فحين كنا أفقر من أن يستعير منا الناس شيئا كان جيراننا الذين هم أغنى منا يستعيرون منا الأواني، والأكواب، وبعض أثاث البيت أحيانا! ولن أنسى أبدا ذلك اليوم الذي باعت فيه أمي سريرنا لتنقذ بعض الجيران من مشكلة كبرى فاضطررنا إلى النوم على الأرض حتى تمكنا من شراء سرير جديد وكنت في صغري أضيق بهذا أشد الضيق، فلما كبرت وفهمت أدركت أن الذي فعلته أمي كان أكبر من أن تستوعبه طفولتي، وفهمت بعد ذلك بوقت طويل أنه إذا لم يكن في حياتك من يستحق أن تضحي من أجله فليس في حياتك من تستحق أن يضحي من أجلك.

والجنيه هو أهون شيء على أمي حين تشتري به ما تحتاجه، أو حين تدفعه إلى مستحق أو من أعلن عن أنه مستحق، فكم كنت أسمعها تقول إن بيتنا مستور والحمد لله حين لا يكون في بيتنا إلا عشرة جنيهات أو عشرون جنيها، كأنها أوثق ما تكون بالله حين يشتد علينا الفقر.

والعلاقة التي تربط أمي بجيرانها ومن تشتري منهم احتياجاتها علاقة عاطفية تقوم على الفضل لا على العدل، فهي تشتري أحيانا لأننا محتاجون إلى هذه السلعة أو تلك، ولكنها أحيانا أخرى تشتري لأن صاحب السلعة محتاج إلى مالنا، وأذكر أننا في بعض سنوات العسرة طاف بنا طائف من الفقر الشديد ألجأنا إلى أن نتعامل بالشُّكك مع البقال الذي يلي دكانه بيتنا، وكان طعام الرجل رديءا لا يكاد يحتمل فلما استقامت حالنا أقامت أمي على التعامل معه ورأت أن نصبر على طعامه الرديء مثلما صبر هو من قبل على فقرنا الرديء.

وهذه هي حال أمي في التعامل مع كل من تتعامل معهم بيعا وشراء، فهي لا تفاصل في الأسعار ولا تصنع ما تصنعه بعض النساء من الذهاب إلى السوق آخر النهار ليصبن السلع رخيصة حتى وإن كانت وضيعة. لهذا فإن الباعة لا يعاملونها كما يعاملون بقية الزبناء بل يعطونها أفضل ما لديهم، وقد يتجاوزون ذلك إلى أن يدعوها إلى الإفطار معهم أو شرب الشاي وما أكثر المرات التي رأيت فيها بائعا أو صبي بائع يحمل لها مشترياتها إلى عتبة بيتنا دون أن يتخذ على ذلك أجرا.

وكم كانت دهشتي حين سألت أمي عن كتاب غالي الثمن أأشتريه أم لا؟ فقالت بلا تردد: إن كان يحرقك اليوم ثمن الكتاب فغدا تذهب حرقة الإنفاق وتبقى حلاوة الكتاب!

وبهذه الروح تتعامل أمي مع الأشخاص والأشياء، وهذا هو السبب في أن جاراتنا كن يحتكمن إليها حين ينشب بينهن نزاع أو يستشرنها فيما خفي فيه وجه الصواب، ولعلكم لا تصدقون إن قلت لكم إن أصحابي كانوا يحبون أمي أكثر من محبتهم لي إلى الحد الذي يجعلهم يزورونها وأنا مسافر يأكلون ويشربون ويضحكون معها أنسا بروحها.

وأحسب أن حب جيراني وأصحابي لأمي إنما يرجع إلى سبب أساسي، هو قدرتها الفذة على أن تضغط على نفسها من أجل غيرها حرجا أو استحياء أو حبا أو إشفاقا.

فكم من يوم رأيت فيه أمي عائدة من عملها منهكة القوى كانت تنتظر بفارغ الصبر أن تعود إلى بيتها لتمد جسمها المنهك على الفراش، فما هو إلا أن تفعل ذلك حتى تدق الباب جارة أو صديقة آتية من مكان بعيد، فترغم أمي نفسها على أن تستيقظ مؤكدة لهذه الجارة أو الصديقة أنها أحسنت إذ جاءت في هذا الوقت لأن وراءها أعمالا كثيرة يجب أن تقوم بها، وأن النوم كان سيصرفها عن هذه الأعمال فتشعرها أمي أنها قد أسدت إليها جميلا بما أيقظتها.

وأحسب أن هذه التضحيات جميعا قد هانت عليها بعد أن قامت بالتضحية الكبرى من أجلنا، فقد مات أبي عنها وهي في الثامنة والعشرين، ورغب رجال كثيرون في الزواج منها فأبت عليهم ذلك متحدية رغبة كل الراغبين فيها ومتحدية فوق ذلك رغبتها هي في بعض الراغبين، وكرهت أن تأتينا برجل يدخل علينا الحماية والانكسار معا، وحسبت أن شعورنا بالقهر الذي سوف يتركه زوج الأم في نفوسنا لن يزول حتى بعد أن نكبر.

هذا مع أن زواج الأرملة أو المطلقة لم يكن معيبا في الطبقة التي ننتمي إليها.

ولعل من أسباب حب الناس جميعا لها أنها أكتم الناس لسر تؤتمن عليه، فتحت سقف غرفتنا الصغيرة كانت تتكوم أسرار النساء، فزوج هذه مديون، وزوج هذه لا يحسن الأداء في الفراش، وهذه تقول عن تلك إن بيتها في منتهى العفانة، وزوج هذه تاجر مخدرات، وأمي تسمع سمع الأحياء وتسكت سكوت الموتى.

وإذا وقفت أمي على سر قد علمته من قبل فإنها لا تخبر المتحدثة الجديدة أنها قد علمته من قبل بل تظهر نفس الدهشة التي يتصف بها من يسمع خبرا جديدا. لهذا لم يكن غريبا أن النساء اللاتي رحلن مع أسرهن كن يتعهدن أمي بالزيارة من حين إلى حين ويتحسرن على الأيام التي قضينها في حارتنا مع أمي.

وأمي ليست مولعة بما يتنافس الناس فيه من ألوان المفاخرة، وذلك لأنها كانت تعد القليل الذي في يديها كثيرا تسأل الله أن يديمه كما هو بلا زيادة ولا نقصان، فأحب الأوقات إليها هي تلك الأوقات التي تسترخي فيها لتحدثنا عن أيامها في الصغر، إذ كان كل شيء رخيصا والشوارع لا زحام فيها، والناس حريصون على المودة فيما بينهم، والسينما التي كانت تدخلها مع خالي، وأبو حمامة ذلك الحلواني الذي كانت تأكل عنده كذا وكذا وما كان من حب عفيف بينها وبين جارها الشاب قبل أن تتزوج أبي، وكنت أحيانا أسألها ساخرا أي شيء يعجبك في هذه الأيام وقد كنتم في فقر شديد؟ فتجيب بكلمتين لا ثالثة لهما هما: راحة البال.

لهذا كانت تستكثر القليل وتعده نعمة كبرى، وكانت تعرف في نفس الوقت كيف تجمل هذا القليل الذي في يديها حتى يكون محط الأنظار.

فقد كانت غرفتنا الصغيرة مزدانة بالورود الصناعية كما كانت أمي تحرص على مدى الانسجام بين ألوان الستائر والمفارش بحيث تبدو غرفتنا كأنها قطعة موسيقية مرئية لا مسموعة.

ولن أكتمكم القول أحيانا كان يغيظني بعض ما هي عليه من القناعة كما تضيق هي ذرعا ببعض ما أنا عليه من الطموح، ولكنني رغم غيظي لم أزل أحسدها على هذه القناعة، كما أنها رغم قناعتها تشجعني على ما أنا عليه من الطموح.

وعلاقة أمي بالله علاقة غريبة، فرغم أنها لا تكاد تتعدى الفرائض من صوم، وصلاة، وزكاة، رغم ذلك فإنني أحس بمدى العناية الإلهية كلما حاقت بها أزمة.

فبعد أن سافر جيراننا المسيحيون إلى أمريكا كما شرحت لك في حديث سابق، تم بيع البيت إلى رجل غاشم لم يزل بالسكان يدفع إليهم الأموال القليلة حتى أجلاهم عن البيت بغية هدمه وإعادة بنائه، واستطاع بالفعل أن يجليهم عن البيت جميعا إلا إيانا، وأجهد نفسه في مضايقتنا غاية الإجهاد، فما كان من أمي إلا أن دعت عليه، فلا والله ما مرت إلا أيام قليلة حتى تورط في قضية ألجأته إلى بيع البيت وجميع ما كان يملك.

وظلت ملكية بيتنا تتنقل من مالك سيء إلى مالك أسوأ خلال فترات قصيرة حتى آل أمره إلى رجل طيب أعاد بناءه وأعطانا شقة صالحة، فكان مما قاله لأمي أنه استبشر بوجهها منذ أول مرة لقيها فيها.

ولن أنسى أبدا يوم جرحت يدها ثم التهبت، فنقلناها إلى إحدى المستشفيات فأشار علينا الطبيب ببتر يدها خوفا على جسمها كله فتشاءمنا منه ونقلناها إلى مستشفى آخر ثم لم تلبث أن أجريت لها عملية جراحية استغرقت بضع ساعات استطاع خلالها الطبيب أن ينقذ يدها من البتر والتأم الجرح بعد شهور طويلة وكان الطبيب يؤكد لنا أن ما حدث كان بالفعل معجزة لأن البتر كان تقريبا هو الحل الوحيد.

وأحلام أمي لا تقل عجبا عن انفراج أزماتنا، فكم من مرة أخبرتني في بحلم خير أو شر، فما يكاد ينقضي زمن قصير حتى نرى دلائل ذلك في الواقع من فرحة غير متوقعة أو مصيبة غير منتظرة.

ولن أستطيع أن أحصي لكم عدد الأزمات التي واجهناها ثم انفرجت من غير الطريق المتوقع، ولم يكن يطول بي العجب فإنني أعلم أن من النفوس نفوسا لها مع الله طرق غير التي يعرفها أكثر الناس طرق يستشعرونها في أعماقهم وإن كانوا عاجزين عن أن يعبروا عنها أو يشرحوها لغيرهم .

هذه هي أمي تعلمت منها أن نتواصل مع الذين نحبهم وأن نصبر على الذين لا نحبهم، وتعلمت منها أن الناس أهم من الزمن، فقضاء الزمن في زيارتك لمريض بعيد أو إعانتك لمضطر ملهوف خير من إنفاق الزمن في عمل يدر عليك مالا، وأن الزمن أهم من المال، فاقتصاد الزمن الذي لا يعود أهم ألف مرة من اقتصاد المال الذي يمكن تعويضه.

وتعلمت منها أن بشاشة الوجه شباك حريرية لصيد القلوب النافرة، وأذكر لكم هنا أنه كانت قد نشبت مشاجرة كبيرة بين أحد إخوتي وبعض الشباب،

فلما قدموا على بيتنا ليعتركوا مع أخي لقيتهم أمي بوجهها البشوش وقدمت لهم الشاي ورحبت بهم، فما كان منهم إلا أن رق كلامهم ولان عتابهم ثم تولوا عنا دون أن يقع شيء.

وتعلمت منها أن الصبر على الشدائد يهونها ويقوي نفوسنا وأن السخط على ما لا نرضى من القدر يضعفنا ولا يزيله، نعم تعلمت هذا وغيره من أمي دون أن تنصحني به في يوم من الأيام، تعلمته من عيشي معها فاستفدت منها أضعاف ما استفدته من نصح الناصحين نعم تعلمت منها كل ذلك ولكنني لم أستطع للأسف أن أكون مثلها.

وحين ماتت أمي رحمها الله منذ عامين انكسر في أعماقي شيء لا أظن الأيام قادرة على إصلاحه. لقد أصبحت حياتي تشبه طعام المستشفيات. ربما كان صحيا لكن ليس له من مذاق.

أجل لقد كنت أظن أنني فارقت الإحساس باليتم منذ أربعين سنة. فإذا أنا اليوم يتيم فوق الخمسين!!!

***

بطل في الدومنو

كان يوما أسود على رأسي ذلك اليوم الذي قررت فيه الإقلاع عن تدخين السجائر والتوجه إلى تدخين الشيشة، لأن تدخين الشيشة قد اضطرني إلى القعود على المقاهي والقعود على المقاهي جرني إلى القعود مع العامة وحيثما كان العامة كانت العشوائية واللغة غير المدروسة، وعليك حين تقعد معهم ألا تخطئ، أو تصحح، بل تقبل أحاديثهم كما هي بخلوها من المنطق وامتلائها بالخرافات، خصوصا حين يكون الذي يقص عليك قد عزمك على حجرين أو فنجان من القهوة.

ولكن قصصهم التي يروونها عن غيرهم أو عن أنفسهم لم تكن تخلو من طرافة، ومن عجائب العامة أنهم يتطوعون بأن يعزموك ثم يلزموك بأن ترد لهم العزومة بقطع النظر عما إن كانت ظروفك تسمح أم لا.

على أن اختلاطي بالعامة لم يكن هو النتيجة الوحيدة لقعودي على المقاهي، بل كانت هناك نتيجة أخرى ربما كانت ألذ وأطرف، هي تعمقي في لعب الدومينو.

فقد كنت قبل المقاهي أعرف الدومينو معرفة أولية، وكان مما حببها إلى نفسي ما قاله العقاد عنها إذ قال إن مدار اللعب في الكتشينة على ترتيب الأوراق، وفي الطاولة على رمية الزهر، وفي الشطرنج على إحكام الخطة العسكرية.

أما الدومينو ففيها كل شيء، فيها ما تعرفه أنت وخصمك، وما تجهلانه معا، وما يعرفه أحدكما ويجهله الآخر، للحساب فيها دور وللحظ فيها دور فكأن فيها كل ما في الحياة.

وتتكون الدومينو من ثمان وعشرين قطعة مصنوعة من الرخام أو البلاستك، يسميها العامة أوراقا، وتتضمن سبعة أرقام هي: ٠ ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦.

ويتكرر كل رقم سبع مرات فهناك ٠-١ ٠-٢ ٠-٣ وهكذا، أما قسمة هذه الأوراق فإن كل لاعب يأخذ سبع ورقات وتبقى أربع عشرة ورقة يتم السحب منها حين لا يكون مع أحد اللاعبين ما يوافق الورق الذي على الأرض.

ولا يجوز للاعب بمقتضى قواعد هذه اللعبة أن يرى ما مع زميله أو أن يرى ما وضع على الأرض للسحب منه فإن فعلها بطل الدور ووجبت إعادته، والذي يفرغ من أوراقه أولاً يكون هو الفائز، وعلى خصمه أن يعد مجموع الأرقام التي معه لتحسب في رصيد خصمه.

واللاعبون يرقمون هذه القطع بالأرقام الفارسية فيقولون يَك، دوه، سيه، جهار، بيش أو بنج، شيش وهذه هي الأرقام من واحد لستة.

ولأن أرقام الدومينو محفورة على القطع حفرا بارزا سهل علي أن أتعامل معها، وكنت في البداية خجلا من أن ألعب أمام الناس ثم لم يلبث أن زال عني هذا الخجل وأصبحت من مشاهير لاعبي الدومينو.

وكنت ألعبها هواية في أول الأمر، فلما أتقنتها انتقلت من طور الهواية إلى طور الاحتراف، أي من اللعب المجاني إلى اللعب على المشاريب.

وكان أصحاب المقاهي يسرون غاية السرور حين آخذ في اللعب لأن معنى هذا أن يجتمع الناس وتزدحم المقهى فيكثر الإقبال على طلب المشاريب، وكان ربما دعاهم هذا السرور إلى إعفائي من ثمن المشاريب التي شربتها أو

طلبتها لأصحابي، وكانت النشوة الغامرة التي تنتاب الناس وهم يشاهدونني وأنا ألعب تدعوهم إلى التعليق على كل لعبة بما ينفعني أو ينفع خصمي.

وكانت تحدث لنا مواقف طريفة في أثناء اللعب يتعجب الناس منها ويضربون كفا بكف، منها أنني كنت ألاعب رجلا فلما هممت بهزيمته أخذ يسرق ويبدل الأوراق، إلا أن حظي كان أحسن من حظه فهزمته هزيمة منكرة فصاح بأعلى صوته "يا عالم يا ناس سرقته وغلبني!!" ولاعبت رجلا فلما هممت بهزيمته ابتلع الدُش وهو الورقة التي تتكون من ستة وستة في الجانبين ليفسد الدور، وكان احتمال المغص أهون عليه من احتمال ثمن المشاريب.

وأذكر أن رجلا في عقله بعض الاختلال يسمى الطِعِم قال لي يوما "يا أستاذ نفسي ألعب معاك عشرتين" فقلت له "ما ينفعش يا طعم لأني إذا أنا غلبتك هايقول الناس لي انت يا دوب غلبت الطعم وإذا أنت غلبتني هيقول الناس دا حتى الطعم غلبك" ورفضت اللعب معه حرصا على سمعتي.

ومن طرائف ما وقع لي وأنا ألعب أنني كنت ألاعب رجلا على المشاريب وكان الناس من حولنا يصخبون كعادتهم، وفجأة سكت المقهى تماما كأنه أصيب بسكتة قلبية فأخذتني الدهشة خصوصا حين توقف خصمي عن اللعب.

فنهرته قائلا "ما تلعب يا حمار مالك؟" فقال لي مرعوبا: "البوليس كبس على القهوة"، لأن من طبيعة العامة أن يفزعوا من الشرطة حتى ولو لم يكونوا قد أجرموا، فنهرته قائلا: "إحنا مالنا؟!" فزال عن الرجل خوفه وبدأ يواصل

اللعب وكان الطريف حقا أن الضابط اتخذ لنفسه كرسيا وقعد يتابع اللعب حوالي ربع ساعة ونحن لا نعبأ به.

وليس معنى هذا أنني كنت لا أهزم، بل كانت تلحقني هزائم منكرة تجعلني موضعًا للسخرية، والمهم أن لعب الدومينو قد أكسبني شهرة شديدة في حيّنا إلى حد أن اللعب معي كان أملا يطمح إليه كثير من اللاعبين.

وكانت ثقة الناس بي ربما دعتهم إلى تحكيمي فيما يختلفون فيه أو أن ينادوا عليّ من بيتي لألعب مع من يعتقدون فيه أنه حريف.

ويوم اشتريت أول جهاز كمبيوتر منذ سنوات بعيدة نفضت يدي من الدومينو ولم أعد إليها إلى الآن.



بلاش يا ويكة

آه يا أحبائي لو رأيتم ويكة لعلمتم أنه عجيبة من عجائب الدنيا التي صارت أكثر من المتعجبين.

وويكة ليس اسمه بل هو الاسم الذي اخترته له ووافقني عليه الناس جميعا. والويكة هي البمية التي تم فركها بالمفراك وهي الأكلة المفضلة عند الفقراء من أهل الصعيد. ومن ثقلها سمينا صاحبنا ويكة. فهو لا يقل عنها ثقلا.

ولم نقنع بالتسمية بل اشتققنا منها مادة لغوية فإن قال أحدنا للآخر بلاش تويك علي فمعناه كف عن الابتزاز أو الرخامة.

كان ويكة لصا فاشلا ثم أصبح بنعمة الله نقاشا فاشلا!. أو قل كان لصا لا يعمل حسابا للقانون فأصبح لصا يعمل حسابا للقانون. فالسرقة وعدمها مرتبطتان عنده بالمحاذير. ولا علاقة لهما بتأنيب الضمير.

ولو رأيت ويكة لما انقطعت عن أن تسبح الله على عجائب مخلوقاته.

فالبشلة التي تقطع وجهه بالطول أشهر من خط جرينتش. وأسنانه المكسرة قد جعلت فمه أشبه ما يكون بمقهى قد حان تشطيبها في الثانية صباحا. والصلعة التي على رأسه تصلح أن تكون إعلانا لنوع ممتاز من السيراميك. وإذا أقبل عليك بوجهه يكلمك خيل إليك أنه مندوب وزارة الري. وأما ضحكته فتشبه توقيع الحجز على الدكاكين صباحا حين يقول الناس يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم.

يقترض الإفطار. ويتسول الغداء. ويسرق العشاء. ويستأجر المشاريب. هذا سوى الفقر والفشل والكلى والكسل.

وبالاختصار الناس من نسل آدم وأما ويكة فمن سلالة عبرة علي عبرة.

ومع كل هذا فإنه ينظر إلى نفسه على أنه علاوة قد صرفها الله للجنس البشري نتيجة اجتهادهم في القرن الأخير!! ويرى نفسه ترمبة عصير مثلج في الصحراء الغربية في يوليو، حيث المسافر أحوج ما يكون إلى الماء ولو كان عكرا، لهذا فهو يريدك حين تلقاه أن تستعمله أكل وشرب ومخلل وحلويات.

ولو كان نظيفا من داخله لهان الأمر ولكن الشيء الوحيد الذي يخلص له ويكة هو عدم الإخلاص.

إن ائتمنته على سر أذاعه. وإن ائتمنته على مال أكله فأضاعه. وإن أمرته بتسخين الطعام أكل من الحلة. وإن أسندت إليه عملا عمل منه أقله. وإن احتجت إليه اختفى. وإن استغنيت عنه رجع

وآه ثم آه حين كنت أحتاج إليه ليقرأ لي شيئا أو ليكتب لي شيئا هنالك يجد الفرصة المواتية ليطلب الطعام والشراب والدخان والمال كما كانت تنتفخ أوداجه وتصيبه أورام في صميم الروح. لأن كثيرا من وضعاء العامة من ذوي النفوس الرخيصة تنتابهم نرجسية حادة حين يحتاج إليهم من هم أرفع منهم منزلة.

على أن من إحقاق الحق أن أقول لكم إن هذه لم تكن سيرته معي وحدي. بل كانت تلك سيرته مع كل زبنائه الذين يعمل عندهم.

نعم كان يدخل على الزبون بالحنجل والمنجل مقنعا إياه أن هذه المقاولة سوف تتم على أعلى مستوى من الجودة بأرخص سعر في أقل وقت فما هو إلا أن يتقاضى العربون حتى تبدأ جولة التلويد.

فبعد أن يعمل يومين أو ثلاثة يبدأ في البلطجة.. الخامات لا تكفي. والوقت سوف يطول. والمصنعية لا بد أن تزيد. هذا سوى ما يطلبه من طعام ومشاريب ودخان.

فإن كانت في البيت بنات فإن ويكة لا يتورع عن مغازلتهن. فإن لم يذعن الزبون لطلبات ويكة ترك له العمل في منتصفه وإلهي تخرب ما تعمر.

ونوادره مع زبنائه لا تنقضي. فقد حدث أنه عمل عند رجل عجوز طيب. وكان الرجل يمتلك بندقية رش. فطمع فيها ويكة. فتوسل إلى صاحبها أن يعيره إياها بحجة أن في بيته فأرا. وأنه عاجز عن اصتياده. وبعد إلحاحه المعهود أعاره الرجل إياها. فما كان من ويكة إلا أن ترك العمل وتفرغ لصيد العصافير بالبندقية. وبعد حين مل هذه اللعبة فقرر بيعها. وبالفعل باع البندقية التي تساوي أكثر من ألف جنيه بثلاثين جنيها. وقلق الرجل بعد أن طال عليه الأمد. فأخذ يتصل بكل من له علاقة بويكة. ليتوسط لديه في رد البندقية. ثم لم يجد الرجل بدا من الحضور بنفسه. وبعد أخذ ورد. وجزر ومد اضطر المسكين إلى دفع الثلاثين جنيها للمشتري كي يسترد بندقيته.

وهذا شاب مهذب عهد إلى ويكة بأن يدهن له دولابا. فبقي الدولاب في حوزة ويكة ستة أشهر وظن أن صاحبه قد نسيه أو استغنى عنه فقرر بيعه لولا أن صاحبه وصل في الوقت المناسب لينقذ دولابه من يد ويكة بعد أن كاد يبلغ الشرطة.

وأذكر أنه عمل عند رجل ذي رتبة كبيرة وكان الرجل كريما شهما فجعل ويكة يتلكأ كعادته ويستنزفه كعادته طالبا كبابا وكفتة ودخانا وحليبا كامل الدسم. فما كان من الرجل الشهم الكريم أمام هذا السلوك الويكوي إلا أن أصابته الهستيريا فجعل يلطم خديه ويبصق في الهواء ويصيح بصوت مرتفع ويسب دين الشغل على دين الصنايعية وأخيرا طرد ويكة من العمل وهو في منتصفه.

وعمل ذات يوم عند ضابط شرطة فأخذ ويكة يسير معه سيرته المعهودة. حتى جن جنون الرجل فتوجه إلى مديرية الأمن واستخرج صحيفة سوابق ويكة وأخذ يوزعها في الشارع على من عرف ومن لم يعرف.!!

ولم تكن هذه هي حال ويكة مع الزبناء فقط بل مع أصحاب المقاهي والمطاعم والبقالين والصيادلة وكل من تربطهم به حاجات يومية أو أسبوعية.

فقد كان يدفع لهم حسابهم حين يكون الدفع هو الحل الأخير الذي ينجيه من علقة ساخنة أو خناقة لا يعلم إلا الله نهايتها.

وكان يحمل في رأسه جدولا للشوارع التي لا يجوز المشي فيها هربا من الديانة. ففي هذا الشارع مطعم شكك منه ويكة ولم يدفع له. وفي الشارع الثاني مقهى. وفي الشارع الثالث موان. وفي الشارع الرابع زبون لم يتم ويكة عمله وهكذا.

وكان يوكة يمارس نوعا آخر من الابتزاز يحسب في الابتزاز الناعم. فقد كان صديقا لبعض الأسر العشوائية فكان يقعد عندهم ساعات طوالا آكلا. شاربا. نائما أحيانا. مراودا لنسائهم عن أنفسهن أحيانا أخرى

وأما علاقة ويكة بالبنات والنساء فلم تكن تقل حلزونية عن علاقته بزبنائه والدكاكين التي يتعامل معها. فإن تعرف بفتاة ليست من حينا ولا تعرف أصله وفصله أخبرها أنه مهندس ديكور وأن لديه مكتبا وموظفين. وكان من النساء من يصدقنه. لأنه كان سخيا جدا مع النساء بخيلا جدا مع أصدقائه.

ولن أنسى أبدا ما فعله بفتاة كانت تعمل في أحد مكاتب الآلة الكاتبة فقد قرر أن يلفت نظرها. فكتب بيده خطابا موجها إليه من معهد جوتة يشكرونه فيه على جهوده في الترجمة من الألمانية إلى العربية والعكس وطلب منها أن تنسخه لأنه مستعجل.!!!

وتقدم إلى فتاة ليخطبها فكتب لها خطابا غراميا ملتهبا بعد أن وعدته بالتفكير في الموضوع. ثم لم يلبث أن قدم لها ذلك الخطاب. فقبلت الخطاب ورفضت الخطوبة. فجاءني منزعجا وهو يقول" شفت بنت الوس**؟ تصور رفضتني!" فقلت له يا ويكة امبارح كنت تقول لها أميرة أحلام ما أعرفش إيه. وقاعدة على سحاب ما أعرفش إيه والنهار دا بنت وس**؟!

وتعرف إلى أخرى فأهدى إليها ساعة من نوع حقير. فلما رفضت الارتباط به قال لها ببرودة منقطعة النظير: عايز الساعة لو سمحت.!!

أما عن علاقته بي أنا شخصيا فقد كانت علاقة غريبة إذ كان يفتخر بي لكنه يغار مني ويكرهني لكنه لا يطيق البعد عني. وليس هذا التمسك لميزة يراها في شخصي بل لأن علاقته بي كانت تعد إحدى مفاخره إذ كان من بقي من أصحابه إما مهنيين أو لصوصا.

والآن أيها القارئ ألمح على طرف لسانك سؤالا ملحا. إن كان ويكة بهذه الأخلاق فلماذا صبرت أنا على صحبته عشرين عاما؟.

وجوابي أن لهذا الصبر أسبابا عديدة. فمنها أنني كنت أحتاج إليه بعض الاحتياج قبل وجود الكمبيوتر وقبل نشاط جمعيات المكفوفين التي تسجل الكتب لهم أي لنا. ومنها أنني كنت أستعمله في بعض الأغراض المشبوهة.

وقبل أن يلعب الشيطان برؤوسكم فتذهبوا إلى ما لم أقصد ولم أفعل دعوني أبين لكم بعض هذه الأغراض. فمنها أنني فكرت في أن أجرب نفسي في كتابة الأغنية الهابطة. وذلك أن المرحوم الشاعر عبد الوهاب يحيى كان قد برع في كتابتها فأحببت أن أختبر قدرتي على ذلك. ولم يكن ممكنا أن أنسبها إلى نفسي فكان لزاما أن تكتب هذه الأغاني باسم ويكة ومن هذه الأغاني أغنية أقول فيها

قلبي من حبك يا كوتش...
خر زي السندوتش...
قول ألوه فوق سطح بيتكم...
قلبي يتحول سوتش...
ياإلي حبك فيَّ خَيِّش...
والغرام في عنيك يعَيش...
بردو محسوبك مريش...
عنده تلفيحة استرتش).
وكان الملحن الذي عثرنا عليه رجلا موهوبا في تلحين الأغاني الهابطة. لم يكن يكتب نوتة ولا يعزف على آلة موسيقية بل كان يكتفي بأن يقلب الصينية وينقر عليها بأصابعه ثم يرزع اللحن فينتشر.
وكان المفروض أن تكتب هذه الأغاني باسم ويكة على أن نقتسم ثمنها معا. وبالفعل وافق الملحن عليها ولحن بعضها إلا أنها لم تنتج لأسباب إنتاجية لا فنية.
ومنها أنني أردت اختبار الحياة الثقافية في مصر فجعلت ويكة يعمل صحفيا وكنت أعد له الأسئلة فإذا جاءني بالإجابات مسجلة قمت بإعادة صياغتها.
ومن عجب أن هذه الأحاديث الصحفية قد نشرت بالفعل وعليها اسمه.!!!
وكان كلما تعرف بفتاة أو تقدم لخطبة فتاة أطلعها على صوره مع الفنانين الذين أجرى معهم هذه الأحاديث الصحفية ليعظم شأنه عندها.
ومنها ما يخص ويكة نفسه فرغم أنه لم يحصل إلا على الابتدائية فإنه كان مغرما بالقراءة خصوصا كتب الأدب القديم وكان كلما أعجبه نص شعري أو نثري كتبه في كراس مستقل وحفظه عن ظهر قلب. حتى وهو في السجن أيام

اللصوصية كان يقضي يومه في مكتبة السجن ليقرأ. بل إنه علم نفسه مبادئ الإنجليزية.

ومنها أن ويكة كان بالنسبة لي درسا في الفلكلور وعلم النفس

فقد استنتجت من علاقتي به أن الإنسان إن لم يجد مبررات نرجسيته في الواقع استطاع أن يستخرجها من داخله.

واستنتجت من عشقه للكتب أن الموهبة أمر إلهي لا تعلق له بالتعليم ولا بالأسرة وأن في كل واحد مهما يكن منتميا إلى قاع الحياة بصيصا بسيطا من موهبة يتعهدها بالرعاية فتنمو أو يتركها فتموت. وإذا كان الله أعدل من أن يعطي أحدا كل شيء فإنه أرحم من أن يحرم أحدا كل شيء. كما استنتجت من علاقته بالناس أن الناس سريعو النسيان فبالرغم من المقالب الكثيرة التي عملها فيهم ويكة ظلوا يستعينون به من حين إلى حين.

كما استنتجت من علاقته بالقيم أن بعض الناس تربطهم بالقيم علاقة مرنة. لا إلى الولاء التام. ولا إلى القطيعة التامة.

بل يقبلون عليها أو يعرضون عنها حسب المناخ النفسي الذي يعيشونه أو الضغوط التي يتعرضون لها في الحياة. فهم مستمسكون بالقيم ما لم يعرض لهم عارض من فاقة أو نزوة.

وبالجملة تستطيع أن تقول إن ويكة كان بالنسبة لي موضع مشاهدة فلم تكن قصصه مع الناس تخلو من تسلية باردة أو صاخبة كما كنت أنا بالنسبة له موضع استغلال ورغم عشرات الأسافين التي تلقيتها من ويكة فإنني لا أكن له كراهية واليوم بعد أن كبرت سنه نسبيا. وساءت صحته بعض الشيء لم أعد أنظر إليه بوصفه لصا محتالا. بل بوصفه مسكينا نصف مريض. ونصف عاطل. لهذا أسمح له أن يغشى بيتي من حين إلى حين دون أن أتخلى عن الحذر

لا خوفا على ما معي من مال. بل حماية له من نفسه التي لا بد أن يزاولها الضعف القديم.هل انتهت القصة عند؟ لا لم تنته القصة عند هذا الحد. فبعد أن رجعت من اسطنبول وساأت حالي المادية وغشيني من الأمراض ما لم تكن لي به طاقة وتخلى عني إخوتي تماما لم يكن معي سوى ويكة يقوم على رعاية شأني من جميع الجهات. يشتري لي ما أحتاج إليه من الخارج. ويغسل ملابسي. ويعد لي الطعام. ويحتمل عصبيتي حين أتعصب. ويرد على التليفون حين أكون عاجزا عن ذلك. ويحقنني حين أحتاج إلى حقن مسكنة. وهكذا علمت أن لله حكمة في بقائه معي طول هذه السنوات. ولله من خفايا الأسرار ما لا نعلمه



لا يستطيع الناس أن يعيشوا بلا دين، ولا يستطيعون أن يتصوروا الدين بلا مجهول، ولا يستطيعون أن يتصوروا المجهول إلا بوساطة مادية. وهذه الوساطة المادية إما أن تعلن عن نفسها من خلال رجل يدعيها، أو أن يلتمسها الناس في ذي عاهة، على أساس أن الله قد جعل له قدما راسخة في عالم الغيب بما أخذ منه.

لهذا لن تجد دينا على الأرض لم يلصق به الناس معنى من معاني الخرافة، فهذه هي إحدى الضرائب التي يجب أن يدفعها المجهول للوعي العامي البسيط.

ولأني –بوصفي رجلا كفيفا– أعرف هذا منذ عهد بعيد لم أدهش قط من أن يلصق بي الناس ما ليس في، فهذا يسألني الدعاء، وذاك يطلب مني أن أخبره بما إن كان سوف يوفق في عمله القادم أم لا؟ وهذه العقيم تريد جنينا، وهذه العانس تريد زوجا، وهكذا.

وكان من أعجب ما وقع لي في هذا أن امرأة مسيحية أتتني تطلب مني أن أقرأ لها عدية ياسين، عسى أن يعود إليها ما فقد منها!!.

وكان من أغرب معارفي رجل تستطيع أن تقول عنه بمنتهى الاطمئنان إنه مشروع حمار وفشل، فقد كان يضحك وحده وينصرف في منتصف الحديث بلا استئذان.

وكان كلما لقيني قال لي أنا مربوط يا مولانا، فك لي الربطة، أي أنه عاجز جنسيا، لا بسبب مرض عضوي بل لأن الجن يحولون بينه وبين الانتصاب،

فلما أبلغني مبلغ الملل مضيت إلى أحد العطارين المشاهير واشتريت منه ما يسمى نسخة أعصاب، وهي عطارة مركبة من حوالي ثمانين صنفا، يتم وضعها على النار بعد تذويبها في العسل الأبيض.

وقلت له إن أردت أن تفك الربطة فخذ من هذا ملعقتين كل يوم، ملعقة في الصباح، وملعقة في المساء، فلما عملت فيه العطارة عملها لم يشك أنني من الأقطاب الذين هم أرفع طبقات أولياء الله الصالحين.

وحدث أنه أتاني ذات يوم فزعا يقسم علي بالله أن أخرج معه الآن لأن فتاة من أقاربه عليها عفريت قد أصابها بالشلل. وتحت إلحاحه الذي ظاهره سذاجة وباطنه سماجة لم أجد بدا من الذهاب معه.

وكان القوم الذين أخذني إلى بيتهم قوما عليهم قشرة من دين، قد زادهم الغنى إحساسا بالفقر فبيتهم ممتلئ بالكماليات خال من الجماليات.

كانوا قد أقعدوا الصبية في الصالة، مشلولة الرجلين، لا يكاد صوتها يسمع، فأبديت لها وجها كالحا، ثم طلبت كوبا من الماء وتلوت عليه سرا تلاوة طويلة ثم ارتعش بدني وأنا أقول للفتاة اشربي بإذن الله، فلما شربت أمسكت بيدها، ثم قلت لها ببدن أشد ارتعاشا وصوت أشد خشونة وارتفاعا: قومي بإذن الله، فقامت معي، فضج البيت بالزغاريد، وجعل بعضهم يقول لبعض: الشيخ استطاع أن يخرج العفريت، ويشفي الفتاة، وطلبت أن أخلو بها، وحين خلوت بها سألتها: هل أنت متزوجة؟ قالت: نعم، فقلت :هل بينك وبين زوجك أو أهل زوجك مشاكل؟ قالت: نعم، فنصحت لها أن تتفاهم مع زوجها وأن تعود إلى بيتها.

وذلك أنني كنت قدرت منذ اللحظة الأولى التي دخلت فيها هذا البيت أن الفتاة مصابة بشلل هستيري، أنتجته مشكلات لم تستطع هي حلها، أو مواجهتها، أو تناسيها والتهرب منها، وأدركت أن ما جاء بالإيحاء لا يزول إلا بالإيحاء.

وكان مما عظمني في أعينهم أنني رفضت تماما أخذ أي مال، ثم انصرفت عنهم وعلى شفتي ابتسامة توشك أن تكون طوفانا يكاد يبتلع وجهي، وضحكا لا يكاد ينقطع، وفي نفسي عجب لا يكاد ينقضي، لأنني ما تلوت سرا في كوب الماء الذي شربته الفتاة إلا أبياتا من شعر نزار قباني، وتأكد لي ما كنت أعرفه من قبل، وهو أن قدرا من الخرافة قد يصلح لأن يدخل على نفوس العامة قدرا من السكينة.

***

بياع جرايد

يا إلهي!!! لو كانت حياتنا بلا مغامرة لكانت بلا اكتشاف، ولو كانت بلا اكتشاف لكانت بلا إنجاز، ولو كانت بلا إنجاز لكانت بلا تقدم، ولو كانت بلا تقدم لأصابها الشلل في مقتبلها، ولو أصيبت بالشلل لكانت معنى من معاني الموت. وما ذاك إلا لأن المغامرة هي ذلك الميزان الحساس الذي يقاس به عمق تجارب المجربين.

فالمغامرون في كل زمان ومكان لا يفزعون من الخطأ لأنهم يعلمون أنه لولى السؤال لما كانت الإجابة ولولى الخطأ لما كانت الإصابة، فما من صواب نهتدي به أو نهتدي إليه إلا وهو ابن شرعي لخطأ لا نعرفه أو لا نقصده.

لهذا عشت حياتي كلها مغرما بالمغامرة مهمى كلفتني، ومن تلك المغامرات التي قد يحسبها بعض الناس في جانب الحماقة إقدامي على بيع الجرائد رغم أنني عرضة للسرقة والاحتيال من النصابين أو من ضعاف النفوس وإن لم يكونوا نصابين.

ففي إجازة السنة النهائية من المرحلة الإعدادية أقدمت على أن أمتهن بيع الجرائد ولم يكن الأمر بحاجة لا إلى رأس مال ولا إلى محل.

كل ما فعلته أنني مضيت إلى المعلم سيد متعهد الجرائد في حينا وطلبت منه أن يعطيني حزمة من الجرائد والمجلات لأقوم ببيعها مقابل أجر معلوم.

وكان طبيعيا أن يسألني المعلم سيد عن الطريقة التي سوف أتبعها في بيع هذه الجرائد ليطمئن على بضاعته، وحين شرحت له طريقتي اطمأن وجعلنا اليوم التالي موعدنا لأتسلم حصتي من الجرائد والمجلات.

وفي الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي كنت ماثلا أمام المعلم سيد لأتسلم حصتي، وكان علي أن أحمل قفصا عليه الأهرام، والأخبار، والجمهورية، ومايو، والوفد، كما كان على القفص بعض المجلات الأسبوعية أو الشهرية مثل الهلال، والمصور، وحواء، وآخر ساعة، عدى بعض سلاسل الكتب مثل عالم المعرفة الكويتي.

وكان علي أن ألزم الحيطة والحذر وأنا أقطع الطريق من موضع المعلم سيد إلى بيتي فيجب أن تكون خطواتي مدروسة لألا أقع في حفرة أو أصطدم بإحدى العربات الضخمة الواقفة في الشوارع.

وحين أصل إلى بيتي علي أن أضع القفص الذي عليه هذه الرصة الضخمة برفق ثم أعود فأحملها بيد واحدة وفي يدي الأخرى كرسي ومنضدة وأن أتوجه بهذا كله إلى الموضع الذي اخترته لأبيع فيه الجرائد.

وحين أجلس للبيع كان علي أن ألزم لونا آخر من الحيطة والحذر مع الذين يشترون مني مخافة أن يقوم بعضهم بسرقة شئ، فكنت أضع كلتا يدي على الرصة كلها حتى حين أبيع فإنني أبيع بيد واحدة وبالأخرى أسلم الجريدة أو المجلة وبنفس اليد أقبض ثمنها.

وكان هذا العمل بالنسبة لي مربحا من جهتين: أولا من جهة التعامل مع الناس فقد أكسبني خبرة لا بأس بها بالبيع والشراء، كما أطلعني على نماذج من البشر ربما لم يكن متاحا لي أن أراها لو لم أمتهن هذه المهنة.

ثانيا من الناحية المادية إذ كان العدد الواحد من الجرنال يباع بثلاثة قروش ومعنى هذا أن من سوف يعطيني خمسة قروش سوف يأخذ مشط كبريت عوضا عن الباقي الذي هو قرشان، وفي هذا مكسب غير قليل لأن مشط الكبريت كان يباع بتعريفة.

فإذا أضفت إلى هذا الأجرة التي أتقاضاها من المعلم سيد نظير بيع الجرائد والمجلات أمكنك أن تتخيل المبلغ الذي أحصل عليه كل يوم فكان لزاما أن تتسع نفقاتي كما اتسعت مكاسبي.

فلا تسل عن سندوتشات الكفتة، وسندوتشات الكبدة، والمياه الغازية، والسجائر المحترمة التي لا خشب فيها.

وكان هذا العمل مجهدا بحق لأنه كان يتطلب مني أن أصحو في الرابعة صباحا وأن أبقى منتبه الذهن من الخامسة صباحا إلى حوالي الواحدة ظهرا، إلى أنه لم يكن يخلو من طرافة فقد كان بعض الشباب يجتمعون إلي ليسمعوا حديثي، كما كان فرصة سانحة لمغازلة المزز، فإذا أتت فتاة واشترت نسخة من جرنال وأصرت على الباقي رافضة مشط الكبريت فإنني أشرح لها فوائد الكبريت منها أنك تشعلين به البابور أو البتجاز فلا تحتاجين إلى التسول من جارتك، ومنها أنك تشعلين به شمعة إن انقطع النور فلا تصابي بالفزع في

الظلام، ومنها أنك تنتحرين به إن فشلت في الحب، فلا تجد بدا من أن تضحك تاركة لي ما تبقى من الشلن.

وكان لي جاران طريفان أحدهما يستعير جرنال الأهرام فيقرأه كاملا ثم يرده إلي متكسرا لا يمكن بيعه ومعنى هذا أنني أنا الذي سوف أدفع ثمنه، والآخر يشتري نسخة أهرام ثم لا يعطيني ثمنها حتى أرسل إليه خمس أو ست مرات!! وكان منهم من يشككون ويدفعون بالأسبوع.

ولن أكتمكم القول كان أهل حينا يساعدونني في بيع الجرائد فمنهم من يعد معي النقود التي بعت بها، ومنهم من أتركه أمام المنضدة حتى أدخل الحمام، ومنهم من أرسل معه المرتجع إلى المعلم سيد والحق أقول لكم لقد كانوا في منتهى الأمانة.

وحين أعلنت نتيجة الشهادة الإعدادية وأعلنت الجرائد أنني الأول على مكفوفي الجمهورية في المعاهد الأزهرية وطلبت للمثول بين يدي شيخ الأزهر الدكتور عبد الرحمان بيسار وتسلمت منه بالفعل جائزة قدرها ثمانون جنيها وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت حتى مع هذا لم أترك مهنة بيع الجرائد بل بقيت أبيعها إلى أن حلت السنة الدراسية الجديدة.



ثلث قلبي

قاتل الله رئيس التحرير، فلولاه ما كانت هذه الجريدة، ولولى هذه الجريدة ما كان هذا الباب، ولولى هذا الباب ما كتبت، ولولى الكتابة ما تذكرت ولولى التذكر ما توجعت.

إنها أيام حلوة مرة قديمة ترجع إلى أكثر من ثلاثين عاما، إن قلت إن عيبها هو أنها اليوم مفقودة فقد صدقت، وإن قلت إن مزيتها أنها لم تعد موجودة فقد صدقت.

نعم هي أيام الصبا الأول، إذ كان كل شيء نتفاعل معه من حولنا صغيرا مثلنا، أحلامنا يوم نحلم، ونجاحنا حين ننجح، وفشلنا عندما نفشل.

وقل مثل هذا على منافساتنا وعشقنا وكرهنا وخصامنا وصلحنا كل شيء صغير تخلقه اللحظة الحالية وتذهب به اللحظ التالية.

من بين شباب عائلتنا التي لا تكاد تحصى وشاباتها كان لي صديقان مقربان يشتركان معي في نفس الفرقة الدراسية وهي الفرقة الأولى من المرحلة الإعدادية.

أحد هذين الصديقين هو عماد ابن خال أمي والآخر هو يحيى ابن خالتها، لست أذكر بدقة الظروف التي أصبحت فيها صديقا لعماد فإن أسرته لم تكن منغلقة كل الانغلاق ولكنها أيضا لم تكن منفتحة كل الانفتاح على مجتمعنا العائلي الكبير.

كانوا يرحبون بمن يزورهم كل الترحيب ولكنهم لا يصرون على زيارته، وذلك لأن خالي مصطفى أبا عماد كان متشددا في حياته بعض التشدد وكان عمله كسائق في إحدا الشركات الكبرى يقتضيه أن ينام مبكرا جدا بحيث لا يقدر على السهر مع ضيوفه إن زاروه ليلا وكان فوق هذا قليل الضحك والكلام لا يكاد يصبر على المزاح قولا أو سماعا إلا قليلا مما تحصيه على أصابع يدك الواحدة.

وعلى هذا القدر من التحفظ نشأ عماد وإخوته، فكنت لا تكاد تراهم إلا في المناسبات العائلية السارة كالأفراح أو المحزنة كالمآتم، أما عماد نفسه فقد كان خفيفا لطيفا يعرف كيف يستقبل الكلمة المضحكة، وبعد أن توطدت علاقته بي وبيحيى أصبح ودودا كثير الزيارات للأهل والأقارب.

وعلى عكس ذلك كان أبو يحيى، كان حرفيا شهما حشاشا ضحوكا ثرثارا يزور ويزار، وكان يتخذ أولاده أصحابا له لهذا رباهم على الحرية التامة، ولم يكن عنده مانع من أن يبقى ساهرا مع ضيوفه إلى الصباح إن استطاعوا هم أن يسهروا.

وعلى هذا المبدأ نشأ يحيى فلم يكن يتعامل مع الناس بأي قدر من التحفظات ولهذا فقد كانت شعبيته أعلى في العائلة، كان يحيى خفيف الروح عالي الصوت أنيقا في مظهره يضاحك من عرف ومن لم يعرف وكان الناس يقبلون منه هذا لأن مزاحه كان حلو المذاق، وكان يحب الكرة ويعشق البنات، وكان أثقل شيء على قلبه هو المذاكرة إلا أنه كان حين يفهم معلومة أو يحفظها فإنها لا تخرج من مخه أبدا.

بدأت علاقتنا نحن الثلاثة فاترة ثم اشتدت في زمن قياسي، فأصبحنا نذاكر معا، ونخرج معا، ونأكل ونشرب معا، بل كنا نبيت معا أحيانا، فكان ثلث قلبي لعماد وثلثه ليحيى وثلثه الباقي لمن بقي من الناس. وكان يحيى وعماد قد سبقاني إلى التدخين وخبصت عليهما أكثر من مرة ثم أصبحت مدخنا مثلهما.

وحين علمت العائلة كلها أننا مدخنون حاولت أسرة عماد أن تمنعه عنا فلم تستطع لأنه كان يلقانا سرا، وبعد أن يئست أسرته من منعه عنا تركتنا نلتقي كما نحب.

وكانت أيام المذاكرة ولياليها من أحب الأيام والليالي إلينا لأننا كنا كبقية شباب الدنيا نتحدث عشر دقائق عن المذاكرة وعشر ساعات عن البنات فضلا عن الضحك والسخرية مما مر بنا خلال اليوم.

وأذكر أننا كنا نذاكر ذات ليلة وطال علينا الليل وأجهدنا الجوع فتطوع يحيى أفندي بأن يعد لنا حلة مكرونة، وبعد مرور فترة من خبط الحلل ورزع الأطباق وتحريك الملاعق والشوك والسكاكين أتانا جنابه بالمكرونة عبارة عن كتلة واحدة في الحلة فأخذنا نضع الملاعق بين الكتلة وبين الحلة حتى أمكننا أن نحدث فراغا بينهما فإذا أردت أن تأكل منها فإن عليك أن ترفع الكتلة وتقضم منها ثم تردها إلى الحلة ليقضم منها غيرك وهكذا.

ولا تسل عن المغص والإسهال اللذين تبعا هذه الأكلة ولكن الجوع هو أعظم فاتح شهية في العالم، وفي ليلة أخرى نفدت سجائرنا فنزلت أنا ويحيى لنتسول بعض السجائر من المدخنين الساهرين حتى جمعنا منها ما ظننا أنه يكفينا إلى الصباح ورأينا أن مرارة التسول أهون علينا من المذاكرة بلا تدخين، أما عماد فقد كانت حاله مع السجائر صعبة، ذلك أنه لم يكن يحب أن يدخل بيته بعلبة السجائر لألا يراها أبوه، فكان يدفنها في مكان معلوم وكانت له جارة خبيثة

لها ابن مدخن فكانت تنتظر حتى يدخل عماد بيته ثم تنقب عن العلبة وتستخرجها لتعطيها لابنها.

وكنا نذهب نحن الثلاثة إلى فصول التقوية الليلية المشتركة لا لأننا كنا ضعفاء في الدراسة بل لأننا كنا ضعفاء في البنات وذلك لأن الإنتاج المحلي من البنات في عائلتنا لم يكن عالي الجودة.

على كل حال مر العام ونجحنا نحن الثلاثة وعلمت العائلة أننا أشقياء لكن مجتهدون، وكم كان أقاربنا يفرحون بنا حين نزور من نزور منهم لأننا كنا نضفي على جو البيت بهجة منقطعة النظير، وفي إجازة نفس العام تعرفت في بيت يحيى إلى الآنسة ن.ع وكانت فتاة عادية لا جميلة ولا قبيحة ممتلئة الجسم صغيرة اليدين خشنة الشعر يقف صوتها في المنطقة الوسطى بين الجمال والقبح.

كانت أمها تكفلها هي وأخاها من عملها البسيط ولم يكن أخوها طموحا بأي معنى من معاني الطموح، لهذا ترك الدراسة سريعا وعمل موظفا صغيرا في إحدى الشركات.

أما هي فكانت أشد طموحا من أخيها، إلا أن طموحها لم يذهب أبعد من الحصول على شهادة عليا ثم الزواج، ولم تكن عاشقة للثقافة وإن لم تكن كارهة لها، وكان يطيب لها أن تتزين بالإكسسوارات الرخيصة طلبا لمعنى الجمال من ناحية واستنفادا لما يتيحه الواقع من ناحية أخرى، وكل رخيص في حياة الفقراء قيم إن أصابوا منه متعة أو إفادة.

ولما لقيتها أول مرة في بيت يحيى انفتح قلب كلينا على الآخر بما جمع بيننا من الفقر والحرمان والاجتهاد في الدراسة، ودخلت ن.ع في حياتنا أنا ويحيى وكانت تتعمد هي أن تذهب إلى بيته كثيرا مع أمها كما كنت أتعمد هذا أنا أيضا.

كنت أنا وهي ويحيى وأحيانا عماد نذاكر معا وقد نخرج معا وكان أهلها يطمئنون عليها مع يحيى لأنه كان أخاها في الرضاعة، وسرعام ما ضمت ابنة عمها إلى مجموعتنا فأصبحنا نذاكر معا كل ليلة.

وفي الفرقة الثالثة من المرحلة الإعدادية ارتكب عماد ويحيى مغامرة حمقاء لا أعرف إلى اليوم سببها، فقد ذهبا برفقة شخص ثالث إلى بور سعيد وبقيا هناك ثلاثة أيام، وحين عادا من رحلتهما أكل عماد علقتين ساخنتين إحداهما في المدرسة والأخرى في البيت، أما يحيى فلم يأكل إلا علقة البيت.

وحين ذهبت إلى يحيى لأزوره ودخلت عليه غرفته كان عماد قاعدا عن يمينه وعم يحيى الحاج سعيد قاعدا أمامهما وأخذ الحاج يعطي يحيى دروسا في الأخلاق ويأمره أن يبتعد عن ابن مصطفى الذي هو عماد ولم يكن قد رأى عمادا من قبل فأخذ يلتفت إليه من حين إلى حين قائلا أهلا يا ابني باين عليك متربي!! فلما خرج عنا الحاج قال عماد ليحيى عمك دا راجل معرس.

المهم أن هذا العام قد مر علينا بصعوبة وحصلنا جميعا على الشهادة الإعدادية إلا أننا تفرقنا كل في طريق، كانت ن.ع تريد أن تتعلم في الأزهر لما يوفره من مجانية نظرا لفقرها، إلا أنها لم تفلح بسبب القرآن، ودخل عماد مدرسة الصنايع فأصبح له أصحاب جدد وإن كان لم ينقطع عنا كل الانقطاع.

أما يحيى فقد أصر على استكمال الثانوية العامة ولما كان مجموعه ضعيفا فقد دخل مدرسة خاصة وبقيت أنا في الأزهر ولم يطرأ علي أي تغير.

وبدأنا نحن الثلاثة نلهج بقصص الحب التي نشأت بيننا وبين الأخريات، تلك القصص التي أنضجها السهر، وحلاها شرب الشاي، والقراءة المشتركة، والسمر في أوقات الراحة والصراع في الأسئلة والإجابات، وما يتخلل ذلك من ضحكات أو تذكر أغنيات قديمة أو كلمات تحتمل أكثر من معنى.

كانت بيني وبين الآنسة ن.ع قصة حب قد ولدت عجوزا بين فتيين صغيرين، قصة قد أنقصها الصغر، وأجهدها الفقر، وحد من انطلاقها وبالتالي من حلاوتها شعوري وشعورها بالمسؤولية.

فقد كانت أمها تعمل لتكفلها كما كانت أمي تعمل لتكفلني، فلم تكن ظروفنا تسمح بأن نسترسل مع الحب مخافة أن نرسب عاما يكلفنا نفقات نحن في غنى عنها أو في أمس الحاجة إليها لننفقها في وجوه أخرى.

لهذا كنت وإياها نقنع بأقل القليل مما يتمادى فيه العشاق كإطالة المصافحة أو أن ينطق أحدنا اسم الآخر برقة زائدة، وكان يحيى يحب ابنة عمها التي كانت تافهة لطيفة لا تكف عن الضحك بمناسبة وبغير مناسبة وكانت تشاركه في كره المذاكرة.

أما عماد فكان يحب فتاة من العائلة،، وكنت أنا ويحيى لا نحبها ولكننا كنا نتغزل فيها لنغيظه وكان يغتاظ بالفعل، خصوصا حين نلقاه في الطريق إلى بيتها وهو عائد منه فنتجاهله ثم نمضي إلى بيتها لنسألهم عنه زاعمين أننا لم نره منذ أيام وأننا جئنا خصوصا من أجله.

وكنا أيامها مقتنعين بحسبة بسيطة مؤداها أننا سوف نذاكر، ثم نتخرج، ثم نعمل، ثم نتزوج، ولكن الأيام بعثرتنا في كل اتجاه، فقد رسب يحيى في الثانوية العامة وعمل نقاشا، وذهبت أنا إلى دار العلوم وعمل عماد عملا أبعده عنا كثيرا ودخلت ن.ع الحقوق وعملت محامية بعض الوقت ثم تزوجت رجلا أرمل قليل التعليم له ثلاثة أطفال، وسبب ذلك فيما أعتقد أنها في معيشتها مع أمها وأخيها الطري الذي ليست له حيثية كانت هي تفتقر إلى مثال الرجولة الآمرة الناهية.

ومضى كل في سبيله ولكننا كنا نجتمع من حين إلى حين. بعد حصول عماد على دبلوم الصنايع التحق بالخدمة العسكرية وكذلك فعل يحيى حين حان موعدها بالنسبة له.

وكنت أنا القاسم المشترك بينهما إذ لم تكن مواعيد نزولهما من الخدمة العسكرية متناسبة، فكان كلاهما يسألني عن الآخر ويعرف أخباره مني.

وقبيل أن يحصل عماد على شهادة إتمام الخدمة العسكرية أرسلتني أمي لشراء شيء يخصها، وفي طريق عودتي إلى بيتي ناداني عماد بصوت متوسط لا مرتفع ولا منخفض فالتفت وتبسمت له دون كلمة مني.

ورجعت إلى بيتي وفي ظني أنه سوف يلحق بي، ولما لم يلحق بي ظننت أن عائقا قد عاقه عن ذلك فقلت في نفسي غدا ألقاه. وفي صبيحة اليوم التالي صحوت على صراخ أمي وهي تقول لي عماد مات!!.

وأحسست حين سمعت هذه الجملة أن أحدا سرقني مني، عجزت عن سماع الصياح وسمعت أصواتا لا وجود لها. وعجزت مؤقتا عن الحركة والفهم والتكلم، عماد مات؟ ما معنى مات؟ أي أنه لن يكون معنا بعد ذلك؟ ولن أسمع مرة أخرى ضحكاته المفعمة بالطيبة؟.

وازددت ذهولا حين علمت أنه قد قتل واشتد ذهولي حين علمت بسبب قتله. لقد قتل من أجل قفص خبز فارغ يأخذه الناس من المخابز ليحملوا عليه خبزهم إن كان كثيرا، الأمر الذي لا يستحق مشاجرة ترتفع فيها الأصوات فضلا عن القتل.

وبقي إحساسي حينا من الدهر رافضا أن يصدق الحادثة فكنت أتفقده حيث أظن أني أجده، أو أنتظره في الأوقات التي اعتاد أن يزورني فيها، ولكني لم أجده حيث تفقدته لا ولا رجع إلي في الأوقات التي كان يزورني فيها، وكنت أظن أنني واريت ثلث قلبي في التراب مع عماد كما كنت أظن أمه من شدة حزنها سوف تلحق به أو أنها سوف تجن على الأقل، لكن الأيام التي تنسينا مذاق الفرحة الكبيرة هي هي الأيام التي تأخذ منا مذاق الحزن العظيم.

***

جائزة الحمار

كانت إجازة الصيف طويلة مملة لأنني لم أكن أمتلك مكتبة سمعية ضخمة ولا جهاز كمبيوتر كما هي الحال الآن. وكان كل قارئ متطوع لا يزيد في القراءة على بضع صفحات ثم يدركه التهاب في الحواجب وانتفاخ في الخدود يمنعه من الاستمرار في القراءة.

لهذا كنا نبحث عن أي شيء نقضي فيه أوقاتنا، وكان عم سيد البقال يفتح دكانه طول الليل فكان يطيب لنا القعود عنده والسمر معه ومع أصحابه.

وكان عم سيد رجلا متعلما، متدينا، متهتكا، حشاشا، ضحوكا، نماما، أمينا، شهما، قصاصا حسن الحديث، صادقا، كذابا معا. فإن قلت إنه كان فَتَّة آدمية كنت على صواب.

وكان أول معرفتي به أنني كنت في رمضان من الرمضانات أمضي قبيل الفجر إلى بيت صديق طفولتي وعمري طارق سلامة ذلك البيت الذي كان يقع مباشرة أمام دكان عم سيد، وكنت أصفر له فيخرج لي ثم نمضي لنختبئ وراء أخشاب مشروع كان قيد التجهيز لكي ندخن آخر سيجارتين قبل مطلع الفجر وبعيدا عن أهالينا.

وفي إحدى هذه الليالي وبينما نحن عائدان من التدخين صاح بنا عم سيد بصوته الأجش جدا (بتعملو إيه يا ولاد ورا الخشب؟ أكيد بتعملو حاجة قلة أدب!!!) وارتعش بدني جدا لهذا الحديث أولا لأن الشذوذ الجنسي لم يكن قط من نشاطاتي منذ كنت طفلا إلى الآن بل إن مجرد الحديث عنه يثير اشمئزازي، ثانيا لأنني كنت أعلم أن الإشاعة مثل خيط العنكبوت حين تقع فيه حشرة صغيرة فإنها لا تستطيع الفكاك منه.

وحاولت أن أشرح لعم سيد سبب اختفائنا وراء الخشب كل ليلة وهو يبدي عدم التصديق، إلا أن نفسي سكنت بعد أن وجدت طارقا يضحك حين أشار إليه عم سيد بيده ثم علمت أن هذه كانت حيلة منه ليكتسب صداقتنا ومنذ تلك الليلة لم نعد نقعد إلا أمام دكان عم سيد من أول الليل إلى مطلع الفجر.
وسرعان ما تعمقت الصداقة بيني وبينه وكانت بيننا مناقشات ممتعة في شتى فروع المعرفة وكان أسعد أوقاتي حين يعهد إلي عم سيد بأن أكنس أمام المحل أو بأن أقوم برص زجاجات المياه الغازية في صناديقها متحديا أصحابه والحاضرين أنني لن أضع زجاجة في غير صندوقها فلم أكن أخذله.
وكان عم سيد يحبني حبا جعله يدعوني إلى الأكل معه كلما حان حين الطعام كما كان يعطيني السجائر على سبيل الشكك ولا عليه أن أعطيه ثمنها أو لا أعطيه إلا أنني كنت ألزم نفسي برد ثمن السجائر.
وكان أصحاب عم سيد لا يقلون عنه غرابة، كان منهم محمد حماد ذلك الفاكهي المتجول وكان صعيديا لا يصلح لشئ ولا يكاد يفهم الجملة البسيطة وكان ينطق الشين سينا فلا نكاد نتوقف عن الضحك كلما تكلم.
إلا أنه كان لا يهزم في الضمنو كما كان يحسن القصص التي تشيد بالحشاشين وتجعلهم أبطالا يصلحون للخروج من كل مأزق، وأذكر أنني لاعبته ذات ليلة ومر بنا البوليس وهو في طريقه إلى بيت أحد أفراد الجماعات الدينية ليقبض عليه فسكت محمد سكوتا عجيبا ثم لم يلبث أن صدرت عنه رائحة كريهة وتبين لي وللجماعة بعد انصراف الشرطة أنه حين أبصر الشرطة فقد النطق مؤقتا واستولى عليه الفزع فتبول في ثوبه.
وكان منهم المعلم حسين سأسأ الذي حدثتكم بحديثه من قبل، وكان منهم الحاج جميل الذي لا يكف عن الكلام في الدين كما لا يكف عن مغازلة

النساء، وكان منهم صهره إبراهيم الذي آواه عم سيد وأعطاه ما يبيعه أمام الدكان كما سمح له بأن يبيت في المحل آخر الليل، وكان هذا الرجل مقطوع اليدين مريضا بالقلب، وكان مرضه هذا يدر عليه دخل لا بأس به لأنه كان يفضي بأسرار مرضه للفاشلين من طلبة الطب ليتحدثوا بها أمام أساتذتهم فينجحوا على ما رأينا في فلم طالع النخل.

ومن أعجب ما وقع له أنه رغم يديه المقطوعتين وقلبه المريض ضبط وهو يقبل بائعة الفجل التي كانت تجلس على مقربة من الدكان ولله في خلقه شئون.

وكان منهم ناصر الفكهاني وله قصة طريفة ذلك أنه كان يبيع فاكهته على حوالي ست عربات متراصة يبلغ ارتفاعها أكثر من متر كما يبلغ طولها أكثر من ستة أمتار. أي أن مجرد نصبها أو فكها وتحميل الفاكهة عليها ورص الفاكهة فوقها يحتاج إلى ساعتين على الأقل.

وحدث أنه قعد يحدثنا ذات ليلة عن أهمية حرص التاجر على بضاعته قائلا (الواحد لازم ينام زي الديب عين مفتحة وعين مغمضة أنا بابقا نايم وسامع إلي ماشي على الرصيف التاني أصل إلي يتسرق دا يبقا خرنج) وبعد ذلك بليلتين أو ثلاث نام ناصر وراء فاكهته كما هي عادته ثم أصبح فوجد الدنيا أمامه خلاء ليس فيها خشبة من عربة أو قشرة من فاكهة أي أن اللصوص استغرقوا أكثر من ساعتين في فك العربات وتحميل الفاكهة والمغفل نائم!!!.

وذات ليلة كان أحد باعة الفاكهة قد نام أمام المحل وربط حماره في عربته فقلت لعم سيد نفسي أركب هذا الحمار وكان عم سيد يحبني جدا فقال غالي والطلب رخيص.

وبالفعل ركبت الحمار وفي إحدى يدي لجامه وفي الأخرى عصى أقوده بها، وكنت كلما هممت أن أعيش في دور الفرسان وأنشد بيتا لعنترة رفع الحمار قدميه الخلفيتين فمنعني الفزع من إكمال البيت.

وأراد عم سيد أن يختبر قوة تركيزي فقال لي إن ذهبت إلى بيتك بالحمار ورجعت فلك علبة سجائر على سبيل الجائزة.

وكان شرطه ألا يعينني أحد على شئ لا بأن يوجه الحمار ولا بأن يصف لي الطريق، فقبلت الرهان وأرسل من خلفي من يؤكدون له أنني قد قمت بتنفيذ هذه الشروط على الوجه الأكمل، وحين بدأت الرحلة ضربت الحمار بالعصى ضربة خفيفة فانقاد لي بسهولة، وجعلت أنعطف به ذات اليمين وذات الشمال قياسا على ما أفعله حين أمشي على رجلي.

وكنت كلما مررت على قوم من الساهرين اتبعني فريق منهم فما وصلت إلى بيتي حتى كان السائرون من خلفي كثيرين جدا يحدثون صخبا مسموعا.

وأخيرا وصلت إلى بيتي ووقفت عنده دقيقة ليتأكد فريق المراقبة أنني لم أهتد إليه بالصدفة، ثم رجعت بنفس الطريقة وربحت الجائزة وظل حديثي أنا والحمار هو حديث حينا وحديث أصحاب عم سيد فترة طويلة وليرحم الله أيام الشقاوة.



حالة ذهول

كانت صديقتنا ا.م سيدة غنية بمالها كما كانت غنية بنفسها، كان أقدر شيء على أن يجري دموعها من عينيها مدرارا هو أوجاع المستضعفين عموما والمكفوفين خصوصا. لهذا كانت تسمي نفسها صديقة المكفوفين ولم يكن يغمض لها جفن حين تعلم أن كفيفا يعاني من مشكلة إدارية تعوقه عن عمله.

هنالك تتصل بكل إدارة، وكل موظف، وكل مسؤول، وتبذل في ذلك عشرات الاتصالات ثم لا تهدأ حتى تصل إلى ما أرادت، وعلى العموم فإنها كانت تساعد المكفوفين بمالها، أو بجهدها، أو بهما معا.

والحق أنها لم تكن تشعر بأي فضل لها على أحد لأنها كانت تخرج ما تخرجه من زكاة مالها فكانت ترى ذلك واجبا عليها.

إلا أن صديقتي هذه كان فيها عيب يضرها هي ويضر الأقربين منها دون الأبعدين، ذلك العيب ببساطة هو أنها كانت أحيانا تذهل عما لا يذهل عنه الناس، ومن طرائف ما أذكره لها أنها كانت ذات يوم حديثة عهد باستيقاظ وكلمها السباك الموكل بإصلاح شيء في شقتها فسألته أغرب سؤال وأجاب هو عن سؤالها أغرب إجابة قالت له: (هو أنت أخو جلال يا جلال؟) فقال لها (لأ يا ست أنا أخوه!!!).

وفوق هذا وذاك جميعا ما وقع بيني وبينها، إذ طلبت منها يوما أن تشتري لي هارد دسك سعته ١٦٠ جيجا، وبالفعل توجهت السيدة الفاضلة إلى أحد محلات الكمبيوتر في أحد المولاتـ واتصلت بي لتخبرني أنها قد اشترت لي الهارد وأن علي أن ألقاها في مكان كذا من وسط البلد لتسلمه لي، وفي الموعد المحدد التقينا، وبعد السلامات والتحيات أخذتني في سيارتها لتوصلني إلى أقرب مكان من بيتي.

وفي طريق العودة طلبت منها أن تريني الهارد لأنني لم أكن تحسسته من قبل فلم يكن لي علم بشكله.

وعلى الفور مدت يدها إلى الوراء وناولتني جسما ملفوفا في كيس وحين فتحت الكيس وجدت فيه جسما مربعا له أربع عجلات وفيه خرطوم.

ونظرا لعدم علمي بمكونات الهارد فإن شيئا من هذا لم يثر انتباهي، كان أهم ما رحت أبحث عنه هو مكان اليو إس بي، وهو الواصلة التي تصله بالكمبيوتر، أمسكت بالجهاز وقلبته ظهرا لبطن، وذات اليمين وذات الشمال، ومن أعلاه ومن أسفله، فلم أعثر على موضع اليو إس بي.

وحين عجزت طلبت مساعدتها فأخذت الجسم الأملس وفعلت به مثلما فعلت أنا لكنها لم تجد الموضع، وبلغت بنا الحيرة أقصاها بعد أن فحصنا جميع الفتحات المربعة والمستديرة والمستطيلة دون جدوى.

وبعد جهد بالغ اتصلت هي بمحل الكمبيوتر لتسأل العاملين فيه عن موضع اليو إس بي فأخذ الموظف يشرح لها أين تجده، وعبثا حاولنا أن نهتدي إلى المكان الذي أشار إليه الموظف فلم نجده، وأخيرا اقترحت هي أن نحمل معنا الجسم الأملس وأن نعود به إلى المحل، وقبل أن نأخذ في تنفيذ هذه الفكرة خطرت لي فكرة أخرى لماذا لا يكون لهذا الجسم ملحقات أخرى يتم من خلالها الاتصال بالكمبيوتر؟ وطلبت منها أن تمضي إلى حقيبة السيارة لعلها تجد شيئا يعيننا على الفهم.

وامتثلت لمطلبي فتوجهت إلى خلفية السيارة ورفعت غطاء حقيبتها ثم لم تلبث أن عادت وهي مقتولة من الضحك.

نعم لقد استبد بها ضحك أخرجها ونحن في الشارع عن كل شروط الوقار والحشمة وحاولت أن أنهاها عن ذلك فلم أفلح، وتملكني من الدهشة ضعف

ما تملكها من الضحك إلا أنني اضطررت أن أنتظر حتى تمر هذه العاصفة من الضحك المختل، فلما سكت عنها الضحك سألتها مالك؟ قالت وجسدها يهتز من شدة الضحك أتعرف ما هذا الجسم الذي في يدك؟ فقلت لها الهارد فقالت لا، إنه مكنستي الكهربائية التي اشتريتها مع الهارد ووضعتهما معا في حقيبة السيارة وذهلت فأعطيتك المكنسة بدلا من الهارد.

فطار صوابي وأنا في حال بين الضحك والذهول ثم لم ألبث أن توازنت فقلت لها: أما أنا فمعذور لأنني لم أتحسس من قبل هارد أو مكنسة فما عذرك أنت وقد استخدمت المكنسة آلاف المرات!!!.

صحيح أنني لم أقتنع بفكرة وجود هارد دسك له أربع عجلات لكن جهلي بمكوناته قد ننعني من إظهار الاعتراض أو الدهشة.

وكيف تتصورين منظرنا معا ونحن داخلان على موظف محل الكمبيوتر وفي يدنا مكنسة كهربائية ثم نطلب منه أن يحدد لنا منها موضع اليو إس بي؟ لقد كدنا نكون أضحوكة المحل شهرا على الأقل لولا أن ربنا ستر.

وحين ناولتني الهارد استطعت في أقل من دقيقة أن أهتدي منه إلى موضع اليو إس بي.

وكانت هذه من أروع الفكاهات التي مرت بيني وبينها، فكنت كلما أردت أن أبتزها في غداء أو عشاء هددتها أنني سوف أخبر أصحابنا بقصة الهارد والمكنسة وإن كان من الحق أن أقول لكم إنها لم تكن في حاجة إلى هذا الابتزاز فقد كانت من أكرم من طلعت عليهم الشمس، وكنت كلما رأيتها علمت أن الأرض لن تخلو أبدا من الطيبين.



حبيبتي المسيحية

قاتل الله قلوبنا فإنها لا يكاد يتنزل عليها قبس من الحب حتى تنفض يدها من كل ما يخص السن، أو الدين، أو الوطن، أو الجنسية.

قاتل الله الحب فإنه يتخذ قلوبنا منازل ينزلها دون أن يستأذننا ليعلم إن كانت ظروفنا تسمح له بذلك أم لا.

قاتل الله المجتمع فإنه لا يريد أن يعلم أن الحب لا يمكن أن يكون ضمن بيانات البطاقة الشخصية بحيث ينطبق عليه ما ينطبق عليها.

وبين قلوبنا التي لا تكترث، والحب الذي لا يستأذن، والمجتمع الذي لا يريد أن يفهم ليرحم، يعيش العشاق المختلفون فيما بينهم حياة حلوة مرة.

حلوة بما يتخللها من مذاق العشق، مرة بما يتهددها من الهجران والقطيعة اللذين لا يدري العاشق متى يحلان عليه.

منذ سنوات بعيدة بعيدة وفي إحدى جمعيات المكفوفين التقيت فتاة مسيحية ملائكية الحضور كأنها في كل لحظة تولد من جديد، وجرى بيني وبينها من الحديث ما يجري بين متطوعة متحمسة للمساعدة وكفيف متحمس للمعرفة.

وكانت تنطق اسمي بحلاوة منقطعة النظير كأنها كانت تريد أن تطهره مما علق به من دنس أفواه دنسة كانت قد نطقت به من قبل، وكان يخيل إلي أنني أحتال لألقاها في الجمعية، ثم تبين لي من بعد أنها كانت هي الأخرى تحتال لتلقاني.

كنا نلتقي بين الناس في الجمعية، ثم أصبحنا نلتقي بعيدا عن الناس في الجمعية، ثم أصبحنا نلتقي بعيدا عن الجمعية نفسها.

كنت أكبر منها سنا وكانت أكبر مني قلبا، وكنت أوسع منها ثقافة وكانت أوسع مني صدرا، وكنت أعرف كيف أوقد غيظها وكانت تعرف كيف تطفئ

غضبي، وكانت حين تمشي معي تختار لغة جديدة تنبهني بها إلى ما يعترض طريقي.

فإذا كانت أمامي حفرة مثلا فإنها لا تقول أمامك حفرة انتبه، بل تقول أنا مش عارفة إمتى حفروا الحفرة دي، ثم تأخذني برفق إلى الطريق الصحيح.

وإذا كان على المائدة لون من الطعام لا تصل إليه يدي فإنها لم تكن تنبهني إليه بشكل مفاجئ بل تقول مثلا الاسكلوب دا معمول بطريقة تجنن ثم تقتطع منه قطعة لتذيقني إياه.

ورغم الفرق الشاسع بين مستويينا فإننا كنا حين نخرج معا ندعي غير ما نحن عليه، كنت أدعي الغنى من أجلها فتتظاهر بأنها صدقت، وتدعي هي الفقر من أجلي فأتظاهر بأنني صدقت.

فكنا كلما أكلنا في مطعم فخم تبادر هي بدفع الحساب قائلة لي أتريد أن تخدعني؟ انتظر حتى نأكل أكلة أرقى في مطعم أفخم، وكانت تظهر منتهى النكران للكثير الذي تقدمه لي كما كانت تظهر منتهى الامتنان للقليل الذي أقدمه لها.

كانت كل يد من يديها تصلح أن تكون عروسا مستقلة يقام لها عرس مستقل، وكانت ضحكاتها الملساء المتموجة تصلح أن تكون فراشا يلتقي عليه عاشقان، وكان صوتها الرنان النقي هو حاصل ضرب أذان المسجد في جرس الكنيسة، وكان ... لا لا، لا شأن لكم بهذا.

ولم يكن حبنا ينتمي إلى تلك العلاقات الرخيصة التي يخلقها اشتهاء الجنس وتقتلها ممارسته، بل كان يقوي حبنا كل ما فعلناه لأننا فعلناه وكان يقويه بنفس المقدار كل ما لم نفعله لأننا لم نفعله.

وكنا حين نلتقي نتحدث عن كل شئ، عن الأدب، والفلسفة، والتاريخ، والأديان، والاقتصاد، وكان حديثها عن الإسلام مفعما بالمودة كما كان حديثي عن المسيحية تفوح منه رائحة التسامح، فاسترقنا من الدنيا شهورا استطاعت حلاوتها أن تذهلني عن عددها.

فما أفقنا إلا على خطيب جديد لم تستطع هي أن تعيبه أمام أهلها، كانت تقص علي قصة خطيبها الجديد وصوتها يختنق بدموعها وأنا أهدئ من روعها دون جدوى. فلما سكت عنها البكاء وسكنت نفسها قالت لي لا بد أن نتزوج، إنني أعرف حاجتك إلي كما تعرف أنت أيضا حاجتي إليك.

نعم نتزوج ويمكنك أن تتقدم إلى أهلي وحين يرون إصراري لن يردوا لي طلبا، فقلت لها يا حبيبتي حاولي أن تتصوري رجلا كفيفا فقيرا مسلما يتقدم إلى أسرة غنية كأسرتك ليطلب يد ابنتهم كيف يعاملونه؟ إن الجنون هو أقل ما سوف يتهمونني به.

وعندئذ قالت لي يمكننا أن نتزوج بعيدا عن أسرتينا، إن مخصصاتي المالية في البنك تكفينا لكي نعيش عيشة لا بأس بها.

فأخذت يدها بكلتا يدي وأسندتها برفق إلى قلبي وأكمل الهواء الرقيق المحيط بنا جميله فأخذ أوائل شعرها فنثره برفق على جبيني وأنا أقول لها يا حبيبتي إننا حين نحب نحب لأنفسنا ولكننا حين نتزوج نتزوج لغيرنا.

فردت مستنكرة لمن؟ لأهلي وأهلك؟ وجيراني وجيرانك؟ وأصحابي وأصحابك؟ وزملائي وزملائك؟ فقلت لها لا بل لأطفالنا القادمين.

يا حبيبتي إننا نعيش مشكلة مركبة، فلو أن واحدا منا قد اعتنق دين الآخر لبقي الفقر حائلا بيننا لأن الفقر يستوي عنده أن نكون على دين واحد أو دينين، فلا أظن أهلك يقبلون أن يزوجوك فقيرا مسيحيا ولو كان قديسا من

طبقة سمعان العمودي، على أن وراء الفقر حائلا آخر هو أن من يعتنق منا دين الآخر بغير اقتناع سوف يمارس دينه الجديد بمذاق دينه القديم، فإن أنت اعتنقت الإسلام فلن تستطيعي أن تنزعي قلبك وروحك من ميراثك الديني بل سوف يظل في أعماقك حنين جارف إلى العذراء في صورتها المسيحية وسوف يظل قلبك يهفو إلى مولد ماري جرجس، وإن أنا اعتنقت المسيحية فسوف يتقطع قلبي حسرات كلما سمعت الأذان وينفطر كلما رأيت تلك الجلبة التي يحدثها الناس قبل الإفطار في رمضان.

قالت يمكن أن يبقى كل منا على دينه وأنا أعلم أن هذا حلال عندكم في الإسلام، فقلت لها: هذا بالضبط هو ما كنت أقصده حين كنت أتحدث عن طفلنا القادم أو أطفالنا القادمين، نعم إن الزواج من مسيحية أو يهودية حلال ولكن فكرة الحلال في حد ذاتها لا تكفي لتأسيس بيت إلا عند الضرورة القاهرة، أما في مجتمعاتنا العادية فإن هذا الحلال يتلقاه الناس بغير قليل من النفور وهذا هو ما سوف يكتب على طفلنا القادم أن يعانيه.

أخبريني يا حبيبتي بأية عقيدة سوف ندعوه لأن يؤمن؟ بالإله الواحد الأحد أم بالثالوث الأقدس؟ بالتوحيد الذي لا شائبة فيه أم بالتثليث الذي جوهره وحدانية؟ وأي نبي سوف ندعوه لأن يتبع؟ محمد النبي التام البشرية أم يسوع الإله الإنسان؟ وأي القصص سوف نقص عليه قصص الصحابة أم قصص التلاميذ؟ كرامات الأولياء أم معجزات القديسين؟ وأي الكتب المقدسة سوف يتعلم القرآن الكريم أم كتب العهدين الجديد والقديم؟ وأي الشعائر عليه أن يمارس كل يوم؟ الوضوء والسواك والمسح على الخفين أم التعميد والتناول والاعتراف؟ وأي صيام سوف يصوم صيام رمضان أم صيام العذراء؟ وبأية أعياد سوف يحتفل؟.

وعلى أية أخلاق اجتماعية سوف نربيه؟ أعلى قول القرآن وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به أم على قول الإنجيل ومن ضربك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا؟

فقالت لي يمكننا أن نربيه على الأخلاق العامة التي يعرفها الناس في كل زمان وكل مكان بمعزل عن المفاهيم الخاصة للأديان، كالصدق والأمانة والوفاء والإخلاص في العمل ومحبة الناس جميعا، دون أن تكون به حاجة إلى المسجد أو الكنيسة.

فقبلت يدها برقة وقلت لها يا حبيبتي كأنك تفترضين أننا سوف نعيش بطفلنا في الصحراء ولن يكون له جيران في السكن، أو زملاء في المدرسة، أو أقران في العائلتين، ترى إلى أين يمضي حين يرى هؤلاء يمضون إلى المسجد وهؤلاء إلى الكنيسة؟ وعمن يتحدث حين يتحدث هؤلاء عن أوليائهم وهؤلاء عن قديسيهم؟

إن الشعائر التي يمارسها الناس كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر أو كل عام والعقائد التي تبرر هذه الشعائر والقصص التي يرويها أهل كل دين عن أعلام دينهم كل هذه الأشياء ليست لمجرد تضييع أوقات فراغهم بل هي جزء لا يتجزأ من ضمائرهم فإن فقدوها فقدوا كل ما تدعو إليه من أخلاقيات، وأما الأخلاق الفلسفية التي يتبناها من يتبناها من عشاق الفلسفة أو المشتغلين بها فإن عدم ورودها عن المقدس سوف يجعلها دائما ذات طابع اختياري كما أنها يتم تبنيها بعد تشكل الضمير الفردي، وإذا كانت علاقة الغربيين بدينهم تتصف بالمرونة التي قد تبلغ حد عدم الاكتراث فإننا نحن الشرقيين قد نلون بعض ديننا بلون دنيانا ولكننا نبني دنيانا كلها على أساس من ديننا.

وقصصت عليها قصة لإحسان عبد القدوس عنوانها الله محبة تحكي عن علاقة حب بين شاب قبطي وفتاة مسلمة، كان من أهم ما نبهت إليه طبيعة العلاقة الحساسة بين الشعائر والضمير. لهذا فإن طفلنا المنتظر سوف ينشأ ممزق النفس فاقد الثقة بمحتويات الأديان جميعا.

لا إلى المسجد ولا إلى الكنيسة، نعم سوف ينشأ مقطوع العلاقة بالسماء منزوع السكينة لا يعرف وراء الحياة شيئا ينتظره، مثله كمثل ابن الزنى لا يعرف في الأرض بيتا يأوي إليه كلما جن الليل عليه.

وكان لزاما علينا أن نفترق فافترقنا، ورغم أنني غير مبصر وأعلم تمام العلم أنني لن أراها حين ودعتني وانصرفت رغم ذلك فإنني التفت ورائي عسى أن أسمع وقع خطواتها أو أشم ما بقي من عطرها في الهواء، ومنذ سنوات قليلة جدا فقدت المنديل الذي مسحت به دموعها في آخر لقاء لنا ذلك المنديل الذي بقيت أحتفظ به حوالي عشرين عاما.

يا إلهي إن قلوبنا تنتقم منا حين تعتنق الحب دون أن تراعي ظروفنا الخاصة ولكننا نقتص منها حين نقتل فيها ذلك الحب الذي به حياها.

أجل افترقنا ومضت هي إلى حيث لا أدري، ولا أشك أنها كانت تذكرني كلما سمعت الأذان مثلما كنت أذكرها كلما سمعت جرس الكنيسة البعيد، ذهبت إلى حيث لا أعلم وحالت بيني وبينها شوارع، وأسواق، ودكاكين، ومساجد، وكنائس، وبيننا فوق هذا كله أقارب ومشايخ وقسيسون ربما لم يسمعوا عن الحب.



حكاية وفيق

لسنا نكتب هذه القصة للذين يقدرون نفاسة الزمن ويعرفون قيمة الحياة.

إنما نكتبها للشباب الروش الذين يستيقظون عصرا ويدخنون في الفراش ويشربون النسكافيه وهم مضجعون ويضعون إحدى يديهم على التلفون والأخرى على الكمبيوتر ويتحدثون بنعومة مع ميمي وسوسو ولولو وزوزو وكيكي ومن لا يعلمهن إلا الله.

كما نكتبها للمُزز القمامير اللواتي يستيقظن عصرا يلمعن أظافرهن ويعملن حواجبهن بالفتلة ثم يضعن على وجوههن ما شاء الله من المساحيق.

فهذا كريم أساس، وهذا تحديد شفايف، وهذا بنكيك، وهذا روج، وهذا ريميل، وهذا أيشادو، وهذا أيلاينر، وهذا أي يا بطني، وفوق هذا وذاك لسيون مثبت يحفظه من الذوبان.

فإذا فرغت من هذا جميعا مضت إلى السهوكة مع هادي وفادي وشادي ومن إليهم أو تراقصت على نغمات مصطفى قمر أو عمو دياب أو تامر حسني.

كما نكتبها للزوجة التي تستئهل ضرب الحزام لأنها إن سئلت عن مشاكلها مع زوجها قدمت شكاوى من نوع بيهين ضوافري وبيضطهد رموشي وبيتعالى على حواجبي دا إنسان ما يتعاشرش وحياة ديني لأخونه!!!

كما نكتبها للمثقف المتقعر الذي مشكلته أنه بلا مشكلة لهذا تراه يحدث المجتمع الجائع العاري المريض الجاهل عن آلام كافكا، وديالكتيك هيجل، والتغير الكيفي الناتج عن التراكم الكمي عند ماركس، والأنا المتعالية عند سارتر، والليبيدو عند فرويد وما جرى مجراها مما يعجز عن أن يفهمه الجوعان ولا يريد أن يفهمه الشبعان.

نعم نكتب لهم جميعا عن وفيق ذلك الرجل الذي لو رأيته منذ بضع سنين لما كان جديرا أن يلفت نظرك لأنه كان شخصا عاديا أشبه ما يكون بقطرات الماء التي تتنزل من الصنبور التالف.

كان جنديا عاديا في الجيش المصري أحلامه تحت قدميه لا فوق رأسه يتدرب كما يتدرب غيره استعدادا للمشاركة في حرب الخليج.

وأثناء التدريبات انفجر فيه لغم أفقده يديه وعينيه دفعة واحدة وسوف أترك لك وحدك أن تتخيل حالته النفسية بعد أن أفاق فوجد نفسه على هذه الحال.

فجأة وجد نفسه بلا عينين بلا يدين على باب حياة أخرى ملؤها الاحتياج، وأظنك سوف تتخيل معي كيف كانت تمر عليه الثواني والدقائق والساعات والأيام والأسابيع والأشهر والسنوات كأنها سكاكين تذبحه من الداخل.

فلو أن عالم اجتماع من طبقة دوركايم أو كونت أو عالم نفس من طبقة وليم جيمس قد نظرا إليه على هذه الحال لما وسعهما أن يتنبئا إلى أي وضع سوف تصير حياة هذا الرجل.

إن أبشع ما يختنق به الإنسان من الداخل أن يشعر أن الناس يلقون إليه الفتات من كل شيء الفتات من الاهتمام ومن الجهد ومن الرعاية إلى آخره كما أن أبشع الكلمات هي كلمات هات وساعدني وأعني ولو سمحت ومن فضلك إلى آخره.

وكان على وفيق أن يسير في طريق من طريقين لا ثالث لهما إما أن يختار الحياة وما تشف عنه من إرادة وتصميم أو الموت وما ينضح به من معاني القتامة والظلام فكانت الكلمة الأخيرة للحياة.

أدرك وفيق أن الذي يعمل باليدين بسهولة يمكن أن يعمل بغيرهما بشيء من الصعوبة فاجتهد أن يمسك بشفتيه بعض ما كان يمسكه من قبل بيديه وكان

من حسن طالعه أنه وجد الزوجة التي تتفهم ظروفه الخاصة وتتقبلها لا بمجرد رضا بل بحب وحماس.
وحين ظهرت البرامج الناطقة للمكفوفين كان وفيق من أوائل من استخدموها إذ علم نفسه كيف يكتب على لوحة المفاتيح بشفتيه.
ولك أن تتخيل حجم الزمن الذي استغرقه وفيق وحجم الجهد الذي بذله ليتمكن من الكتابة السريعة على لوحة المفاتيح ولم يقتصر على مجرد الكتابة العادية بل صار من أمهر المكفوفين والمبصرين في الوندوز والأفيس والإنترنت والملتيميديا والبرمجة وغير ذلك مما يتعلق ببرامج المحمول.
وأولاده من حوله لا يرون مثل أبيهم أبا وزوجته من ورائه تراه اختصارا لتاريخ الرجال والرجولة وفي محافظة الغربية وما يحيط بها من المحافظات وفي مدينة طنطا وما يحيط بها من المدن يفزع كل طلاب الكمبيوتر مكفوفين ومبصرين إلى وفيق ليصلح لهم ما فسد أو ليعلمهم ما جهلوا
والآن أيها القراء الأعزاء ليس عندي جديد أضيفه إلى قصة وفيق ولكن عندي سؤالا أرجو أن يتوجه به كل منكم إلى نفسه هذا السؤال ببساطة هو ما نصيبي من الحياة الحقيقية.



راجل مسخرة

كان المعلم حسين سأسأ عورة من عورات الحياة التي يجب سترها.. كان جزارا أميا لكنه يتقن الإنجليزية التي تعلمها من الإنجليز حين كان يعمل معهم قبل ثورة يوليو. وكانت له فلسفة غريبة خلاصتها أن كل ما يأتيه في يومه هو رزق من الله يحرم عليه ردها سواء أكان هذا الذي يأتيه حراما أم حلالا أم امرأة ساقطة أم خمرا مغشوشة أم قطعة حشيش.

وكنا قد تعرفنا عليه عند عم سيد البقال الذي سوف أقص عليكم حديثه حين تأتي المناسبة المناسبة فلفت نظري ما يتمتع به المعلم حسين من عشوائية وبهللة.

نعم كان المعلم حسين مرنا في كل شئ في عمله وفي دينه وفي علاقته بزوجتيه وفي علاقته بأولاده.

كان المعلم حسين في أول أمره جزارا حكوميا يقوم بتوزيع اللحم على الجمعيات، فكان أحيانا يبيع اللحم للجزارين بثمن باهظ محتملا التحقيق والخصم، وأخيرا تم فصله نهائيا من عمله فأصبح جزارا مستقلا.

وكان ابنه أبو الليف وهكذا كان يسميه ولا أعرف إلى الآن ما اسمه الحقيقي نسخة من أبيه فقد كان المعلم حسين يرسله للتحصيل من الجزارين فيقوم أبو الليف بالتحصيل ثم يهرب بالنقود إلى حيث يعلم الله فإذا أنفقها جميعا عاد إلى أبيه فاعتذر إليه فيقبل أبوه عذره ويكلفه بنفس المهمة وتتكرر نفس الحادثة وهكذا، فلا الولد يقلع عن أخذ الفلوس ولا أبوه يكف عن إرساله.

وكانت مرونة المعلم حسين في عمله هي الدافع له على قبول أي عمل حتى وإن كان لا يعرف عنه شيئا. قالت له سيدة ذات صباح (يا معلم تعرف حد بتاع باركيه؟) فأكد لها أنه متخصص فيه ثم مضى معها إلى شقتها وأخذ منها

بعض النقود وبالفعل اشترى بعض الخامات وكانت الشقة خالية فقال لها إنه سوف يبيت فيها وعليها أن تغلق عليه بابها.

وفي الليل قام حسين بخلط الخامات ووضعا على الباركيه فتشقق الباركيه، فما كان من المعلم حسين إلا أن فتح النافذة وهرب تاركا الشقة مفتحة النوافذ!!!.

هذا عن مرونته في عمله، أما عن مرونته في دينه فلم تكن مرونة بل ترهلا تدلك عليه هذه القصة. دخل المعلم حسين أحد المساجد ذات مغرب وكان حسن الهيئة، وكان من سوء حظه أن إمام المسجد لم يحضر فتوسم الناس فيه الصلاح فقدموه للإمامة وبدأ المعلم حسين يقرأ سورة قصيرة لكنه جعل يخطئ فيها والناس من خلفه يصحون له وشعر بالفضيحة فلما سجدوا تركهم ساجدين وأخذ نعليه وانصرف!!.

وكانت علاقته بزوجتيه وخصوصا الثانية أعجب من علاقته بعمله ودينه وأولاده، فقد كانت هذه المرأة دلالة تأخذ السمك واللحم والدجاج من أكشاك الحكومة وتبيعه للناس مقابل سعر أعلى. وحدث أننا كنا جالسين أمام دكان عم سيد كعادتنا فقال جمال صبي عم سيد للمعلم حسين (يا عم حسين أنا عايز أقول لك حاجة بس خايف لا تزعل).. فقال حسين (قول يا جمال يا ابني) فقال جمال (لما خالتي أم سماح بتيجي الكشك هنا عم عزت مدير الكشك بيقفل عليه وعليها الكشك ييجي ساعة) فسحب المعلم حسين نفسا عميقا من الجوزة وسأله(يعني إيه تفتكر يكون بينام معاها يا جمال يا ابني؟) فقال له الصبي (أفتكر كدا)، فقال له حسين على الفور (شوف يا جمال يا ابني.. ماهو لا بد من اللطم على أبواب تونس.. تفتكر يعني هايديها دا كله لوجه الله).

وحدث أنه قدم علينا في الثلث الأخير من ليلة ممطرة وكان في حالة سكر بين ولم يقنع بهذا حتى ضرب حجرين أيضا وانصرف إلى بيته لا تحمله قدماه.

وكانت أم سماح زوجته الثانية قد أعدت نفسها لما تستعد له النساء خصوصا في ليالي الشتاء فما هو إلا أن فتحت الباب لحسين حتى استلقى على السرير في حكم الميتين وعبثا حاولت أم سماح أن توقظه بأن تدلكه وتقول له سونة قوم يا حبيبي وصاحبنا في عداد الأموات فلما يئست منه تماما استعاذت بالله من الشيطان الرجيم واستعانت بجسمها العظيم وركلته ركلة أوقعته بها من فوق السرير وهي تقول له (هي لوكندة يا ابن الوس**!!! يمين بالله ما أنت بايت فيها).

وعبثا حاول المعلم حسين أن يتوسل إليها ويقبل يديها ورجليها أن تستبقيه إلى الصباح وفي الغد سوف يعمل أضعاف ما تريد ولكن أم سماح راسها وألف جزمة أن يفعل أو ينصرف وأخيرا انتهت المفاوضات بأن جرته خارج البيت فلما دق على النافذة طالبا حذاءه قذفته به.

فرجع إلينا ونحن نكاد ننصرف دامي الوجه مبطوح الرأس يستحلفنا بكل يمين أن نمضي معه إليها لعلها تقبل أن تبيته وقدمنا عليها وتوسلنا إليها يا أم سماح يهديك يا أم سماح يرضيك وليس في فمها إلا كلمة واحدة يا يعمل يا يروح.

ومشينا معه مسافة طويلة إلى موضع يمكن أن نجد فيه تكسي ، وآخر لقاء تم بيني وبين المعلم حسين قص علي فيه كيف ماتت زوجته الأولى أثناء العشرة الزوجية فقلت له أنت مسخرة حتى في الموت!!!

***

شبه بعض

يصر كثير من المبصرين على أن يروا المكفوفين شخصا واحدا توجد منه نسخ متعددة، كأن العمى يصلح أن يكون اسما، وعنوانا، ولونا، ودينا، وجنسية، أو كأنه لافتة تعلق على فصيلة من البشر دون وجود داع لتمييز أفراد هذه الفصيلة بعضهم من بعض.

وسوف أقص عليكم من نتائج هذه المشابهة ثلاثة مواقف قد وقعت لي، لو كنت أعلم ثانيها وثالثها ما فرحت بأولها. دخلت مكتبة الخانجي لأشتري كتابا، فلما أبصرني البائع رحب بي قائلا: يا ألف أهلا وسهلا يا شيخ إبراهيم، حصلت البركة والله، المكتبة نورت، عندي ليك مجموعة كتب هايلة وكلها جديدة، وهو طبعا يقصد صاحبي المرحوم إبراهيم محمود قبل موته، ذلك الذي هو زبون دائم عندهم، والذي كان يشتري منهم كل عام بآلاف الجنيهات كتبا، ورأيت أن أقدم له نفسي بهدوء وبساطة فقلت له: يا أفندم أنا صلاح الدين عبد الله فقال ببساطة أشد: معروف طبعا يا شيخ إبراهيم هو أنت غريب؟ المكتبة مكتبتك في أي وقت ومن غير فلوس، وأصر الرجل على أن يكرمني فباعني كتابا غاليا بأرخص سعر ممكن.

وقدمت له نفسي مرة أخرى قبل أن أنصرف فاعتذر لي قائلا أنا آسف أصلكم شبه بعض، فلما هممت بالخروج ودعني قائلا: مع ألف سلامة يا شيخ إبراهيم، فلم أصحح له في هذه المرة وحمدت الله على هذا الشبه الذي مكنني من شراء كتاب غال بسعر رخيص.

وبعد ذلك بفترة ليست بالطويلة دخلت أحد محلات الكشري في حينا لأتناول طعام العشاء، وفي منتصف الأكل فوجئت بيد ثقيلة قد تنزلت على كتفي بعنف يتلوها صوت خشن عال يقول بصخب: أخيرا قفشتك يا عم

الشيخ يا حرامي الفراخ يا معفن!!! أنا تضحك علي وتاخد مني أربع فراخ شكك عشان مراتك وعيالك الستة وبعدين تغطس ما تبانش؟! بالسم الهاري عليك وعليهم.
أخذ يقول هذا وهو يشخر، ويصفق بيديه، ويهز جسمه بعنف، ويقول بين الحين والحين: قوتي وقوت عيالي يا حرامي، اجتمع الناس ووقعت الفضيحة ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولست أدري كيف أسلمني الغيظ الشديد إلى الضحك الشديد وأنا أحاول أن أهدئ الرجل فلا يهدأ ولا يكاد ينطق إلا بجملة واحدة هي: إيدك على حق الفراخ يا عم الشيخ يا حرامي.
وأخيرا سألته أنت منين؟ وفين دكانك؟ فقال: من عين شمس الغربية، فقلت له أنا من هنا من عين شمس الشرقية وقام صاحب المحل فأقسم له أنه يعرفني منذ عشرين عاما وأنني لست متزوجا وأنني باعمل دكتوراة.
فبدا على الرجل الخزي والخجل وقال: أنا آسف يا حضرة، أصلكم شبه بعض منه لله الكفيف إلي سرقني، وقضينا بقية الليلة في ضحك، وحاول الرجل أن يدفع لي ثمن الكشري فشكرته ورفضت.
وفي طريقي إلى دير الدمينيكان لأستعير بعض الكتب من المأسوف عليه الأب قنواتي مشى معي شاب وديع وأصر على أن يوصلني إلى بوابة الدير، وفي طريقنا قال لي بلهجة تقريرية: حضرتك مسيحي طبعا ورايح تصلي، فقلت له لا يا أخي أنا مش مسيحي، فقال وقد بدأت لهجته تأخذ في الاحتداد: سبحان الله بتنكر دينك ليه؟ أنا كدا كدا هاوصلك، فقلت له يا أخينا افهم أنا أزهري مش مسيحي، فضحك وقال: لازم أزهري مسيحي!!!! ثم سألني معاك بطاقة؟ وللحظ العاثر لم تكن معي بطاقتي، لأنني لم أعتد أن أحمل بطاقتي معي في أي مشوار، فقلت له مش معاي بطاقتي دلوقتي، فقال شفت بقا؟ أنا

عارف إنك مسيحي، أنا وصلتك قبل كدا للكنيسة، وغاظني إصراره فأقسمت له بكل يمين أنني مش مسيحي، فقال سبحان الله!! أول مرة أشوف مسيحي بيحلف مش أنتم عندكم الحلفان حرام؟ ورأيت أن أرتل أمامه شيئا من القرآن وأن أحدثه في بعض قضايا الفقه ليؤمن أنني مسلم.

فما زاده ذلك إلا إعجابا بي على أساس أنني مسيحي يعرف الإسلام أحسن من المسلمين، وتمنيت أن يلقاني أي شخص أعرفه لأستشهد به فلم أقابل أحدا، ودفعني الغيظ إلى أن فكرت جادا في أن ألغي المشوار وأن آخذه معي إلى بيتي لأريه أهلي وأطلعه على أوراقي ، وعرضت عليه ذلك بالفعل فتبسم ضاحكا وقال لي: على إيه دا كله؟ والله هاوصلك، فلما بلغنا بوابة الدير وسمع البواب يقول لي فينك من زمان؟ قال هو لي: عيب، مش قلت لك؟ على فكرة الكذب حرام في المسيحية أيضا وربت على كتفي ثم انصرف وهو لا يشك أنني مسيحي.

ومنذ ذلك اليوم لم أعد أصحح لأحد من المشاة معي أية معلومة تخصني، فإن قال إنه رآني في مسجد، أو كنيسة، أو مكتبة، أو بار، أو مدرسة، هززت له رأسي وقلت له برفق ربما، وإن ناداني بأي اسم يعرفه رددت عليه.

وذلك لأنني علمت أننا في أعين كثير من المبصرين شبه بعض.

***

شيطان بس عسل!

الشاعر س.ف هو بالفعل شيطان من شياطين الإنس فما من أحد إلا وتقبل عليه حينا وتمله حينا إلا هذا الرجل. لأن صوته العجيب وذهنه العجيب وخفة ظله التي لا نظير لها وسرعة بديهته وضحكاته التي لها مذاق الكارثة وتخريجاته التي لا تخطر على بال لا بد أن تحول بينك وبين أي شعور بالملل.

وس. خلطة بشرية عجيبة، ففيه شعر، وتفلسف، ونصب، واحتيال، وكذب، وصدق، وهوس بالنساء، وعشق للطعام، وتدين، وفسوق لا مثيل له.

علمته تجاربه في الحياة ألا يثق بأحد على وجه الأرض، ومن كلامه الذي يعتبر شعاره (أنا سوء ظن يمشي على قدمين) وكان يبرهن على هذا فيقول إذا دعا لي أحد بخير شككت فيه، أتراه قد فرغ من الدعاء لنفسه واستجيبت دعواته جميعا فراح يدعو لغيره!!!.

ومن كلامه الذي نحفظه إن كل رجل مهما كبرت سنه، أو اتسع ثراؤه، أو عظم جاهه، ينطوي في داخله على عيل بشخة فإن صرخت فيه استيقظ في أعماقه ذلك العيل فأحس بالخوف منك.

والشاعر س.ف هو أقدر الناس على أن يستخف بكل شئ مهما عظم في أعين الناس، فهو يحتقر الفلسفة، والفلاسفة، والمناطقة، وأرباب الثقافة على العموم. لهذا فإنه قليل القراءة كثير الكتابة إن عجز عن فهم فكرة راح يسفه الفكرة ويسخر من صاحبها أمر السخرية.

وللأستاذ س تقسيم عجيب للكتب على العموم فالكتب عنده صنفان كتب لعقله وكتب لأنفه!! فإذا أهدى إليه شخص كتابا فهو إما أن يكون مفيدا فيحتفظ به أو غير مفيد فيتخذه مناديل لأنفه المصاب باللحمية بصفة مزمنة.

ورغم عدم عنايته بالكتب فإنه لا يحب أن يبدو أمام الناس قليل الثقافة فإن تكلم الناس أمامه في موضوع لا يعرفه فإنه لا يركن إلى الصمت أبدا بل يتكلم في الموضوع بمنتهى الطلاقة وذلك بأن يعرض نظريات لا وجود لها، وينسبها إلى علماء أو مفكرين لم يخلقوا، وأن يشير إلى كتب لم تكتب بعد ومصدر شعوره بالأمان أنه لا يوجد من يعلم كل شئ عن أي مجال في الدنيا.

وقد جر عليه هذا أحيانا ما لا تحمد عقباه، فأثناء إقامته في المدينة الجامعية بالإسكندرية جلس ذات ليلة مع طائفة من الشباب وأخذوا يتحدثون عن الفحولة الجنسية والمقويات الجنسية كما هي عادة الشباب في كل زمان ومكان فأدلى س بدلوه فقال لهم إن دهن العضو بالفلفل الحامي مما يساعد على قوة الانتصاب، وأخذ الشباب في الأحاديث المتنوعة إلى آخر الليل وتفرقوا كل إلى حجرته وبعد أقل من ساعة دق باب حجرة س وحين فتح الباب وجد واحدا من الذين كانوا ساهرين معه رافعا جلبابه مخرجا عضوه الملتهب قائلا له ماذا قلت عن الفلفل الحامي؟ وكان س قد نسي الحديث برمته فأخذ الفتى يذكره وأخيرا تذكر فضحك ضحكته ذات الطابع الانفجاري وقال له كنت أمزح!! ثم لم يلبث الفتى أن نقل إلى المستشفى في حال لا يعلمها إلا الله!

وكانت ثقته بأن الناس يمكن أن ينخدعوا حتى فيما يفهمون فيه تدعوه إلى اختبارهم بشكل لا يخلو من فكاهة فقد كان ذات مرة يتلاعب بكلمة biology فلم يزل يحرفها إلى أن جعلها بيلوجي ثم سماه الإمام البيلوجي وأخذ يسأل الناس عنه ماذا تعرف عن الإمام البيلوجي؟.

فأما المخلصون لعلمهم فكانوا يقولون لا نعرف وأما الأدعياء فقد كانوا يتكلمون عن عصره وإنجازاته العلمية.

وكان س بوصفه صحفيا يحاور أحد المختصين في الأندلسيات فأخذ الأستاذ يرصد أهم أعلام الأندلس فيقول منهم ابن رشد، وابن طفيل، وابن مسرة، وابن شهيد، فقاطعه س قائلا والبيلوجي يا دكتور فقال الدكتور بسرعة والبيلوجي وغيره وغيره!!!.

وس لا يبادرك بالشر أبدا ولكنه حين يحسه منك فإن ردود أفعاله قد تكون أكبر من الفعل نفسه.

فقد حدث حين كان في كلية الزراعة بالإسكندرية أنه سأل طالبا عن المقرر في مادة معينة فقال له الطالب الكتاب كله مقرر وحين سأل س طالبا آخر تأكد له أن ملزمة واحدة من الكتاب هي المقررة.

وكان س قد أتعب نفسه في تحصيل الكتاب كله. فأراد س أن يعاقب الطالب الأول فمضى إلى أقرب صيدلية فاشترى منها برشاما مسهلا، وصبيحة امتحان تلك المادة زار س ذلك الطالب في حجرته وانتهز فرصة غياب أخينا في الحمام فَهَرس له البرشام في المربة.

وحين عاد أخونا من الحمام وأكل المربة أصابه إسهال حاد حال بينه وبين إكمال الامتحان وكانت النتيجة أن الطالب رسب في هذه المادة ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهوس س بالنساء مسألة لا تقف عند حد ولا يضبطها ضابط، فيكفي في الأنثى المعشوقة أو المشتهاة أن تشتمل على تاء التأنيث بلفظها أو بمعناها، وأذكر أننا كنا ذات يوم قاعدين على رصيف كلية دار العلوم التي كنا ندرس فيها وذهب س إلى الحمام وفي طريقه قابل فتاة شاعرة فقال لها على الفور أريدك في موضوع خاص وحين ذهبت معه الفتاة صارحها بحبه وعذابه اللذين لم يشعر بهما إلا حين قابلها وهو في طريقه إلى الحمام!!!!.

وخرجت يوما للقاء فتاة بيني وبينها عمل ، فتاة يسميها أصحابنا جيهان سكاموني وكانت فتاة غريبة كان نهداها البارزان عبارة عن (لمونة في بلد قرفانة) كانت فتاة نحيفة الجسم، طويلة الأظافر، شعرها الخشن آخذ في الصعود إلى أعلى يشبه غيطان القصب التي يأخذ فيها أهل الصعيد بالثأر. مسرسعة الصوت تنطق السين ثاء، دائمة الرعشة كأنها كتكوت يتعرض لصدمة كهربائية، ولو سمعت احتكاك أظافرها الطويلة بشعرها الخشن وهي تهرش في رأسها لكرهت الدنيا بمن فيها وما فيها.

ورغم هذا كله فإن س كان يعجب بها إعجابا لا يعلم أسبابه إلا الذي خلقه وخلقها. فحين صحبني في ذلك اللقاء سألها بسهوكة (إزاي بنت بسيطة زيك تقدر تخلي اليوم جميل كدا!!) فسألته بدورها(دا مدح ولا ذم؟).

وكانت جيهان سكاموني حين تلقى واحدا منا تتركه وتصاحب علبة سجائره حتى تنفد وهذا هو السبب الذي من أجله كنا نتجنب لقاءها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا أو نقلل مدة اللقاء حرصا على سجائرنا أيام الفقر.

أما اسم سكاموني فأظن أن أصحابنا أطلقوه عليها إشارة إلى ما تتمتع به من حماقة. ومن ذلك أنها دعت صديقا لنا إلى الغداء في بيتها فرفض فأصرت وأقسمت ألف يمين مغلظة وتحت إلحاحها مضى معها إلى بيتها وأوقفته أمام البيت وقالت له بعد خمس دقائق سوف أشير إليك من البلكونة فتصعد لأن عندي ما أفعله قبل أن نتغدى وانتظر صاحبنا أكثر من ساعة وأخيرا صعد إلى بيتها وطرق الباب ففتحت له أمها وكانت تعرفه وحين سألها عن جيهان أخبرته أنها نائمة منذ ساعة!!!.

على أن شغفه بالنساء قد وضعه في مآزق لم ينج منها إلا بالعناية الإلهية.

ففي يوم من الأيام أعجبته امرأة جميلة فلم يزل بها حتى واعدته في مكان عام فما هو إلا أن جلست حتى بدأت تقول بصوت مرتفع (أنا شخصيا باحب الجنس وعندي مكتبة جنسية ضخمة والجنس في حياة الناس مسألة أساسية...).

قال س وبدأ المحيطون بنا يلقون إلينا السمع بمنتهى الاهتمام فكانت تقول لكل واحد ينظر إلينا اتفضل انضم لينا.

قال س وفي أقل من عشر دقائق انقلب اللقاء من مقابلة عاطفية شخصية إلى ندوة عامة عن الجنس. وبدأ الناس يأخذون رقم تلفونها ويعطونها أرقامهم كما بدؤوا يطلبون المشاريب بغزارة.

فما كان من الأستاذ س إلا أن أخبرهم أنه سوف يتكلم في التلفون في الخارج لأمر مهم وسوف يعود إليهم سريعا وحين استوقفه الجرسون قال له الأستاذة والجماعة موجودون وسوف أرجع بسرعة.

ثم ولى هاربا إلى غير رجعة.

وكان على علاقة بشاعرة مختلة من الناحية النفسية، فكان إن اتصل بها أسمعته آخر قصيدة كتبتها فالويل له إن قال إن هذه القصيدة أحسن من سابقتها لأن معنى هذا أن كل ما سبقها لا قيمة له.

وله أضعاف ذلك الويل إن قال إن القصائد القديمة أحسن من هذه لأن معنى هذا أن القصيدة الأخيرة لا قيمة لها.

لهذا كان س يلجأ إلى التعبيرات الغامضة التي لا يفهم منها تمييز بين مدح وذم.

ولما لم يكن إظهار رقم الطالب قد وجد بعد فقد كان س حين يتصل بهذه الشاعرة المختلة ولو من بيته يقول لها حين يمل أنا آسف إنني أتكلم من

الشارع، وحدث أنها اتصلت به ذات مرة في بيته وطالت المكالمة ونسي س أنها هي التي اتصلت به فقال لها كالعادة أنا آسف أصلي باتكلم من الشارع.

ومن عجب أنها هي الأخرى نسيت!!! وكانت صاحبته المختلة مصابة بوسواس قهري يخيل لها أن الحكومة تتابعها أينما ذهبت لتحبط ندواتها خوفا من كلمتها، ليس هذا فحسب، بل إن المحيطين بالرئيس مبارك كانوا يقتبسون له في خطبه من أشعارها لكي تحلو خطبه!!!.

وحدث أنه كان ذات يوم ماشيا في أحد الميادين الكبرى فإذا بصاحبته تبصق وتسب وتلعن والناس من حولها يصخبون. فلم يزل بها يهدئها حتى صحبها إلى بيتها فلما أفاقت من سكرة غضبها سألته على الفور ما الذي جاء بك إلى هذا المكان في هذا الوقت بالذات؟ ومن الذي أخبرك بوجودي هنا؟ ومن قبل من أنت معين لمراقبتي؟.

قال س وعبثا حاولت أن أقنعها أنها صدفة فلم يغن عني ذلك شيئا، ولم أخرج من بيتها إلا متهما بتهمة من تلك التهم التي توزعها على الناس منذ أن تصحو إلى أن تنام.

وأما صاحبته الأخرى فهي صاحبة أقبح صوت في الغناء وهي التي حدثتكم عنها عند حديثي عن الأصوات ضمن مقالي الكفيف والجمال النسائي.

ومن عجائبها معه أن تلفونه رن ذات ليلة في الرابعة صباحا فقام س فزعا يظن أنه قد حدثت مصيبة في محيط أسرته ورفع السماعة فإذا هي صاحبته المطربة فظن س أنها قد أصابتها مصيبة، ولكنه فوجئ بها تقول له (على فكرة يا س أنا باجيب جواكت من بور سعيد لو عندك حد من صحابك عايز جواكت أنا عندي).

قال س واستيقظ أبي على رنين التلفون فلم أدر ماذا أقول له فوضعت السماعة وأنا أقول ماشي ماشي وأقول في سري حسبي الله ونعم الوكيل.
ويوم زواجه فوجئت بها ومعها عواد نصف كم، يقول لها كلما غنت بانبهار منقطع النظير: الله الله يا استاذة، صوتك بياخدني لعالم تاني، وحين دعيت إلى الغناء في ذلك العرس قالت بصوت سمعها الجميع: أنا هاغني عشان س حكم دا حبيبي من زمان، فكان من نتيجة هذه الكلمات أن س تعرض لمشكلة مع زوجته في ليلة الزفاف.
على أن من الإنصاف أن أقول لكم إن س كان أبعد ما يكون عن خداع الساذجات اللاتي يعلم أنهن على قدر من الأدب والتربية ولله في خلقه شئون.
وس من أسرع خلق الله بديهة لديه دائما رد على كل سؤال أو كلمة مفاجئة. أذكر أننا كنا ذات يوم في ميت غمر وكنا عائدين إلى القاهرة فأخذ صاحب المكروباص يقول مصر مصر مصر. فقلت له كم الأجرة؟ فقال أربعة جنيه فتركناه ولففنا في البلد لفة أخرى ثم عدنا فوجدنا صاحب المكروباص يقول مصر مصر مصر فقلت له كم الأجرة؟ فقال أربعة جنيه أنت سألت قبل كدا فقال له س طيب ما أنت قلت مصر قبل كدا ما زعلناش ليه!!.
وقال له صحفي يوما إن مجلة كذا قد جعلتني إنسانا تافها ومشهورا فقال له س اطمئن يا أخي أنت مش مشهور.
والأستاذ س كائن ليلي يعتبر الصحو نهارا مثل أكل الخنزير لا يكون إلا عند الضرورة وقد جر عليه ذلك خسائر غير قليلة، فحين كان يعمل صحفيا لبث أكثر من شهر يجتهد في أخذ موعد من مكتب السيد عمرو موسى حين كان وزيرا للخارجية وبعد أكثر من شهر ووفق على طلبه وحدد له موعد وبقي جنابه ساهرا كعادته فلما كانت الساعة السادسة صباحا بدأ رأسه ينمل.

قال فلما وصلنا إلى الساعة السابعة لم أعد أعرف الفرق بين عمرو موسى وعمرو دياب وأخيرا قال لزوجته سوف أنام ساعة ونصفا ثم أيقظيني ثم فتح عينيه وزوجته قائمة على رأسه فلما سألها عن الساعة قالت له الثالثة عصرا فنظر إليها وقال لها غطيني وصوتي.

تلك لمحات أو ومضات خاطفة من حياة الشاعر س.ف ولو شئت لكتبت عنه كتابا كاملا وهو بلا شك يستحق فهو من آخر ظرفاء هذا العصر.

***

فكر ثواني

منذ حوالي خمسة عشر عاما كانت المذيعة المشهورة نجوى إبراهيم تقدم برنامجها المشهور فكر ثواني واكسب دقائق، وكنت أيامها قد بدأت إعداد رسالة الماجستير وكانت المشكلة التي تواجهني أنني لا أجد من يقرأ ويكتب لي ومن يسعى معي إلى المكتبات ويقوم بتدوين الملاحظات التي تم جمعها من المراجع المختلفة.

وكنت قد أعددت لويكة موضوعا صحفيا كما قلت لكم من قبل فمضى به ويكة إلى مجلة كل الناس التي تكتب فيها السيدة نجوى إبراهيم أو لعلها كانت مديرة تحريرها. وكان ويكة يتجمل للسكرتيرة كما هي عادته في الترخيم على المزز فصارت بينهما صداقة إلى حد لا أعلم مداه إلا أن ويكة كان يبالغ في تقدير معطيات الأشياء كما هي عادته فكان يوهمني أن علاقتهما قد أوشكت أن تصير حبا.

وفجأة خطرت لي وأنا قاعد مع ويكة فكرة مدهشة لماذا لا أكتب رسالة مؤثرة إلى السيدة نجوى إبراهيم أشرح لها فيها مشكلتي العلمية وأرسلها مع ويكة فيسلمها إلى السكرتيرة فتسلمها إليها؟.

وبالفعل أمليت على ويكة رسالة مؤثرة جدا تاركا في آخرها رقم تليفون أختي إذ لم يكن لدي تليفون في ذلك الوقت. وقام هو بتسليمها إلى السكرتيرة ولكن سرعان ما ندم ويكة على هذا الخير الذي عمله معي فحاول أن يسترد الرسالة أو أن يمنعها من الوصول إلى السيدة نجوى إبراهيم ولكن محاولته باءت بالفشل.

ووصلت الرسالة بالفعل إلى السيدة نجوى إبراهيم التي قرأتها فتأثرت بها غاية التأثر إلى حد أنها أبكتها، فما كان منها إلا أن اتصلت بي لتعرب عن هذا التأثر وتعدني أنها سوف تساعدني وتم تحديد موعد للقاء.

وكان لقاء مشهودا قامت له مصر كلها ولم تقعد فقد تكلمت فيه عن أمور علمية وثقافية وحياتية متصفا بمنتهى ما يمكن من خفة الظل ثم ختمت اللقاء بشئ من أشعاري وأذيع رقم تليفوني عدة مرات على الشاشة فحفظته مصر كلها.

وكان أقصى ما انتهت إليه أحلامي أن أجد خمسة أو ستة قراء فإذا الذي حدث بالفعل أن انهالت علي آلاف المكالمات من مصر والبلاد العربية.

فهذا فريق يعرض علي إعانات مادية، وهذا فريق يعرض علي العمرة، وهذه نسوة يطلبن الزواج مني، وأخريات يطلبن الجنس بلا زواج، وأولئك قراء جادون يريدون أن يبدءوا العمل معي فورا. ونساء معجبات ليس لديهن إلا السهوكة والنحنحات والآهات والتنهدات.

وكتبت بعض الصحف تقول عني إنني أفاق، وكتبت صحف أخرى تقول عني إنني مثال للإرادة القوية وحاول بعض الفنانين أن يتخذني مادة إعلانية له ترفع رصيده عند جمهوره إذ اتصل بي الفنان عمرو دياب يعرض علي أن يقرأ لي وأنه مستعد للظهور في حلقة أخرى من حلقات فكر ثواني معي ليعلم الناس أن الفنان المشهور يساعد الكفيف العاشق للمعرفة فشكرته جدا وقلت له إن صوتك الذي يمتع الملايين والملايين لا يجوز لي أن أحتكره في

القراءة وإنني سوف أجد ألف قارئ ولكن كم عمرو دياب في العالم العربي!!!!.

واتخذني أهل مصر جميعا مستشارا لهم في مشكلاتهم الخاصة.

فهذه تحب كفيفا ولا تدري كيف تعامله وتسألني النصيحة، وهذه تحب خطيبها ولا تدري ماذا تقول له وتطلب مني أن أملي عليها خطابا غرامية ترسله إليه فأمليه عليها فعلا، وهذه تسكن في محافظة بعيدة ومنزلها آيل للسقوط وتطلب مني أن أكلم لها المحافظ الذي لا أعرفه ليوجد لها منزلا آخر. وهذه أبوها على وشك أن يسجن لأنه يعمل في بنك وهو متهم بالتبديد في عهدته وتسألني إن كنت أعرف لها رجال أعمال يستطيعون أن يقرضوهم المبلغ المطلوب.

وهذا زوجته بشعة لا تطاق وله منها أولاد ويسألني ماذا يفعل، وتلك أم تسألني إن كان الأصوب أن تأتي لابنتها التي هي في الثانوية العامة بمدرسين أم تتركها تعتمد على نفسها، وهذه عاهرة تريد أن تتوب وتسألني أن ألتمس لها زوجا ابن حلال يستر عليها واعدة إياي بأنها سوف تكون أشرف زوجة وأحن أم.

وإلى جانب أصحاب المشكلات كان هناك أصحاب الأسئلة العلمية، فهذا يسأل في التفسير، وهذا يريد أن أعرب له آية كريمة، وهذا يستفسر عن موضوع في التاريخ، وهذا يسألني عن أبسط كتاب في تاريخ الفلسفة ليبدأ منه قراءة الفلسفة.

وكان علي أن أبدو أمام الجميع شديد التحفظ متزن النفس، فللمزاح حدود وللعبوس حدود، وكانت أهم صفة يجب أن أتحلى بها هي القدرة على استيعاب الفضفضة ممن ضاقت صدورهم بما فيها ويكفي أن أقول لك إنني في الأيام الأولى لبدء الاتصالات أمسكت في يدي سندوتشا هو عبارة عن نصف رغيف أكثر من ساعتين عاجزا عن أن أقضم منه قضمة واحدة لأن يدي الأخرى تحمل السماعة وأنا إما مستمع أو معلق وفي الحالين لا أستطيع أن آكل.

نعم لست أدري كيف أعتبرني الناس بطلا قوميا فراحوا يقصون علي أدق أسرار حياتهم ويستشيرونني في أعقد مشكلاتهم.

ولكن من يعرض نفسه على الرأي العام فعليه أن يحتمل ما في الناس من تنوع، ومن يطلب من الناس خدمة مجانية فعليه أن يحتمل مذاق الامتنان الذ يصاحب التطوع.

فإلى جانب الذين ذكرتهم لكم كان هناك الهازلون العابثون الذين يريدون أن يضيعوا أوقاتهم مع أي أحد وبأية طريقة.

يرن التليفون فأرفع السماعة قائلا ألوه فإذا صوت يقول قولوا للعمدة البلد بتتحرق ها ها ها!، أو يرن التليفون رنة ترنك فأعلم أن المتصل يتصل من خارج القاهرة فأرفع السماعة فرحا لتجري هذه المكالمة حضرتك الأستاذ صلاح؟ نعم يا أفندم أنا هو، طز ها ها ها!!!.

ولم تخل علاقتي بالقراء من سخف كان علي أن أعانيه مادمت قد طلبت الخدمة من الناس جميعا.

اتصلت بي سيدة لتقرأ لي فلما زرتها في بيتها ومعي كتاب فتحت الكتاب وقالت برقة آسفة يا أستاذ صلاح الكتاب خطه دقيق وعلى عيني مياهة بيضاء فلن أستطيع القراءة فقلت لها لا عليك أعود في نفس هذا الموعد من الأسبوع القادم، وفي الأسبوع القادم رجعت إليها ومعي كتاب آخر فاعتذرت بنفس العذر، وفي الأسبوع الذي يليه حملت إليها أكثر من خمسة كتب وقلت لا بد أن يكون فيها كتاب واحد على الأقل غليظ الخط تمكن قراءته.

ولكنها اعتذرت بنفس العذر فيما يخص الكتب كلها فقلت لها وأنا خارج من بيتها للمرة الأخيرة يا سيدتي يمكنني أن أجد لك قراء يقرؤون لك ما تريدين أن تقرأيه!!!.

وهذا رجل اتصل بي ليقرأ لي في بيته فلما زرته ألفيته عجوزا قد تم توقيع أوراقه في الآخرة ونودي على اسمه ولم يبق إلا تسليمه لملك الموت فلما دخلت عليه فتح الكتاب ووضعه أمامه على المنضدة وأخذ يحدثني عن حياته منذ كان شابا إلى أن صار عجوزا فانسحبت من بيته برفق وأدركت أنه بحاجة إلى ونس.

وتلك طالبة جامعية واعدتني في المكتبة المركزية لجامعة القاهرة فلما تجشمت عناء الوصول إليها وجدتها لا تعرف القراءة فما هو إلا أن فتحت الكتاب حتى بدأت تقول تأ تأ فأ فأ مأ مأ ثأ ثأ فشكرتها بعد حوالي عشر دقائق وانصرفت متجشما عناء العودة.

وهذا رجل محترم أخذ مني كتابين ليسجلهما على أشرطة فلم أره إلى اللحظة التي أكتب فيها هذا المقال، وهذه سيدة أرسلت إلي سائقها فسلمت إليه كتابا

لتسجله وأنا إلى الآن أنتظر أن تفرغ السيدة الفاضلة من تسجيل الكتاب الذي تسلمته منذ خمسة عشر عاما!!!.

وكان من أعجب ما وقع لي في تلك الفترة أن صيدلانية غنية قد هامت بي حبا وكانت مسكينة قد أصابها اختلال نفسي بعد أن فسخت خطبتها ست مرات وأحيلت إلى إحدى المصحات النفسية عدة مرات.

كانت قد قدمت نفسها لي على أنها قارئة ثم لم تلبث أن صارحتني أنها تريد الزواج مني وأنها مستعدة أن تكتب لي شقتها وأن تشتري لي سيارة وتستأجر لي سائقا يقود لي السيارة حيثما أردت فشكرتها وأخبرتها أن ظروفي الحالية لا تمكنني من فتح بيت وأنا لا أقبل أن تنفق علي امرأة. فساءت حالها وتهيجت نفسها ومشت في الشارع حافية فلقيها ويكة فأخبرها أنه يحبها وأنه مستعد أن يتزوج بها وحذرته فلم يحذر وكان طمعه في مالها قد أعمى عينيه عن كل شئ فتزوجها وعاشرها فحملت منه ثم أحيلت إلى المصحة وبعد أن أفاقت ندمت أشد الندم على زواجها منه بعد أن علمت كيف ابتزها على أكمل وجه.

ولم يزل أهلها بويكة يستعملون الرفق تارة والتهديد تارة أخرى حتى طلقها.

وكان من عجائب تصاريف القدر مع ويكة والصيدلانية أن كليهما قد خدم الآخر من حيث لا يدري أو من حيث لم يقصد.

خدمها ويكة حين حولها من عانس في الرابعة والثلاثين من عمرها إلى مطلقة وأم في الرابعة والثلاثين، وخدمته هي حين مكنت له أن يقول في المجالس إنني كنت زوجا لدكتورة بينما كان أقصى ما يحلم به هو أن يكون زوجا لخادمة.

وبعد سنوات طويلة اتصلت بي الصيدلانية تشكرني على أنني كنت أمينا معها حين أخبرتها أنني لا أستطيع الزواج بها وتشكو إلي أمر الشكوى من ابتزاز ويكة لها.

ولكنني في بيوت الناس ومن خلال القصص التي حكوها لي عن أنفسهم وقفت على ألوان من التعاسة وأصناف من التعساء لم تزل أوجاعهم في قلبي إلى اليوم ولكن التجربة على العموم كانت ثرية استطاعت أن توسع دنياي بما لم أكن أحلم به ومن بين آلاف الأصوات التي سمعتها لم أزل على علاقة بستة أشخاص فقط.

وكان من أهم الدروس التي تعلمتها من هذه التجربة أن الدنيا حين تقبل علينا تعطينا ما لا نحتاج وحين تعرض عنا تأخذ منا ما نحن في أمس الحاجة إليه.



فيزا حب

كنت ذات يوم سائرا مع ويكة فمررنا بدكان البن الذي لا أشتري من غيره.
فلما رآنا صاحب المحل أمسك بي وحلف بما وسعه من الأيمان ألا أذهب حتى أحمل معي كيلو بن محوج كما هي عادتي، فأخبرته أن ثمن هذا البن ليس معي الآن فجدد القسم ألا أرد إليه ثمنه إلا حين أكون ميسورا.
وفي طريق عودتنا سألت ويكة هل في حياتك من يعرض عليك مثل هذا العرض؟ فقال لا.
وذات ليلة زارني الشاعر سمير فراج فتحدثنا ما بدا لنا أن نتحدث ثم لم يلبث أن طاف بنا طائف من الجوع، فصحبته إلى أحد محلات الكباب والكفتة فأكلنا ما بدا لنا أن نأكل ثم خرجنا دون أن يسألني صاحب المحل عن ثمن الأكل.
ثم دخلت به أحد المقاهي فشربنا ما شئنا ونحن نلعب الضمنو ثم خرجنا دون أن يسألني صاحب المقهى عن شئ.
وحين طلع الفجر مضيت به إلى أم محمد بائعة الجرائد والمجلات والكتب فاشتريت منها ما طاب لي شراؤه وانصرفت ولم تسألني عن ثمن الكتب، وكادت الدهشة أن تذهب بعقل سمير فسألني كباب، وكفتة، ومشاريب، وكتب ومجلات شكك!!!.
فضحكت وقلت له وحياتك وحلاقة، وتاكسي، وأدوية من الصيدلية، ولو كان جارنا سائق التاكسي مستيقظا لأرسلتك معه إلى بيتك على حسابي فقال لي سمير أنت تعيش في حيكم ملكا بمعنى الكلمة وهذا هو ما لا أستطيع أن أفعله.

وكانت تلك فعلا هي حياتي.. كنت أشكك من جيراننا طيلة الشهر ثم أدفع إليهم في أول الشهر الجديد ثمن ما اشتريته وكان ذلك يشعرني بمنتهى الأمان.

نعم لقد كانت ابتسامتي المحبة الصادقة فيزا مكيناتها أصحاب المحلات من جيراننا وأرقامها محفورة في قلوبهم جميعا.

واليوم يمنعني ما أنا عليه من اليسار، ومركزي بين أهل حينا، وكبر سني، يمنعني كل ذلك من الشكك، ويبقى سؤال يلح علي من حين إلى حين، هل الفقر هو ألا يكون معك في البيت أو في البنك مال تنفقه وقتما أردت أم الفقر هو ألا يكون في حياتك معين يعينك حين تحتاجه؟

لقد كنت أدخر الناس في الشوارع فكانوا يغنون عني من البنوك واليوم أدخر أموالا في البنوك فلا تغني عني من الناس شيئا كانت والله فيزا ولكنها لم تكن فيزا كارد بل فيزا حب.



قالت لي الخائنة

ترى هل يوجد في الدنيا شيء يبرر الخيانة الزوجية؟ بالطبع لا، ليس في الدنيا شيء يبرر الخيانة، أو السرقة، أو الرشوة، أو الاختلاس، أو القتل غير المشروع.

هذا هو ما تقوله الأديان وكتب الفلسفة الأخلاقية المثالية، ذلك لأنها تستنهض أرقى ما في الإنسان وهو الصبر الباعث على التحدي، وهذا الصبر مستمد من الإيمان بقيمة عليا مصدرها الدين، أو العرف، أو الأفكار الفلسفية ذات الطابع المتسامي.

ولكن المعايير المتعالية شيء، والطبيعة الإنسانية المتموجة المتغيرة شيء آخر، ولو أن الناس امتثلوا للمعايير العليا لما عرفوا من الدموع إلا الدموع التي تسببها أمراض العيون أو التي تسببها الأتربة في الأيام المعفرة، ولما عرفوا من الضعف إلا الضعف الذي يجدونه وهم أطفال، أو وهم مرضى، أو وهم عجائز.

ولكنهم في الوقت نفسه كانوا سوف يفقدون خاصة من الخواص الجوهرية في النوع الإنساني، لهذا فإنني منذ سنوات طويلة أنظر بعين العناية إلى الخطايا التي يفرزها الضعف الإنساني وإن كنت لا أبررها بل أحاول أن أفهمها.

وهذا بالفعل هو ما فعلته مع المرأة التي لم تجد حرجا في أن تصرح لي أنها تخون زوجها وأنها غير نادمة على ذلك.

كان بيتنا القديم كما قلت لكم من قبل يتكون من غرف متلاصقة وفنائين أحدهما رأسي والآخر أفقي وكان في كل فناء ثلاث غرف، وكان جيراننا في ذلك البيت متنوعين كأن كلا منهم يمثل الشريحة التي خرج منها.

وكان من بينهم شاب حرفي يشبه سادة العرب في الجاهلية، كان كريما، طائشا، مولعا بالنساء، عاشقا لمجالس الأنس، وكان إيمانه بالجدعنة فوق إيمانه بالدين، فالحلال عنده ما أحله العرف لا الدين والحرام ما حرمه، وكان يفهم من معنى الشهامة أن يحمي نفسه، ويغيث الملهوف المستعين به، وأن يشرك أصحابه في طعامه وشرابه وسجائره إلى آخر جنيه.

ولم يكن يفهم من كلمة الحب تلك المعاني السامية التي يلهج بها الرومنسيون ليل نهار، بل قصارى ما كان يفهمه من تلك الكلمة أن يتقلب جسمان على سرير واحد في ليلة معتمة بعد نفخة بسيطة في المصباح البدائي الذي يعمل بالجاز، ولم يكن يستكين إلى أي معنى من معاني الحنان إذ لم يذقه في حياته الأولى، فقد اختفت أمه في ظروف غامضة فألقى به أبوه الفظ الغليظ إلى جدته ثم إلى عمه فنشأ رجلا بمذاق الشارع، فيه ما في الشارع من جبروت وصخب.

وكان يجيد المواويل والغناء الشعبي، فكان كلما قعد يغني في الفناء ألقينا إليه السمع وقد أخذ السرور بمجامع قلوبنا، ولم يكن يزيد على حبه للنساء والحشيش إلا حبه للمشاجرات التي كان غالبا ما يخرج منها منتصرا، لهذا كان يرهبه المستضعفون وتعشقه نساؤهم، ولم يكن يعبأ بما يقول الناس عن سمعته، فالمهم عنده أن يدرك لذته العاجلة.

وحدث أنه مضى إلى إحدى المحافظات البعيدة ليعمل فيها، وبعد حين من الدهر جاءنا مصطحبا صاحبه، وأطفال صاحبه، وزوجة صاحبه ليقيموا معه في حجرته، كان صاحبه رجلا ضخما ممتلئ الجسم ضحوكا لا يكاد يمسك عن الضحك، أكولا، حشاشا، محبا للمجالس مسالما لا يكاد ينطق إلا بما يرضي أسماع من حوله.

أما زوجته فكانت طويلة عريضة ضاحكة مستميلة، مستمالة، بيضاء تسر الناظرين، حين تقعد مع الرجال في فناء البيت فإنها تعرف كيف تلقي إلى هذا نظرة، وتنعم على هذا بابتسامة، وتضغط على يد هذا حين تصافحه، وتقول لهذا كلمة ذات معنيين فلم يكن ينقضي المجلس إلا والرجال جميعا أسراها يتشوقون إلى الليلة التالية ليجمعهم بها مجلس آخر.

وحين يأتون في الليلة التالية يأتون مغتسلين، متعطرين، مستعدين لأن يجودوا بما معهم، ويقترضوا فوق ما معهم، يقصون عن أنفسهم بالحق وبالباطل بطولات ربما لم تخطر لهم على بال من قبل، فهذا البخيل يقص على أهل المجلس كيف أنقذ أسرة من الضياع بما دفع لهم من أجرة متأخرة بعد أن كاد صاحب البيت يطردهم، وهذا الجبان يقص على أهل المجلس قصة المشاجرة التي خاضها فضرب فيها رجالا غلاظا شدادا حتى فروا من بين يديه فرار القطط.

وهذا الحالنجي يقص عليهم كيف أستطاع أن يخدع زبناءه ورب العمل وأن يأخذ منهم أضعاف مستحقاته وهم لا يشعرون، ولا تعجبوا من هذا فإن الغش قد يعد في الأحياء الشعبية نوعا من الشطارة.

وهي عليهم رائحة غادية، تحضر العشاء والشاي، وتشارك في الأحاديث بأن تسأل، أو تتعجب، أو تضحك، أو تظهر شغفها بما يحكى. ومن حولها الرجال ذوو القلوب المحترقة يرسلون عبر العيون العطشى في طلب النجدة العاجلة أما هي فمقيمة بين لا ونعم.

وآه ثم آه حين ترسل إحدى طفلاتها لشراء بعض مستلزمات البيت من سكر، أو زيت، أو جبن، أو بيض، هنالك تنشق الجيوب عن محتوياتها ويرفع

كل واحد أيمانه المغلظة إلى السماء السابعة بالله والطلاق والعتاق، أن يدفع هو ثمن هذه الأشياء، وهي تردهم بلين يغريهم بمزيد من الإصرار.
وأخيرا يقع الاختيار على واحد من المجلس فيعتبر ذلك الواحد أن أهل المجلس قد أسدوا إليه جميلا حين أولوه هذا الشرف، أما هي فتوحي إليه أنها إنما قبلت منه هذا –وما كان لها أن تقبله– لأمر في نفسها لا يفهمه إلا الفهلوي.
فيستطار الفهلوي فرحا بما أوتي من الفوز على أعضاء المجلس، أما كل من لم يدفع فيظن أن ميلها الشديد إليه ذلك الميل الذي لا يقاوم هو الذي دفعها إلى أن توفر عليه نقوده وأن تترك المغفل الخيخة يدفع ثمن المشتريات وبهذا يطمع من دفع ومن لم يدفع، وهذه لعبة معقدة يلعب فيها التلميح دور التصريح والإيحاء دور الوعد القاطع.
أما عن معاملة المجلس لزوجها فحدث عنها ولا حرج، فهذا يقدم له سيجارة ملفوفة، وذاك يؤثره بحجر زائد، وذلك يقسم له بكل يمين أنه أحبه من أول يوم عرفه فيه ورابع يوجه كلامه إليه وحده، وخامس يقسم عليه بكل يمين أن يتعشى عنده غدا، وسادس يدله على نوع رخيص جيد من الحشيش أو البنجو وأنه ما فعل ذلك إلا من أجله هو.
وكان جارنا الشاب صاحب الغرفة معجبا بهذا المهرجان المتصل إذ توجد وفرة من الطعام والحشيش والونس الذي لا ينقطع.
ولم يمر وقت طويل حتى تبين لنا أن هناك علاقة خاصة بين جارنا الشاب وزوجة صاحبه، وأنه من أجل هذه العلاقة جاء بهم معه مطمعا زوجها أنه سوف يجد له عملا أفضل في القاهرة.
وحين سألت جارنا عن هذه العلاقة لم ينكرها لأنه كان يثق بي كل الثقة.

على أن مجالس الأنس لم تكن تنعقد كل ليلة في بيت جارنا الشاب بل كانت تتنقل من بيت إلى بيت.

وكانت هناك ليال لا تنعقد فيها مجالس الأنس أصلا، فكانت هي تحتال على زوجها بأن تعطيه دواء فاتحا للشهية بزعمها والحقيقة أنه كان دواء منوما إلى حد الموت، فكان صاحبنا إن أخذ منه ملعقة في الحادية عشرة مساء ينام إلى ظهيرة اليوم التالي.

وانتهزت فرصة كان فيها مجلس الأنس منعقدا في مكان آخر وكانت هي في البيت وحدها.

جلست إليها أحادثها أحاديث عامة ثم لم ألبث أن تطرقت إلى علاقتها بصاحبنا، فقلت لها بشكل مباشر إنني أعجب منك غاية العجب، كيف يكون لك زوج وسيم، جسيم، طيب القلب، وطفلات هن أشبه بالورود، ومع ذلك تخونين زوجك!!!.

على أنني أستطيع أن أجزم أن علاقتك بصاحبنا لم تكن هي العلاقة الأولى من نوعها، فتعاملك مع الرجال بهذا المكر الرقيق أو الرقة الماكرة يدل على أن لك تجارب سابقة مكتملة، فما كان منها إلا أن ضحكت ضحكا يتخلله الخجل الذي لا مبرر له ثم قالت: لقد تزوجت زوجي وكنت أحبه لأنه كما تقول وسيم، جسيم، طيب القلب، ضاحك الوجه، اجتماعي، لكنني سرعان ما اكتشفت بعد فترة قصيرة أن هذا كله لا قيمة له لأنه ينقصه أهم شيء تحتاج إليه المرأة الا وهو الرجولة.

كان يستدعي أصحابه ليسهروا معنا في غرفتنا الصغيرة لتسليك مصالحه، دون أن تعنيه نظراتهم إلي، مهمى يكن في هذه النظرات من جنس فاضح، بل كان يتركني معهم أحيانا ويخرج ليشتري شيئا، وذات يوم قلت له هناك شقة

شباب عزاب يريدونني أن أخدم فيها فما قولك؟ فلم أشعر به إلا وقد بصق في وجهي قائلا: روحي يا بنت الوس**، عايز أشتري الشبشب الجديد أبو اتناشر جنيه.
وهل تظن أنه ليس على يقين من علاقتي بصاحبه؟ أقسم لك أنه يعلمها لكنه يتغاضى عنها انتظارا لمصلحة قادمة أو متوقعة، ولقد رآني معه نتهامس في الظلام فما كان منه إلا أن كشر بعض الوقت ثم اقتنع بالكلمات الملفقة التي قالها له صاحبه وعاد كأن شيئا لم يكن!!!!.
ولو أنك رأيت علاقته بي على السرير لسقط من نظرك كما سقط من نظري، قبل أن أستسلم له يرق صوته وتلمع عيناه ويقبل رجلي من الموضع الذي أدوس به على الأرض، حتى إذا فرغ من عمله الذي لا يمكن أن يشبع امرأة بصق في وجهي وولاني ظهره وكأنني أعدى أعدائه.
لقد تعلمت على يديه قسوة القلب كما تعلمت على يديه أن جميع الرجال ليسوا إلا وسائل لتحقيق مصالح، فمنهم من يستجيب بالنظرة، ومنهم من يستجيب بالبسمة، ومنهم من يستجيب باللمسة، ومنهم من يستجيب برؤية موضع خفي من جسمي أبرزه له لتقع عليه عيناه وهكذا، على أن منهم من لا يستجيب إلا حين ينالني أنا شخصيا، وأما أنا فلم أعد أبالي.
فلم أمهلها أن قلت لها إن لم يسعك الصبر عليه فإن الخيانة ليست هي الحل الوحيد هناك الطلاق، وبعد الطلاق يمكنك أن تجدي رجلا آخر يعوضك عن هذا الحرمان.
فضحكت ضحكات مرة ثم قالت إن الطلاق كلمة يسهل أن يتلفظ بها رجل غضبان، أو كاره، أو مستهتر، ولكن يصعب أن تسمعها امرأة أمامها ثلاث بنات، ومن ورائها أب وأم، وإخوة وأخوات، وجيران، وصديقات، ومن ذا

الذي يرضى أن يتزوج امرأة مثلي؟ أترى إلى هؤلاء الذين تكاد تنقلع أعينهم اشتهاء لي؟ أتظن واحدا منهم يقبل أن يتخذني له زوجة أو أما لابنه القادم؟ بالطبع مستحيل لأن كل واحد منهم يريد لذة عاجلة لا يترتب عليها أية مسؤولية، لأن الناس لا يتزوجون إلا حين يعشقون، أو حين يحتاجون، أو حين يحترمون، أو حين يثقون، وأنا للأسف لا أصلح لشيء من هذه الأربعة.

وبعد فترة قصيرة رحلت هي وزوجها وبعد فترة أخرى ترك جارنا غرفته ورحل هو أيضا، وحين لقيته بعد رحيله بسنوات طويلة وسألته عن أحواله وعن صاحبته أخبرني أنها هي التي طلبت الطلاق وأصرت عليه، والحق أقول لكم، لم أستطع أن أشفق عليها، ولم أستطع أن أعذرها، ولم أستطع أن أبرر فعلها، ولكن أهم درس تعلمته من كلامها معي أن خيانة الزوجة تبدأ غالبا من الزوج.



كفيف السينما

تكاد نظرة المجتمع إلى الكفيف تكون نظرة متناقضة، فهو من ناحية المقدم في كل زحام وهو من ناحية أخرى المستثنى من كل عمل مهم.

وهو من ناحية رجل الدين الذي توثقت صلته بالمجهول تعويضا عما فقد منه، وهو من ناحية أخرى رائد الفكاهة في مجالس الأنس،وبالرغم من أن لكل كفيف مكوناته النفسية الخاصة –شأنه شأن غيره– فإن لاوعي المجتمع يميل إلى أن يجعلهم فصيلة واحدة. فمن رأى كفيفا ضاحكا فقد وجب عليه أن يضاحك كل كفيف يلقاه، وقل مثل هذا في غير هذا.

ولم يكن الأدب إلا انعكاسا لتصور المجتمع، فقد يقترب الأديب من نموذج الكفيف الذي يتعرض له وقد يبتعد عنه، فربما تأتي معالجته على نحو رائع كما هي الحال في قصيدة بدر شاكر السياب المومس العمياء. أو على نحو مترهل كما في قصة الدكتور يوسف إدريس بيت من لحم، أو على نحو توصيفي كما في قصة نرجس العمياء التي كتبها محمد لطفي جمعة، أو على نحو ساذج كما في قصيدة علي الجارم الأعمى .

فإذا صرفنا النظر تلقاء السينما فسوف نجدها تتناول صورة الكفيف بواقعية ولكن أية واقعية؟ إذا فهمنا من الواقعية معنى المخالفة للقصص التاريخي، والقصص المترجم، وقصص الخيال العلمي، أمكننا أن نقول إن دور الكفيف قد دخل حيز السينما الواقعية.

أما إذا فهمنا منها معنى الواقعية السيكلوجية والسلوكية فإننا لا نجانب الصواب حين نقول إن السينما في تسعة أعشارها قد تجافت عن الكفيف بمعناه الصحيح أو قل بصورته الصحيحة،ولنقدم هاهنا طائفة من الأفلام يتضح فيها دور الكفيف.

١ أغلى من عيني سميرة أحمد وعمر الحريري؛ ٢ حب في الظهيرة عماد حمدي وفاتن حمامة؛ ٣ عبيد المال عماد حمدي وفاتن حمامة؛ ٤ اليتيمتان فاتن حمامة وفاخر فاخر؛ ٥ الشموع السوداء صالح سليم ونجاة؛ ٦ حكاية حب فردوس محمد وعبد الحليم حافظ؛ ٧ ليه يا بنفسج حسن حسني وفاروق الفيشاوي، ٨ الكيت كات محمود عبد العزيز وشريف منير؛ ٩ وا إسلاماه حسين رياض ولبنى عبد العزيز؛ ١٠ قاهر الظلام محمود ياسين؛ ١١ صباحه كدب أحمد آدم؛ ١٢ أمير الظلام عادل إمام؛ ١٣ جسر الخالدين سميرة أحمد؛ ١٤ العمياء سميرة أحمد.

وبديهي أننا لن نقف عندها جميعا بل سوف نختار منها مجرد نماذج نستدل بها على ما نذهب إليه.

والمدقق في هذه الطائفة من الأفلام يجد أنها تنقسم إلى أربعة أقسام: فمنها ما يعالج كف البصر بوصفه حالة حياتية ثابتة: حكاية حب . ليه يا بنفسج . الكيت كات. صباحه كدب؛ ومنها التاريخي وا إسلاماه؛ ومنها الواقعي قاهر الظلام؛ وآخر هذه الأقسام ذلك الذي يتناول كف البصر بوصفه عقدة مركزية يتمحور حولها الفيلم ثم لا تلبث جميع الخيوط الفرعية أن تنسجم بمجرد رد البصر.

ونحن نؤثر أن نبدأ بهذا الصنف الأخير، فنقول إن هذه الطائفة من الأفلام لا تقدم الكفيف الحي المتحرك بل تقدم بطلا أصابته أزمة ثم انفرجت، وبهذا ينفصل تماما عن الواقع التجريبي للكفيف ذي الخبرات المتراسلة والمكونات النفسية الخاصة.

يقوم فيلم أغلى من عيني –الذي كتبه وأخرجه المخرج محمود ذو الفقار سنة ١٩٥٩– على علاقة بين رجل مشوه الوجه وفتاة عمياء فقد أصيب كمال بطل

الفلم بتشوه في الوجه على أثر حريق، فنقم من الدنيا هذا الصنيع. الأمر الذي دفعه إلى دخول إحدى صالات القمار حيث لقي هناك مقامرا قامت بينه وبينه علاقة لم تلبث أن توثقت. حتى إذا قصد كمال عوامة ذلك المقامر لقي هناك ابنته العمياء، ثم تتلاحق الأحداث سراعا فيصبح كمال رجلا غنيا عن طريق القمار، ثم يموت أبو الفتاة فلا يصبح لها عائل إلا كمال، هنالك يربط الحب بينهما فيتزوجان، حتى كانت المفاجأة حين أخبر الطبيب الفتاة أن من الممكن رد بصرها إليها وحاول كمال أن يثنيها عن عزمها مخبرا إياها أنه يحبها كما هي إلا أن إصرارها جعله يذعن في النهاية لطلبها. وبالفعل تنجح العملية ويختفي كمال لئلا تراه حبيبته بعد أن أبصرت فتعلم أنه مشوه، فتمحَى صورته الجميلة التي كانت في خيالها. غير أنها سرعان ما تتفقده فلا تجده بل تجد خطابا منه يخبرها أنه بصدد الانتحار، فتلحق به مؤكدة له أن صورته لن تتغير في عينيها.

والمدقق في هذا الفلم لا يجد نفسه أمام كفيفة بالفعل بل بصدد فتاة طال عليها الأمد في فقد البصر، فلم تزل تركن إلى خبراتها غير البصرية ثم تهدر هذه الخبرات بمجرد رجوع البصر إليها، ونحن من جانبنا نلاحظ أن واضع الفلم كان يتراوح –في تصويره لإحساس الفتاة بوصفها كفيفة– بين القرب والبعد.

أما فيلم عبيد المال فتتمركز عقدته حول فتاتين إحداهما صالحة والأخرى طالحة تتماثلان صوتيا، فأما البطل الكفيف فقد قاده حظه العاثر حين كان مبصرا إلى خطبة الفتاة الطالحة، فلما فقد بصره تعرف إلى تلك الفتاة الثانية التي أحبته بالفعل والتي جعلت تحذره من أن خطيبته سوف تقتله مستعينة بصاحبها الشرير، حتى إذا عاد إليه بصره ميز هذه من تلك وقفز هو وحبيبته صوب النهاية السعيدة التي هي مصير الأفلام العربية غالبا.

أما النموذج الواقعي فقد كانت له مظاهر عديدة، فمنها السلبي تماما على نحو ما نجد في دور فردوس محمد في فلم حكاية حب، إذ تقنع بمجرد التلقي، كما أن هذا الفلم يعكس لنا تصور غير قليل من المبصرين حيال قصور إمكانات المكفوفين، ولا أدل على ذلك من أن بطل الفلم كان يصر على إطعام أمه الكفيفة بيده، على حين يصر أخوه الأصغر على قيادة أمه في البيت الذي يفترض أنها تعرفه.

ويمثل فلم الكيت كات تجربة فريدة في هذا الاتجاه، إذ يصر بطله أن يتعالى على ذاته وأن يكون هو جزءا من مادة الحياة يملؤها ويمتلئ بها، بقطع النظر عن التحفظات التي يلزمها الكفيف في بعض مظاهر حياته المعيشية، ويقع مخرج الفلم في خطأ كثير من المبصرين حين يترك بطل الفلم يتحدث عبر الميكروفون دون علم منه بذلك، متجاهلا تلك الثروة الإحساسية التي ربما دفعت الكفيف إلى الإفراط في الاحتياط.

وهذه الشريحة موجودة بلا شك لكن الذي لا نوافق عليه هو تصوير ذلك الكفيف بصورة السوبر مان الذي يبتز خيال السذج من عوام الناس.

وبالرغم من أن فلم وا إسلاماه فلم تاريخي وبالرغم من أن كف بصر البطل يمثل حالة حياتية ثابتة فإن مخرج الفلم قد أبى إلا أن يستفيد من أبعاد هذه العاهة في تشكيل نسيج الفلم، الأمر الذي أبعد كفيف هذا الفلم عن النموذج المنساب طبيعيا، وجعله نقطة لتصعيد الصراع ليبلغ قمته.

أما فلم قاهر الظلام فهو ينتمي إلى ما يمكن تسميته الأسطورة المعقولة، فالفلم لا يكاد يركز إلا على الجوانب الساخنة في حياة طه حسين، وبهذا فقد التوازن الذي يدنيه من الشريحة العامة من المكفوفين.

وأخيرا يبقى السؤال ما الذي أردناه من تحليل هذه الأمثلة؟ الذي نريده هو أننا إذا ما مضينا نتفحص مجموعة الأفلام التي تعرضت لكف البصر بوصفه حدثا دراميا فسوف نلاحظ ملاحظة بالغة الأهمية هي أن جميع هؤلاء الأبطال قد ولدوا مبصرين ثم جاءهم كف البصر على إثر حادثة تجيء في أول الفلم أو توضع في الاعتبار من قبل الفلم وهذا الاعتبار له أهميته من ناحيتين: الأولى أنه ينسجم طبيا مع إمكانية رجوع البصر، والثانية هي رجوع البصر بالفعل على أثر عملية جراحية أو حادثة من جنس الحادثة الأولى.

فسقوط بطل فلم الشموع السوداء منعلى السلم كان سببا في رد بصره إليه، وقل مثل هذا في بطلتي اليتيمتان وحب في الظهيرة، إلا أن هذا الاعتبار المشار إليه سلفا يخرج هؤلاء من زمرة المكفوفين.

لأنهم يتعايشون مع الحياة من خلال مردود خبراتهم البصرية السابقة وعلى هذا فأحاسيسهم أحاسيس مبصرين، فهم يتذوقون الألوان مثلا عن طريق الذاكرة كما يتخيلون السماء وغيرها فهم بهذا ينفصلون عن سيكلوجية الكفيف الذي يلجأ إلى طرق تعويضية لإقامة جسر بدائي ساذج بينه وبين هذه الموجودات.

كما أن رد البصر في نهاية الفلم معناه أننا لا نعالج مفردات خاصة بشريحة من الناس بل نتمركز حول البطل الذي عاقه عائقما عن الاستمرار في مسيرة الحياة الاعتيادية وعلى هذا فإن العائق لا تبدو قيمته إلا بمقدار ما ينبني عليه من أحداث جزئية تؤثر في تطور الخط العام.

على أن هذه المعالجة أيضا لم تخل من سذاجة، يدلك على هذا عدم انتباه بطل الشموع السوداء إلى أن أخاه يقوم بتوسيخ ملابسه، وعدم انتباه بطلة اليتيمتان إلى أن العجوز قد ألبستها ثوبا متسخا، وأبشع من هذا ما وقع فيه

معدو فلم صباحه كدب إذ نرى البطل الكفيف يخدعه صاحبه المبصر فيوهمه أنهما عند السيد البدوي بينما هما في الإسكندرية كأن كل المحيطين بالسيد البدوي صم بكم بل أموات!!!.

أما قصص الحب التي قد تنشأ بين كفيف ومبصرة أو العكس أو بين كفيف وكفيفة وما ينتاب ذلك من إقبال وإعراض وخوف وتردد ومبالغة في الوسواس والتوهم وما قد يتبع كف البصر من إحساس بتضخم في الأنا أو الإحساس بالدونية وما إليها فلا مجال لها على الشاشة الكبيرة.

وبعد فإني لم أقدم هذا المقال بوصفه رأيا قاطعا بل بوصفه طرحا أرجو أن يكون جديرا بعناية النقاد والمسألة أولا وأخيرا أخذ ورد.

***

رغم أن أمي قد اشترت لنا ما يكفي من العرق سوس، والتمر هندي، والطرشي، ورغم أن هذا اليوم الأول من رمضان كان يجمع بين الطول وارتفاع درجة الحرارة، ورغم أنني كنت منهك القوى إلى حد أعجز معه عن القيام فضلا عن الحركة.

رغم كل هذا أحسست بحاجة ملحة لأن أشتري مزيدا من العرق سوس والتمر هندي والطرشي، دون أن أفكر فيما إن كنت سوف أستعملها تلك الليلة أم لا علما بأن هذه المشروبات الباردة لا يمكن أن تبقى أكثر من يومين على أي حال.

وبالفعل مشيت إلى باعة هذه المشروبات الباردة مصدع الرأس، مرتعش الجسم، خفيض الصوت، شاحب الابتسامة، كنتيجة من نتائج الانقطاع المفاجئ عن التدخين والقهوة، ذلك لأن شراء هذه السلع بالنسبة لي ليس رهنا بالاحتياج بالمعنى الاقتصادي البحت الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم طيلة العام.

بل هو معنى من معاني المعونة والمساندة، أجل معنى من معاني المودة يلتقي فيه القادرون والعاجزون على ذلك الجسر الذي يربط بين الإيمان والسلوك، وذلك لأن كثرة من باعة هذه السلع لا يكادون يجدون عملا مربحا طيلة العام فكأنهم يدخرون في هذا الموسم ما يعيشون عليه عامهم كله.

وهذا اللون من الشراء أيضا هو معنى من معاني المعونة النفسية لأن كثرة المزدحمين حول هذا البائع تشعره بأهميته ولو مؤقتا، فمن حوله زحام وهو يصيح على هذا، ويترقق لهذا، ويبتسم في وجه هذا، ويزيد لهذا، وينقص من هذا، والناس من حوله يمدون إليه الأصوات بالنداء، والأيدي بالجنيهات،

والشفاه بالابتسامات، والأعين بنظرات الرجاء أن يصرفهم سريعا كأنه ملك مصغر في مملكة مصغرة.

وما يدريك لعل أحد هؤلاء المشترين الذين يخطبون وده اليوم يمر به في غير هذا الموسم فلا يكاد يلقي عليه السلام.

وحين يكون مقصدنا من شراء هذه السلع هو المعونة لا الاستفادة فإننا لا ندقق في مستوى السلعة جودة ورداأة، أو قلة وكثرة، بل يكفينا أن يصل إليه من أموالنا ما يصلح للاستهلاك الآدمي، وتلك من معجزات الإيمان في قلوب المؤمنين، أن يحول الفقر إلى شكل من أشكال الغنى، والغنى إلى شكل من أشكال العطاء، وليس معنى هذا أن كل من يشترون هذه السلع يشترونها مدفوعين بالهدف الذي أشرت إليه بل معناه أن رمضان يعطي بعض الناس فرصة لتأجيل أنانيتهم والتعالي على ذاتيتهم المستعرة.

***

مطرب الغبرا

كان بسبس يعاني من التهابات حادة في إيمانه بموهبته الغنائية التي لا وجود لها. كان يقبل منك أن تهينه في أي شئ: في عرضه أو نفسه أو دينه إلا في موهبته الغنائية. وبناء على هذا الإيمان فقد ترك بسبس مهنته الأساسية وهي نجار مسلح لكي يجيب داعي الفن.

وبما أنه كان مسيحيا فقد جرب أن يغني بعض الترانيم في الكنيسة فهبد بصوته هبدة كاد يقلب بها المسيحية إلى هندوسية فأباحوا له الصلاة ومنعوه من الغناء فخرج إلى الشارع يطلب الغناء تاركا الصلاة إلى الأبد.

وكنت حين تسمعه يغني تتيقن أن صوته يخرج من أي مكان في جسمه إلا من حنجرته. فقد كانت له في الغناء سحبة حين تسمعها تتذكر موت عزيز عليك كما كانت في صوته كتمة غريبة فإن غنى مثلا لنجات انقلبت نجات في فمه بقدرة قادر إلى عبد المطلب.

ورغم هذا فقد كانت له جماهيره التي تستمع إليه، وأفراحه التي يغني فيها، بل كانت له معجباته اللاتي يتنهدن عند سماع صوته.

ولا تعجبوا من هذا فحين يكون أهل العروسين جرابيع، وجمهور الفرح من المصاطيل والسكارى، والعريس مدهول، والعروسة سَكة، فمن الطبيعي أن يكون مطرب الفرح هو بسبس.

وكان قبح صوته هذا من أسباب نجاته أحيانا فقد حدث أن أحد المقاهي أراد أصحابه إحياء ليلة رأس السنة فأتوا براقصة واختاروا بسبس ليكون هو مطرب الحفل فرقصت الراقصة وغنى بسبس وبدأ السكر والصطل يعملان عملهما في رؤوس الجمهور فتشاجروا مشاجرة عنيفة من أجل الراقصة وضرب بعضهم بعضا بكل ما تطوله الأيدي إلى أن جاء البوليس فقبض على

أصحاب المقهى، وعلى المطرب، وعلى الراقصة، وعلى الجمهور وأخذهم بربطة المعلم إلى القسم. وبالصدفة كان بسبس من أوائل من خرجوا من القسم فقال بعضهم على سبيل الاستهزاء يبدو أن بسبس قد غنى في القسم فطردوه اتقاء لصوته.

وكان يتعشق امرأة قد أكل عليها الزمان وشرب فصعد إليها ذات ليلة من المنور فزلت قدمه وأفلتت يداه فسقط على الأرض فصاح بأعلى صوته من شدة الألم ذاهلا عما قد يفعله الناس. فاجتمع إليه الناس فأوسعوه ضربا حتى أوجعوه وبقيت حادثة المنور تتردد بين الناس حينا من الدهر.

وفي أحد الأفراح كان بسبس يغني أغنية نجاة (من الشباك وأنا قلبي على الشباك) فقال له واحد من الجمهور بعد أن بلغ به السكر مبلغه (لأ لأ يا بسبس سيبك من حكاية الشباك دي عازينك تغني وتقول من المنور وأنا قلبي على أنور)، فضج الفرح كله بالضحك لأن حديث المنور كان باقيا في ذاكرة الناس.

واليوم قد يلقاني بسبس فيحييني فأحييه من بعيد ولست أكن له كراهية أو اشمئزازا ولكني أخاف إن اقتربت منه أن يغني لي.وحين مات بسبس أحسست أن موته كان مثله بلا مذاق ولا لون ولا رائحة كأن بسبس كان ظلا لغيره فلما مات صاحب الظل اختفى الظل.

***

مع العيد

ليس العيد مجرد يوم معلوم أو أيام معلومة في أشهر معلومة من العام بل هو لافتة نعلقها على فترة معينة لنهبها أو تهبنا مذاقا خاصا ليس في غيرها من الأوقات.

والأعياد في أيام السنة كالأطفال في بني الإنسان، لهذا فإنها لا يفهمها حق الفهم ولا يحس بها حق الإحساس إلا الأطفال.

فالعيد بالنسبة للمتدين وسيلة من وسائل الطاعة وتسخير الدنيا للآخرة، والعيد بالنسبة للعجائز طريقة لتذكر الماضي البعيد، والعيد عند الفقراء مائدة واسعة أو ضيقة، والعيد بين الأغنياء أسلوب آخر للإنفاق وفرصة للاستمتاع.

إلا الأطفال فإن العيد عندهم عيد فقط بلا زيادة ولا نقصان، فهم يستطيعون أن يستوعبوا بما في قلوبهم وما في أرواحهم من طفولة ما في الزمن من طفولة، والنقود التي يأخذونها في العيد ليست مجرد وسيلة للإنفاق فحسب، بل فيها معنى زائد على هذا فهي عندهم أداة من أدوات الزينة مثلها كمثل الملابس الجديدة والأحذية الجديدة فإن تقطع لهم قميص أو حذاء، أو فقدت لهم نقود، أو أصابهم جرح في أيديهم أو أرجلهم، فإنهم يجزعون لما أصابهم أضعاف جزعهم في أي وقت آخر، وما جزعهم حين يجزعون على هذه الأشياء حبا لها في ذاتها بل لأن جزءا من العيد قد فقد معها، وعواطفهم الطفولية النقية تريد العيد كما ألفته صحيحا جديدا كاملا.

فالأطفال في العيد يبتكرون فرحة أما الكبار فإنهم يكررون ما اعتادوا عليه في السنوات السابقة، وآية ذلك أن الكبار يسلمون في العيد على من أحبوا وعلى من كرهوا، أما الأطفال فلا يلعبون إلا مع من أحبوا لأن ما هم عليه من

صدق الفطرة يأبى عليهم النفاق والافتعال وما جرى مجراهما من الصفات المذمومة التي لا بد أن نتعلمها ونحن كبار.

وما يدريك؟ لعل ما يغشى وجوه الكبار من بشاشة، وما يصيب صدورهم من سعة، وما يطوف بقلوبهم من دواعي الحب والبهجة إنما هو بقية من الطفولة الكامنة في أعماقهم جاءت طفولة الزمن فأحيتها بعد ممات أو أيقظتها بعد سبات.

ويختلف العيد الديني عن كل عيد وطني أو اجتماعي، لأن العيد الديني هو نوع من التواصل الفرح بين السماء والأرض، فجوهره يرد قلوب المؤمنين إلى النقاء الأول كما أن مظهره يتجاوب مع طفولة الأطفال، والعيد الديني يحمل إلينا علاقة بين أضلاع ثلاث، هي التضحية، والذكرى، والفرحة، ففي البدء تكون التضحية ثم تتعاقب الأزمان فتصبح ذكرى ثم نأتي نحن لنحيين الذكرى بأن نعيد التضحية وأخيرا تأتي الفرحة كنتيجة من نتائج التضحية والتذكر.

ومن عجائب العيد في كل أمة وكل دين أن توقعنا له ومعرفتنا بميقاته لا يقلل فرحتنا به، فإن أتاك العيد ولم تفرح فلا تحسب أن العيد قد جاء في هذا العام منزوع الفرحة بل قل إنك أنت الذي كبرت على الفرحة.

ولي مع العيد ذكريات حلوة مع أنها مخجلة، أذكر في أيام طفولتي أو قل في الصبى الأول أن شابا أكبر مني قد خدعني خدعة لذيذة، ذلك أنه باع لي ورقتين صغيرتين وزعم لي أنني إن حككت إحداهما بالأخرى صدرت عنهما زغاريد، وأن ثمنهما قرش واحد، فاشتريتهما منه وتوليت عنه فتبعني وأخذ ينظر إلي فكلما حككتهما أطلق هو زغرودة عالية، فكاد عقلي يطير من الفرح بهاتين الورقتين النادرتين، فلم ابتعدت عنه وأوشكت أن أدخل بيتي أخذت

أحكها فلا يصدر عنهما أي صوت، فلما قصصت القصة على أمي وإخوتي ضحكوا مني كما لم يضحكوا من قبل.

ومما أذكره في العيد أنه كان لأمي ثلاثون قرشا عند أحد البقالين كبقية حساب، وعلمت أنا بذلك عن طريق الصدفة فما كان مني إلا أن مضيت إلى الرجل وأخبرته أن أمي تريد النقود، ولم يشك الرجل في بل سلمها لي على الفور فأخذتها وانطلقت، فلم أدع شيئا يشترى إلا اشتريته، ولا شيئا يركب إلا ركبته، ولم أعد إلى بيتنا إلا خاوي الوفاض.

فلما احتاجت أمي إلى نقودها وعلمت ما فعلت عهدت بي إلى خالي الذي مدني على رجلي، لأن ثلاثين قرشا في ذلك الوقت كانت تكفي لإطعام أسرة فقيرة يومين على الأقل.

ورغم أن الناس يكرهون المصائب في الأعياد فإنني قد أحببت المصيبة التي وقعت لنا في العيد وهي موت ستي أم حسين وهي في الحقيقة جدة أمي، ماتت ستي أم حسين في العيد ففرحت أنا بذلك أشد الفرح لأن أمي في اليوم السابق على موتها كانت قد أعدت لنا مجموعة ضخمة من أطباق الأرز باللبن ورصتها ثم كفأت عليها القروانة عسى أن تصيبها برودة من مماستها للبلاط، فلما ماتت ستي ذهب الجميع إلى مأتمها وتركوني في البيت وحدي مع القروانة وما تحتها من أطباق الأرز باللبن، فلما تأكدت أنني في البيت وحدي عمدت إلى القروانة فرفعتها وأخذت أسحب من تحتها طبقا بعد طبق حتى أكلت حوالي خمسة أطباق وأنا أدعو لستي بالرحمة والغفران وأن يديم الله عليها نعمة الموت ويديم علينا ما تحت القروانة!.

نعم والله كنت قديما أعرف كيف أفرح بالعيد أما اليوم فأنا أعرف كيف أتابع الفرحة في قلوب ووجوه القادرين عليها.

***

ملوك الفشر

ذكرتني مقالة صديقنا الدكتور أحمد عبد الظاهر فنجان شاي تلك التي يتحدث فيها عن فشر المكفوفين بالذين كانوا يعرفون بالفشر في حتتنا.

والفشر هو عبارة عن تعويض يصرفه الفشار لنفسه بعد أن يعلن الواقع إفلاسه التام وعجزه عن تلبية حاجات الفشار. والدليل على ذلك أنك لن تسمع فشرة خرج منها الفشرة مهزوما أو خاسرا أو مظلوما.

والفشر نوعان: فشر عام وفشر خاص، فالفشار العام لا يترك مجالا من مجالات الحياة إلا ضرب فيه بسهم، أما الفشار الخاص فهو مقتصر على مجال معين لا يكاد يتخطاه إلى سواه كالبنات أو المال أو القوة البدنية.

وللفشر في النوع الإنساني بوجه عام وعند العرب بوجه خاص وعند المصريين بوجه أخص تاريخ طويل، وذلك لأن أمة من الأمم أو أسرة من الأسر أو فردا من الأفراد لا يستطيع أن يعيش ملاصقا للحقائق طول عمره بل لا بد أن يلتمس في واقعه المغلق فجوة تدخل منها بطولته المحتملة أو المتوهمة أو المؤجلة إلى أجل غير معلوم.

وأشهر من عرفوا بالفشر بين عرب الجاهلية عمرو بن معد يكرب حتى حين اعتنق الإسلام لم ينهه إسلامه عن الفشر.

فرغم أنه كان شجاعا لا يشق له غبار في ميادين القتال فإنه لم يكن يتوانى عن الفشر مضيفا إلى نفسه ما لم يفعل، تروي كتب الأدب أنه قعد في مجلس يحدث الناس عن معركة من معاركه ويقول لهم كيف استطاع في معركة القادسية أن يمسك بجنديين فارسيين معا ويضرب كليهما بالآخر حتى قتلهما، وحين نبهه

أحد الجالسين أن هذا لم يحدث وأنه كان معه في المعركة قال له عمرو يا ابن أخي تلك قصص نرهب بها العدو.

كما تروي كتب الأدب قصة ذلك الأعرابي الذي أخذ يقص على جلسائه قصة القوس النادرة التي اشتراها فأطلق منها سهما على طائر فصعد الطائر فصعد وراءه السهم، فنزل الطائر فنزل وراءه السهم، فتيامن الطائر فتيامن وراءه السهم، فتياسر الطائر فتياسر وراءه السهم، إلى أن أدركه السهم!!!.

وتقص علينا كتب الأدب قصة الأعرابي الذي كان يرعى في أرض الملك النعمان فلما رأاه النعمان سأله ألا تخاف النعمان؟ فقال له الأعرابي مستهزئا وما النعمان!!! إني لطالما تجولت بيدي هذه على سرة أمه.

فلما أحاط به جنود الملك النعمان ورأى خرزات الملك تتلألأ قال له الأعرابي يا نعمان لا تحسبن أنك ظفرت بشيء والله لقد علمت العرب أني أكذب رجل فيها.

ولم يكن الفشارون في حينا يقلون اقتدارا عن قدماء الفشارين، فلهم أيضا في الفشر مذاهب شتى والناس فيما يفشرون مذاهب.

كان جارنا رضى البسكي الذي كان يعمل سائق تاكسي والذي تزوج امرأة لها طفلان ثم ولدت له ثمانية آخرين لا يكف عن الفشر إلا في حالتين حين يأكل أو حين ينام، فهو يقص عليك بصوت ندي ووجه متهلل كيف استطاع أن ينتزع العاهرة من ستة عشر شابا بعد أن تهددهم بالمطواة حين انتابته نوبة الشهامة، كما يقص عليك وبنفس الحماس كيف عشقته إحدى البنات فأصرت على أن يدخل بها رضى قبل زوجها ليلة زفافها!!! وكيف اختبأ تحت السرير ثم قضى وطرا وخرج دون أن يعرض له أحد حين أجاب داعي النذالة.

وكم كنت أقول لأصحابنا أمامه إن رضى من كثرة الفشر يقول لبائع الكبدة إديني سندوتش كدبة، أما قبولي أنا لفشره فكان يتوقف على الظروف فإن كنت محتاجا إلى توصيلة بالتاكسي فإنني أفتعل التصديق وأسمع كل قصة من قصصه وأنا أمصمص شفتي قائلا يا سلام يا سلام، أما إن لم تكن لي به حاجة فإنني أبادره بقولي غور يا ابن الفشارة هي ناقصة!!!!.

أما حمدي الزهري ذلك الصعيدي الذي يعمل نجارا مسلحا فهو فشار متخصص، فهو لا يفشر إلا في مجال واحد هو القتل، فما من يوم يمر على حمدي إلا ويدفن فيه خمسة أو ستة مساكين من أعدائه هو أو تلبية لمن يطلب منه هذا.

وهو حين يفعله من أجل غيره لا يأخذ عليه أجرا بل يفعله لوجه الله ويبتغي عليه الأجر والمثوبة من الله ولم تكن ليالينا تحلو إلا على حكايات حمدي عن قتلاه.

ولم يكن محمد منير وهو غير المطرب المعروف إلا قمة من قمم الفشر في حينا، فحين كان مقيما في العراق كان صديقا مقربا للرئيس العراقي الراحل صدام حسين ولأنه كان يعمل مبيض محارة فإن الرئيس الراحل لم يكن يبيض بيته إلا مستعينا بمحمد منير.

والسبب الوحيد الذي حمله على ترك العراق هو ما نشب من خصام بينه وبين صدام فما كان من منير إلا أن ترك العراق لكي لا يتسع الخلاف.

ورغم أنه كان من أخيب الناس في الضمنو فإنه كان يقص علينا كيف استدعاه بعض من خسروا أموالهم في اللعب فيتوجه منير إلى المقهى ويلاعب ذلك الحريف ويربح منه آلاف الجنيهات ثم يرد أموال الناس إليهم دون أن

يحتفظ لنفسه بجنيه واحد رغم فقره الذي كان يدعوه إلى اقتراض ثمن الشاي والسجائر.

وأبشع من هذا ما قصه علينا ذات مساء حين حدثنا أنه يملك مزرعة ضخمة لتربية العجول. وذات ليلة اتصل به خفير المزرعة ليخبره أن الكلب الموكل بالحراسة رفض أن يدخل بعض الناس فما كان من منير إلا أن قال للخفير ضع التليفون على أذن الكلب ثم قال منير للكلب دعهم يدخلوا فما كان من الكلب إلا أن سمح لهم بالدخول!!!

وكان صديقنا المقرب أحمد رشاد من أفشر من يمكن أن تقع عليهم عيناك، بدأ حياته الفشرية وهو طالب في الثانوية العامة حين كان يخبرنا أن ناظر المدرسة يغار منه ويحرص على إبعاده عن المدرسة لألا يراه المسؤولون الكبار فيقللوا من شأن الناظر.

ولن أنسى أبدا قوله لي ذات يوم (آه يا أبو صلاح فاتك إنك تشوف أخوي رشاد إمبارح.. اسكت مش جاء بالطيارة ونزل بيها على سطح البيت وقعد معانا شوية وإتعشى وبعدين خد الطيارة وطلع تاني) فقلت له جادا (إخص عليك يا أحمد مش كنت تنده لي عشان أسلم عليه وأشوف الطيارة.) فيقول لي (إتلهينا فيه ونسيت أنده لك)

وحين أصبح محاميا وجد ضالته المنشودة في المحاماة التي لا كلام لأهلها إلا عن الموكلين، والقضاة، والدفوع، والأتعاب الضخمة، وفي مجال كهذا لا يفوت أحمد أن يحدثني عن الملايين التي عرضت عليه من منافسي موكليه في مقابل أن يسلم إليهم ورقة أو أوراقا من ملف القضية وكيف طردهم حفاظا على شرفه.

وذات ليلة زارني حضرة المحامي الهمام وأخذ كعادته يحدثني عن أتعابه الضخمة ثم دق هاتفه المحمول وبدأ يتكلم (إيوة أنا الأستاذ أحمد مش عايزك تشك في البراءة أبدا بس يكون في معلومك إني مش هاخد أقل من ربع مليون جنيه دي مش قضية سهلة وأنت عارف كدا كويس وما تقلقش القاضي في جيبي) ثم أنهى مكالمته قائلا لي لعلمك أنا عامل له تخفيض محامي غيري كان مفروض ياخد نص مليون.

وأمام حماسه هذا خجلت أن أقول له إن هذه الشبكة التي يستعملها لا تعمل في بيتي إطلاقا وإن هذا هو السبب المباشر في أنني استبدلت بها أخرى.

أما محسن التلميذ وهو عبارة عن نقاش فاشل فقد كان يؤكد لنا أن روسيا تؤذيه في أكل عيشه لأنها نبهت على الحكومة المصرية أن يلزموا المقاولين ألا يشغلوا محسنا معهم باليومية وهذا هو السبب المباشر في قعوده الدائم عن العمل

هؤلاء هم الفشارون يوسعون على أنفسهم ولا يضيقون على أحد، وأحسب أن حاجة الحياة إليهم لا تقل عن حاجتها إلى الجادين الصارمين فلو جاز أن تخلو الحياة من الفشر لجاز وبنفس القدرة أن تخلو من الجد.



من دنيا الحشيش

الحشيش قديم في مصر قدم الهم، أو قدم الرغبة في الهروب من الواقع، أو قدم الرغبة في الذوبان في متعة جزئية عاجلة مؤقتة. ولكن لست أدري لماذا كان المصريون من أبناء الطبقة الوسطى وما تحتها في النصف الأول من القرن العشرين وما بعده بقليل يربطون بين الحشيش والجدعنة؟

أجل مثلما كان أبناء هذه الطبقات يقدرون استقامة المستقيمين الذين يصلون الوقت بوقته، ولا يدخنون، ولا ترتفع أعينهم إلى بنات الناس، كانوا يقدرون وبنفس الحماس جدعنة الجدعان الذين يحضرون مجالس الأنس فيحيون النهار بالأعمال ويحيون الليل بالسمر.

لهذا لم يكونوا يرون أي تعارض بين أن يكون الرجل كبير عائلة يأمر وينهى ويزوج ويطلق ويفض نزاعات المتنازعين وأن يكون في نفس الوقت من رواد مجالس الأنس أو من مؤسسيها.

وللحشيش وقع خاص في مدخنيه فمدخن الحشيش يشعر بصعوبة في تمييز حدود الأشياء لا على المستوى الذهني بل على المستوى الوجداني.

فإذا سألته مثلا متى خرجت من الحمام؟ نظر إلى ساعته وقال منذ عشر دقائق ولكن ليس هذا هو إحساسه الحقيقي بالزمن بل شعوره الحقيقي هو أنه قد مرت ساعات طوال في هذه الفترة القصيرة!.

ولعل هذا هو أحد الأسباب في إقبال الحشاشين على الحشيش أنه يشعر بالإقامة ولو مؤقتا خارج الزمن حتى وإن كان هذا يتم على مستوى العاطفة انفلاتا من الزمن بما فيه من مشاكل قد لا يستطيع الحشاش أن يجد لها حلولا.

على أن من المبالغة أن نقرر أن كل من أقبل على الحشيش هو هارب من مشكلة فإن منهم من اعتاد تدخين الحشيش دون مشكلة بل يفعله اعتيادا

ومنهم من يعشق المجلس نفسه بما فيه من نكات وقصص وما يعتري رواده من تسامح ربما لا يتصفون به في أحوالهم العادية بقطع النظر عن الحشيش.

وأما الحال التي يرغب الحشاش في الوصول إليها فتسمى الصطل بضم الصاد وفتح الطاء والواصل إليها يسمى مصطولا، والمصطول يشعر على المستوى العاطفي أنه ملفوف في غلالة رقيقة تفصله عن الناس بعض الفصل لهذا فإنه يجد بعض المشقة في الإرسال والاستقبال.

إلا أنه يصبح قادرا على اكتشاف علاقات خفية بين الأشياء ربما لا يستطيع أن يكتشفها في حاله العادية لهذا تجده ثقيل الجسم خفيف الظل وتختلف النفوس المتلقية للصطل فمنهم من تتطور حالته التي كان عليها فإن كان فرحا ازداد فرحا، وإن كان حزينا تفاقم حزنه وهكذا، كما أن منهم من تتغير حالته تماما فما هو إلا أن يمسه الصطل حتى تنفرج أساريره فيرق صوته وتكثر ضحكاته ويصبح أسرع خلق الله إلى نجدة المستنجد ويقبل من الناس ما لعله لا يقبله في حالته العادية.

وللحشاشين قواعد في مجالسهم يراعيها الأصلاء منهم فمنها ألا تخجل من الحشيش فإن عن لك السعال فاسعل، وإن استرخى بدنك فتمدد، وإن طاب لك أن تقبل صاحبك لجميل تذكرته أو لحب شعرت به نحوه فجأة فلا تتردد في تقبيله وإن طابت لك الفضفضة بما لا يحسن التكلم به فافعل .

ولا يجوز للحشاش بمقتضى هذه القواعد أن يدخن فوق طاقته أولا لأنه لن يصل إلى أحسن من الحال التي هو عليها ثانيا لأنه يحرم منه من هو في أمس الحاجة إليه ليصل إلى ما وصل إليه الأول فالحشاشون يسخرون ممن يفعل هذا ويصفونه بأنه (مِتَبت في الرجولة) ويتصف التحشيش عندهم بأنه ذو نزعة جماعية فالذي يتعاطاه وحده يحرم من الجو العام الذي تخلقه الجماعة.

كما أن لهم اصطلاحات خاصة يستخدمونها فيما بينهم. فالذي يقوم برص الأحجار وإدارة الجوزة على الجماعة يسمى السلطان. كما أن تنظيف الأحجار من بقايا المعسل القديم يسمى ترويش.

والراسخون في الحشيش يحترمونه بقدر ما يحتقرون الخمر ولهم في ذلك مبررات عديدة، فمنها أولا أن المصطول لا يفقد وعيه تماما كما قد تفعل الخمر، فلا يقول المصطول ما لا يريد.

ومنها ثانيا أن المصطول لا يصاب بتلك الاضطرابات المعوية التي قد تبعث على القيئ كما هي حال أغلب السكارى، ومنها ثالثا أن المصطول لا يتهور في كلامه ولا تنتابه تلك الميول العدوانية التي قد تنتاب السكارى ولهذا قالت العامة الحشيش حسيس أي أنه يحملك على اختيار ألفاظك قبل النطق بها إفراطا في الحساسية.

ومنها رابعا أنه لا يخلف في الفم تلك الريح الخبيثة التي تخلفها الخمر، ومنها خامسا أن ريحه طيبة يعشقها حتى الذين لا يدخنونه.

ومنها سادسا أنه حسب اعتقادهم مكروه لا حرام بخلاف الخمر المجمع على تحريمها، لهذا فإن الحشاش لا يجد حرجا في أن يقوم بالشعائر الدينية مع استمتاعه بالحشيش، ومنها سابعا أنه خلو من معنى الإدمان الذي يتصف به شاربو الخمر.

ويبدو أن الحال التي يتصف بها الحشاش والروح الجماعية المصاحبة لهذه المجالس قد مكنا له في الأدب والفن المصريين فلا تكاد رواية لنجيب محفوظ تخلو منهم وحسبك أنتلقي نظرة على رواية مصطفى محمود شلة الأنس بل إنك تستطيع أن تشم رائحة الحشيش في ألحان بعض الملحنين.

ولعجائز الحشاشين قصص عذبة تصلح أن تكون هي الأخرى حشيشا آخر يتلقاه السامعون عن طريق الأذن ومدار هذه القصص جميعا أن بعض الحشاشين استطاعوا بفضل الصطل أن يجدوا حلولا لمعضلات عجز عن حلها غيرهم.

على أن مجالس الحشيش لم تكن كلها طربا وضحكا كما قد يظن قارئ هذا المقال بل كان يقع بينهم ما لا تحمد عقباه، ومن هذا ما وقع لشاب رأيته في بعض هذه المجالس فلما استقر به المجلس وقدمت له الجوزة قال بفرعونية منقطعة النظير: (أنا باشربها شامي واللي مش قد قعدات الرجالة ما يقعدش معاهم) ومعنى الشامي يا حضرات أن يتم إفراغ الجوزة من مائها وأن يشرب الحشيش بالنار صرفا.

وأجابته الجماعة إلى طلبه فما مرت أربعة أو خمسة أحجار وبدأت الجماعة تذيع أغنية أم كلثوم جددت حبك ليه؟ حتى بكى صاحبنا ثم أعلن عن رغبته في أن يعود إلى بيته.

وللمرة الثانية أجابته الجماعة إلى طلبه وأرسلت معه اثنين يوصلانه، وكانت الليلة باردة فقعدت على مقعده طلبا للدفء.

وسرني أن المقعد كان في منتهى السخونة وبعد دقيقة أصبح في منتهى البرودة.

وقمت أتحسس المقعد فإذا بصاحبنا الراجل قوي قوي عملها على روحه.

وبعد أن غيرت ملابسي لم يكن للجماعة حديث إلا عن هذا الرجل وكيف فعل ما لا يفعله صبياننا!!!.

وأبشع من هذا ما وقع بين الجزار عواد أرنب والشيخ سعيد إمام المسجد، فقد كان عواد من عتقاء الحشاشين دخنه بكل طريقة لفه في السجائر، وسَيحه في الشكلاطة، وشربه خابورا، وعلى الجوزة، وأكله أكلا.

وفي هذه المرة كان عواد قد أعد لنفسه كنكة والكنكة هي إذابة الحشيش في ماء ساخن محلى بالسكر فكأنه شربة حشيش.

شرب عواد نصف الكنكة ورقصت في عينيه حوريات الحشيش أو شياطينه.
وبينما هو في هذه الحال مر به الشيخ سعيد وألقى عليه السلامفأقسم الجزار على الشيخ أن يدخل ويشرب شيئا ولم يسع الشيخ أن يوقع يمينه فدخل.
وكان الشيخ سعيد رجلا شديد التحفظ لا يكاد يشرب الشاي حتى يصلي استخارة ولا يكاد يصافح زوجته إلا بإذن من المفتي شخصيا لهذا كان ينظر إلى شرب الشاي والقهوة على أنه مما اختلف فيه العلماء.
فإذا كانت حاله كذلك فمن له بمعرفة الحشيش؟ ولما استقر به المجلس قال له عواد عندي لك مشروب يرد الروح عطارة لا نظير لها وبسلامة نية شرب الشيخ سعيد نصف الكنكة فما مرت ساعة حتى خرجت زوجة الشيخ تصرخ وتقول انظروا ماذا أصاب الشيخ.
ودخل الناس في حجرة الشيخ أفواجا فوجدوه نائما على ظهره فوق الدولاب يضحك ويصفق ويغني.
فما حلفوا عليه بيمين مغلظة أن ينزل إلا حلف يمينا أغلظ منها ألا ينزل. ولم يبق أحد في الشارع إلا ألقى نظرة على الشيخ وهو على هذه الحال.
فلما أفاق من الصطل أمسك عن إلقاء السلام على الجزار حتى مات الجزار.
وبعد أيها القارئ فلعلك تسأل نفسك ما فائدة هذا الحديث الطويل عن الحشيش والحشاشين؟ أم لعلك حسبت أنني أروج لهذا اللون من ألوان الحياة وهذا هو أبعد شئ عن ذهني وإجابتي ببساطة هي أن قاع المجتمع يحتاج إلى من يؤرخ له تماما كقمته بل إن هذا اللون من التأريخ هو أولى بالتصديق لأن هؤلاء المهمشين لا يجدون مالا يدفعونه لمؤرخ مزور يضع لهم تاريخا لم يعيشوه ويلصق بهم ما لم يقع لهم فالتاريخ الاجتماعي لأية أمة لا يكتمل إلى بالكتابة عنهم.

***

حين يطول زمان العلاقة بينك وبين شئ من الأشياء أو مجال من المجالات تزول من قلبك تلك الهيبة التي يكنها الناس في قلوبهم لهذا الشئ أو ذلك المجال بسبب بعدهم عنه. لأنك تدهش حيال كل جديد فإذا زالت جدته زالت معها دهشتك فكل ما تخلقه الدهشة تخنقه العادة.

خذ مثلا عشماوي الذي ينقبض قلبك حين تسمع اسمه أو تردده أتراه لم ينقبض قلبه مثلك حين قام بإعدام أول متهم؟ ولكنه اليوم يقوم بهذا كما يشرب الماء وكل ما يفكر فيه هو المكافأة التي سوف يقبضها عن شنق كل متهم.

ويستوي في هذا الذي قلناه المقدس وغير المقدس فلا تحسبن المشايخ الذين يقرؤون القرآن الكريم في المآتم والمنازل وأمام الدكاكين وفي المقابر بمعزل عن هذا. فالموضوع كله بالنسبة لهم مهنة وأكل عيش وبينهم ما بين أصحاب المهن جميعا من تحاسد وتنافس ومقالب وصراعات. إلا أن الله كما اختصهم بحلاوة الأصوات اختص كثيرا منهم بخفة الروح وسرعة البديهة.

وإذا كنت مثلي قد تعلمت القرآن على يد شيخ فلا بد أنك علمت كما أعلم أنك أصبحت صبي شيخ وأن علاقتك بالشيخ لن تقتصر على مجرد تحفيظ القرآن بل لا بد لك من دورات تدريبية عملية؟

تتمثل هذه الدورات التدريبية العملية في أن تمضي مثلا إلى بعض المنازل التي يقرأ فيها الشيخ بدلا منه حين يكون مشغولا بعمل آخر. أو أن تقوم أنت

بتحفيظ التلاميذ الجدد حين يكون الشيخ لا رغبة له في التحفيظ أو مشغولا بشرب الشاي مع أصحابه أو قرر دون مقدمات أن يقضي من زوجته وطرا خصوصا إن كان بيت الشيخ ملحقا بالمسجد.

ومنها أيضا أن يصطحبك الشيخ معه في ختمة وفكرة الختمة ببساطة هي أن يرغب أحد القادرين في أن يُقرأ القرآن في بيته كاملا في أقصر وقت ممكن لهذا فإن صاحب البيت يطلب إلى الشيخ أن يحضر معه من شاء من حملة القرآن الكريم لإنجاز هذا العمل الضخم في ساعتين على الأكثر مقابل غداء محترم وأجر معلوم يتفقان عليه.

وبالفعل يحضر الشيخ ومعه الفريق المتفق عليه وقد قسمه الشيخ من حيث الأجر إلى قسمين قسم الذين هم من طبقته وهؤلاء يأخذون أعلى أجر، وقسم التلاميذ والأدعياء وهؤلاء يأخذون أقل أجر ممكن في مقابل أنهم يأكلون ما لذ وطاب.

ولم يكن شيخنا بحمد الله من المولعين بالنساء ولا بالغلمان وكانت تلك إحدى فضائله، إنما كان يشغله أمران لا ثالث لهما هما الجنيه والطعام.

فكان إذا قعد إلى المائدة تدركه حالة الوجد التي تدرك المتصوفة فكان يذهل عن السماء والأرض وما بينهما وكأن قطعة اللحم أو قصعة الفتة عروس يزف إليها الليلة. وقد أكسبه هذا العشق مهارات غريبة فمنها أننا دخلنا ذات يوم ختمة فلما حان وقت الطعام سبقنا الشيخ فدفس اللحم جميعا في أرضية القصعة وجعل يستخرجه بمهارة كأنه جولوجي يستخرج البترول.

ولما كنت أقرب تلاميذه إليه فقد أخذ يغمزني بالقطعة بعد القطعة، ولما ضاق أحد الشيوخ العميان بهذا الأمر وسال لعابه على اللحمة الموجودة المفقودة تفتق ذهنه عن حيلة لطيفة إذ جعل يقرأ بصوت مرتفع (فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما) ورفع صوته جدا بكلمة لحما فظن صاحب البيت أن الشيوخ بحاجة إلى مزيد من اللحم فأجاب بصوت مرتفع حاضر يا مولانا ثم جاءنا بلحم آخر تم توزيعه على الحاضرين في حضور صاحب البيت.

وكان من جملة الذين يحضرون معنا في كل ختمة رجل عجيب لا يقرأ ولا يكتب ولا يحفظ إلا آيتين أو ثلاثا من كتاب الله وكان قد علمه شيخنا أن يفتح المصحف ويتمتم بشفتيه كأنه يقرأ وأن يقلب الصفحة كل ثلاث دقائق على الأكثر وإنما يفعل الشيخ هذا ليتقاضى عنه من صاحب البيت أجرة شيخ كامل فكان عم سعد قانعا بأن يأكل ويتقاضى الجنيه وينصرف شاكرا.

وكانت لهم قصص حلوة يروونها في مجالسهم، فمن ذلك ما رووه عن شيخ من أصحابهم أنه قد أعد له العشاء ووقف يصلي العشاء فبينما هو يصلي همت قطة بأن تغتصب طعامه فأسعفته البديهة فقرأ (وإذ يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم) وضغط جدا على المقطع بس ففرت القطة هاربة.

ومن ذلك ما وقع لشيخ مشهور بالقراءة والابتهالات يتردد صوته عبر أثير الإذاعة ويظهر في التلفزيون غير أنني لا أستحل أن أذكر اسمه. وكان هذا الشيخ أعمى سيئ الخلق يشتم بسبب وبغير سبب، فكان أنه أعلن في أصحابه والمقربين إليه أنه يريد أن يتزوج للمرة السادسة فلم يزالوا يتنقلون به من بيت

إلى بيت حتى دخلوا به بيتا لبعض الفضلاء فأقعد أهل البيت الشيخ والعروس في غرفة مفتوحة الباب وانتظروا هم على مقربة من تلك الغرفة.

وجعل يحدث الفتاة وتحدثه فإذا هي عذبة الصوت طيبة النفس والنفس فطار عقل الشيخ وجعلت أعصابه تتفلت منه شيئا فشيئا وفجأة صعد الدم الحار إلى رأسه فعانق الفتاة على مقربة من أهلها وكان الشيخ ضخم الجثة كأنه جاموسة فتمكن الفزع من قلب الفتاة فأطلقت صرخة مدوية جمعت أهلها الذين أحاطوا بالشيخ وأوجعوه ضربا وطردوه.

هذه لمحات خاطفة من دنيا المشايخ اكتفينا منها بأقل القليل ولعل أهم درس نستطيع أن نستفيده منها هو أن كل مجال من مجالات الحياة يبدأ على أيدي الأنقياء المخلصين ثم ينتهي على أيدي الأدعياء المنتفعين.

***

من هنا تبدأ النار

حين كنت في الثانية عشرة سولت لي نفسي الآثمة أن أتوجه إلى الكنيسة القريبة وأن أهدي القسيس إلى الإسلام الذي لم أكن أعرفه أنا شخصيا.

وحين وصلت إلى الكنيسة قلت لبوابها أريد أن أقابل القسيس فقبض على يدي بغلظة وقال: تعال أدخلك لأبونا إلا أنه لما كان صعيديا فقد قالها بلغته الوطنية هكذا : تعال أدخلك الأبونا.

فلما سمعت منه هذا خلعت منه يدي وانطلقت أعدو إلى بيتي لأنني أسرفت في الخيال فظننت أن الأبونا هذه عبارة عن مبنى في داخل الكنيسة يتسع للشخص الواحد وهو واقف وجعلت أتخيله حارا من الداخل مبنيا بالطوب الأحمر وهو غير مبلط. وليست في الكنيسة أبونا واحدة بل هي أوابين مرصوصة تسمع فيها أنين المسلمين الذين لم يتسلمهم أهاليهم. وكان هذا التخيل سببا في ألا أمر من أمام الكنيسة أكثر من عام.

والحق أنه مهما يكن هذا الخيال طفوليا ساذجا فإن له ما يبرره في مجتمعنا فلطالما سمعت من العامة أن الاحتفال بشم النسيم حرام لأنه احتفال النصارى بيوم موت النبي، إذ لما مات النبي قالوا اليوم نشم النسيم!!!

ولطالما سمعت من الناس من حولي أن الله خيرنا وخير النصارى فاخترنا الدين والإيمان واختاروا المال والجمال وكنت أصدق هذا مع أنني كنت أعرف أسرا مسيحية لا يتغدون ولا يتعشون إلا بعد دراسة جدوى!!!.

ولكم سمعت من معلم القرآن عندنا في الأزهر أن العروس المسيحية لا تزف إلى عريسها إلا بعد أن يذوق القسيس عسيلتها، ولم تكن أساطير النصارى حول نشأة الإسلام ونبيه أقل بشاعة من أساطير المسلمين.

فقد سمعت من كمال صاحبي وجاري أيام الصبى أن الإسلام إنما حرم الخمر لأن محمدا كان يعمل في خمارة فرجع ذات ليلة وهو سكران فاخترط سيفه فقتل أباه فلما أفاق بعد أن ذهبت عنه غاشية السكر ندم على ما قدمت يداه فحرم الخمر على أتباعه

ومن عجب أنني حين بلغت مبلغ الرجال وقرأت كتاب الكونت هنري ديكاستري في الإسلام خواطر وسوانح ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا وجدت فيه هذه القصة التي قد حدثني بها كمال ونحن صبيان قد أوردها المؤلف وهو بصدد الحديث عن خرافات المسيحيين عن الإسلام في أوربا في العصور الوسطى، فمن أين عرفها كمال الذي لم يكن يقرأ بالعربية فضلا عن لغة أجنبية!!!

وحين مضيت إلى الكنيسة القريبة لأشتري كتاب السنكسار الذي يحكي سير بعض القديسين عرفني أمين المكتبة على إحدى الفتيات قائلا: الأخ صلاح مسلم بس جدع!!

وحين أرسلت إلي جارتنا المسيحية ابنها لأعلمه العربية سألته هل تحفظ الصلاة الربانية التي أولها أبانا الذي في السماوات؟ فقال نعم وبدأ يقرأها كأنه يتقيأ فأردت أن أعلمه إياها بالتشكيل فنفر من ذلك نفورا شديدا وقال لي لو

سمحت يا استاذ لا شأن لنا بالدين جاهلا أو متجاهلا أنني أتكلم عن النحو لا عن الدين.

وتسمع من الفريقين سرا وعلنا قصصا عن مسلمين تنصروا بعد أن شفاهم القسيسون ونصارى أسلموا على أيدي مشايخ ومعجزات لا حصر لها يتراشق بها الفريقان. وبعد كل هذا نتساءل بسذاجة من أين تأتي البغضاء بين عنصري الأمة!!

إنها تأتي من هنا من تلك الأساطير التي تتغلغل في ضمائرنا ونحن صغار فلا نستطيع أن نتخلى عنها كل التخلي حتى وإن تبين لنا بطلانها. لأن ما نتعلمه ونحن صغار يتدخل في تشكيل شخصياتنا على نحو أو آخر والنتيجة المباشرة أننا ننشأ على هذه البغضاء ونتحسس لإخراجها أي موضع لأننا معدون للعداء سلفا فمن هنا تأتي النار.



من يرحمني منهما؟

من الأزمات العظمى التي نعيشها نحن المكفوفون الشرفاء في مجتمع كهذا أننا نعيش بين شقي الرحى إن دارت يمينا طحنتنا بالكفيف الذي يتصرف على هواه كأنه يعيش وحده في الدنيا وإن دارت شمالا طحنتنا بالمبصر الذي يصنف ذوي الحالات الخاصة تصنيفا نوعيا كأنهم دجاج أو بط.

إن دارت يمينا طحنتنا بالكفيف المستهتر الذي يمزح مع من عرف ومن لم يعرف ويتسول محتاجا أو غير محتاج، وقد يكون دني النفس فيتحسس أجسام النساء اللواتي يوصلنه إلى حيث يريد أو يساعدنه على عبور الشارع.

وإن دارت شمالا طحنتنا بالمبصر الذي يصنف ذوي الحالات الخاصة تصنيفا نوعيا، فإن مازحه كفيف مزح مع كل كفيف وإن تسوله كفيف أعطى كل كفيف يراه وإن كانت امرأة أساء إليها كفيف أعرضت عن مساعدة كل كفيف.

تلك بحق إحدى الأزمات الكبرى التي تواجهنا نحن المكفوفين المتزنين والتي قد تضطرنا إلى تقديم تنازلات كنا في غنى عنها لولى الشعور بالمسؤولية عن المكفوفين الذين لا نعرفهم.

ورغم أنني أنا شخصيا أقسم الأفعال إلى قسمين أفعال أستطيع أن أقوم بها فلا أسمح بمساعدتي فيها وأفعال أعجز عن القيام بها فأطلبها من الناس. فكم من مرة سمحت لمبصر أن يسير معي في طريق أعرفه إلى مكان أعرفه لأني أخشى إن قلت له شكرا لست بحاجة إلى مساعدة أن يدعوه السخط إلى

تجنب مساعدة كفيف آخر هو في أمس الحاجة إلى المساعدة وقد حدث هذا بالفعل حين قلت لرجل شكرا لا حاجة بي إلى مساعدة فقال بسخط وصخب حقك على دين أمي.

وكم من مرة احتملت من لا يطاق من أجل كفيف لا أعرفه، وأذكر أنني سرت مرة مع رجل مختل فبينما هو سائر معي بدأ يترنم بصوت مسموع (إيه أعمى وينوبنا فيه ثواب! إيه أعمى وبدال ما تطسه عربية! إيه أعمى وبدال ما يتوه! إيه أعمى ومسكين!) فما كان مني إلا أن قلت له بصوت مرتفع اذهب عني يا ابن ... و... و... والله لأن يصيبني كل ما ذكرت أحب إلي من مشيك معي لقد أصبتني باكتآب سوف يكفيني خمس سنوات على الأقل.

وأقل من هذا سخفا من يمشي معي فلا يكف عن أسئلة لا تنتهي (أنت منين يا مولانا؟ من هنا واسم الكريم إيه؟ كما تحب وساكن فين؟ هنا وبتشتغل إيه؟ ولا حاجة إنت متجوز؟ لا) إلى حد أنني قلت يوما لرجل كان يوصلني إن كانت إجاباتي هي ثمن توصيلك لي فاذهب مصحوبا بالسلامة.وقد تتنزل على بعضهم روح فرويد فيسأل بشغف هل تحلمون كما نحلم؟ فأقول له ضاحكا ونأكل ونشرب كما تأكلون وتشربون!!!

وكان من أطرف من عبروا عن الفهم المغلوط لإمكانات المكفوفين رجل من حينا أراد أن يمزح معي وكنت عائدا إلى بيتي حوالي الثالثة صباحا فتصدى لي وكان طويلا جدا وأراد أن يخيفني فجعل وهو بهذا الطول ورأسه إلى السماء يقلد الكلب ويقول هو هو فقلت له ضاحكا يا حمار إذا أردت أن تخيفني فعليك أن تنحني جدا جدا لأنه يستحيل أن يوجد كلب بهذا الطول!!!

على أن الكفيف المولع بالتواكل والمبصر المولع بالتعميم ليسا هما الوجهين الوحيدين للعلاقة بين المكفوفين بل هناك وجه آخر أشد قتامة يتمثل في مبصر يريد أن يستغل عمى الأعمى ليمنعه بعض حقوقه فتكون النتيجة المباشرة لهذا أن يستغل أعمى عماه ليحصل على ما لا يستحق.

فإذا وجد سائق تكسي يعطي الكفيف الباقي منقوصا فيعطيه الجنيه على أنه خمسة جنيهات فلا بد أن يوجد الكفيف الذي يأخذ الخمسة جنيهات على أنها جنيه واحد وفي نهاية المطاف يقع الظلم على الكفيف المتزن الذي لا يستطيع أن يظلم حتى وإن ظلمه الناس فتكون النتيجة أنه يقع فريسة هذين الصنفين فمن يرحمني منهما؟



نزالة مشروعة

لعل من أكبر أفضال صديقي الشاعر سمير فراج علي أنه عرفني بكثير من الندوات الأدبية في القاهرة.

كان منها ندوة نادي السكة الحديد التي تنعقد كل جمعة، وندوة رابطة الزجالين التي تنعقد كل أحد والتي كان يديرها المرحوم وجدي شبانة، ولكن أهم هذه الندوات على الإطلاق كانت ندوة العوامة التي كانت تنعقد تحت إشراف شركة الكهرباء والتي كان يديرها الأستاذ خيرات عبد المنعم.

ولم تكن أهمية هذه الندوة مستمدة من أهمية الذين يحضرونها أو من أهمية ما يقال فيها بل كانت مستمدة من شيء آخر لا علاقة له بالأدب أو الفن، كانت أهميتها مستمدة من أنها كانت الندوة الوحيدة التي كانت تدفع لكل شاعر أو مطرب أو عازف جنيهين عدا الشاي والقهوة.

وكانت هي الأخرى تنعقد كل أحد، فكُنا بعد أن نفرغ منها نتوجه إلى ندوة الأستاذ وجدي شبانة، من أجل هذا السبب الذي أشرت إليه كنا نعد ندو العوامة ذات الجنيهين سيدة الندوات، لأن النتيجة المترتبة على وجودنا فيها هي أننا سوف نشتري سجائر كما نحب، ونتعشى عشاء حلوا ربما لا نقدر عليه طيلة الأسبوع إلا بشق الأنفس.

لهذا كنا أحرص ما نكون على حضورها، في هذه الندوات قابلت كثيرا من الشعراء والزجالين الذين لا يخلون من أحوال عجيبة.

فيها قابلت الأستاذ عبد الوهاب يحيى الذي كان جزمجيا أميا ولكنه أقدر ما يكون على قول الشعر العامي السياسي الملتهب الموزون، وفيها قابلت الشاعر عسر عسران الذي لم تخل حياته قط من العثرات التي أودت بحياته في نهاية المطاف، وفيها قابلت أسرة بأسرها شاعرة تتكون من الأستاذ فتحي محمود

وهو الأب، والشاعرة رضى عفيفي وهي الأم، وابنتهما رحاب وهي شاعرة أيضا!!!!.

وفيها قابلت الشاعر حمدين حمدون الذي كنت كلما سمعت اسمه ضحكت لأن اسمه كان يذكرني بلعبة قديمة كنت نلعبها هي لعبة تريك تراك.

وكان منهم الزجال ياقوت الشعبيني الذي كان على خلاف دائم مع زوجته وكانت له تقريبا قصيدة واحد لا يكاد يقول غيرها وكانت هذه القصيدة تصور خلافه مع زوجته فضلا عن الدكتور يسري العزب وشفيق سلومة وسليمان غريب، كنا نحضر هذه الندوات بنشاط منقطع النظير لأنها بالنسبة لنا تمثل ثلاثة أشياء، قول الشعر في المحافل، وقبض الفلوس من بعضها، ومقابلة المزز الحسان.

وكان من بين المزز اللاتي لقيتهن في ندوة الجنيهين امرأة وقعت من قلبي أحسن موقع، أعجبتني يدها حين صافحتها، وأعجبها لساني حين حدثتها.

كانت كل يد من يديها تصلح أن تكون حضن عاشقين تحت المطر في ليلة شاتية كما أن صوتها هو الآخر كان لا يستأذن على القلوب حين يدخلها، اتفقنا على أن نخرج معا بعد الندوة، ولست أدري لماذا أعطاني سمير الجنيهين اللذين أخذهما من الندوة.

وبالفعل خرجنا معا بعد الندوة وكانت يدي المعروقة في يدها الحلوة تشبه يوما حارا سخيفا في أيام الشتاء الباردة الحلوة،وبعد أن قطعنا شارعين أو ثلاثة فاجأتني بقولها جعانة جدا، ووقع في نفسي أنها تريد سندوتشا تتصبر به حتى تعود إلى منزلها فإن كان ذلك كذلك فالأمر هين، لكنها فاجأتني بأن أدخلتني كفتيريا فخمة وأجلستني واتخذت مجلسها ثم بدأت في الطلب.

(لو سمحت عايزة سندوتشين بسطرما، واتنين بيض مسلوق، واتنين لانشون، واتنين جبنة رومي، واتنين جبنة بيضة، وواحد مربة وواحد بلوبيف وهات مخلل، وحاجة ساقعة).

وتزلزلت والله من الأعماق خصوصا أنها سألتني قبل أن ندخل الكفتيريا هل تأكل فقلت لها إنني شبعان، معنى هذا أنها تنوي أن تأكل هذه الهلمة وحدها!!! ولم أستطع أن أمسك نفسي عن الفضول فقلت لها سائلا يظهر أن المدام ما كلتش من أيام فقالت ضاحكة لا والله أنا واكلة قبل ما أنزل الندوة، فلما سمعت هذا قلت في نفسي أحيه!!! لقد أردت مزة فوقعت في جاموسة.

وبدأ الرعب ينتابني كلما تخيلت أنني أنا الذي سوف أدفع الحساب، معنى هذا ببساطة أنني سوف أضحي بالجنيهات الأربعة فلا عشاء، ولا سجائر، ولا قعود على المقهى، وبدأت أردد بيني وبين نفسي اللعنة على الجاموسة وعلى يدها الحلوة وعلى اليوم الذي قابلتها فيه.

غير أنني سرعان ما أفقت من هذه الغضبة السكرى حين أيقنت أن هذه اللعنات لن تغني عني شيئا وأنها في نهاية المطاف سوف تنصرف ببطنها الممتلئ وأنصرف أنا بجيبي الفارغ، وكان علي أن أختار بين شهامة لا طائل تحتها ونذالة سوف توفر علي جنيهاتي كان علي أن أختار بسرعة، فالوقت يجري ويقربنا من دفع الحساب، ولو رأيتها وهي تلتقم لحسبت أنها تنتقم، وأخيرا قررت أن أنحاز إلى النذالة فقلت لها بانزعاج (يا خرابي، أنا مكسوف منك قوي، كل الفلوس بتاعتي مسيتها مع الواد سمير!!! مش عارف أقول لك إيه؟ كنت أتمنى إني أنا إلي أعزمك على العشا دا) فقالت بطمأنينة (ولا يهمك يا حبيبي، أنا معاي فلوس، وبعدين عشا إيه دا؟ دا أنا هاخلص مشاويري وأَرَوَّح آكل) فلما سمعت منها هذا قلت في نفسي يا نهار أسود!!!!

إن الذي يريد أن يتزوج هذه يجب أن ينتظر حتى يصير مديرا لصندوق التنمية ليقدم لها ما تحتاج إليه من منح وإعانات.

ويبدو أن حرقة ما دفعته في العشاء أو قل في القسط الأول من العشاء قد جعلتها لا تطيق النظر إلى وجهي، فما هو إلا أن خرجنا من الكفتيريا حتى قالت بهلع جاء أتوبيسي وسوف أركب الآن مع السلامة وتركتني على أحد الأرصفة دون أن تعلم أهذا هو طريقي أم لا، والمهم أننا التقينا بعد ذلك في ندوات كثيرة فلم تفكر في أن تقترب مني.

دعوني أقل لكم بصراحة إنني لم أندم بل لقد غشيتني غاشية من السرور حين عدت إلى بيتي في رعاية الجنيهات الأربعة نعم لم أندم لأنني أعلم عن نفسي أنني لست نذلا بطبعي ولكن بعض الفقر قد يلقي بنا في أحضان النذالة.

***

نشالان

لعل من المفارقات السخيفة للعمى أن الموصوف به لا يستطيع أن يكون لصا ولا يصلح لأن يكون ضابطا، لأن المسؤول عن تفعيل الفضيلة والمتهرب منها كلاهما يحتاج إلى مهارات وأدوات ليست في حوزة الكفيف.

ليس هذا فحسب بل إنه لا يستطيع أن يشهد حتى ببعض ما هو متؤكد منه.

ولعل هذه القصة توضح لكم هذا، في أحدا السنوات كنت متوجها إلى معرض القاهرة الدولي للكتاب واضطررت أن أستقل أتوبيسا مزدحما وانتهز أحد النشالين الفرصة ووضع يده في جيبي. فأحسست به فنزعت يده برفق ثم عاود وضعها فعاودت نزعها فلما هم بأن يضعها للمرة الثالثة صحت به فأمسك عني.

ولبثت من عمري سنوات أقص على الناس هذا وأفتخر به، إلى أن كانت ليلة صائفة كنت مرتديا فيها أخف الملابس. في تلك الليلة ذهبت لزيارة صديق ولما لم أجده رجعت مستقلا ميكروباص ولم يكن فيه إلا حوالي خمسة أشخاص أنا واحد منهم وكان الذي عن يميني قد تكلم بكلمات قليلة إلا أن نبرات صوته المميزة قد مكنت لصوته في أذني. واستطاع هذا الجالس عن يميني أن يسرق كل ما كان معي من مال وحاولنا أنا والذين معي أن نعثر عليه فلم نستطع فاحتسبت ذلك عند الله.

وبعد ذلك بيوم أو يومين فوجئت بنفس صوت اللص الذي كانت نبراته محفورة في أذني يقول لي (تحب أعديك الشارع؟) يا إلهي نفس الصوت أعرفه كما تعرف أنت الأشكال والألوان وهممت أن أمسك بخناقه إلا أنني تذكرت أن الأصوات لا يعتد بها لأنها متشابهة وتبين لي أن شهادتي لن يؤخذ بها فقلت للص بعد أن أطلت الصمت (شكرامش عايز أعدي) وكانت تلك من أشد

المرات التي أبغضت فيها العمى الذي حال بيني وبين إظهار الحقيقة واسترداد حقي الذي أعرف مكانه ولكنني عاجز عن أخذه والآن أيها القارئ أظنك لن تستطيع أن تضحك كما لم أستطع أنا من قبل.

***

نصاب رغم أنفي

بعد أن أشكر قرائي الذين كتبوا لي تعليقات طيبة، أقول لكم أيها القراء الأعزاء أستحلفكم بالله ألا تنزلوني من نظركم حين تعلمون أنني قد مارست النصب والاحتيال أكثر من مرة. ولكنني أحلف لكم بالله تعالى أنني لم أمارسهما طلبا للمال أو الجاه أو الشهرة. بل مارستهما تورطا في مجاملات لبعض أصحابي أو تخلصا من موقف عصيب.

فمنذ سنوات بعيدة كان يسكن إلى جوارنا العم فهمي وهو ابن المرحوم الدكاترة زكي مبارك وكنت مشهورا في حينا بالثقافة وعشق المعرفة.

فتوجه إلي العم فهمي وطلب مني أن أحضر احتفالا بذكرى أبيه في قصر ثقافة الغوري متعهدا أن يأخذني في تكسي ويردني في تكسي وبالفعل اصطحبني الرجل في تكسي وقبل أن يبدأ الاحتفال أقعدني على مقهى في الحسين وأتاني بكباية سحلب تطلع تلاتة كيلو. ولم يكن ممكنا بعد هذه الكباية التي طفحتها ألا أشارك في الاحتفال فوقفت وتكلمت عن تحويل المفكر إلى ظاهرة عن طريق التركيز على ما في أفكاره من عناصر عالمية تتجاوز حدود الزمان والمكان وعن طريق إعادة قراأة أعماله بعد إفراغها من خصوصيتها التاريخية وأن وأن وأن .

ولم يفتني أن أشير إلى أسماء بعض كتبه ولن تتخيلوا عاصفة التصفيق التي تلقى بها الجمهور كلمتي وتقدمت إلي السيدة كريمة زكي مبارك بمحياها الطلق لتؤكد لي أنني واحد من القلة التي فهمت بابا فابتسمت في وجهها وحييتها أطيب تحية وانصرفت عنها وقد منعني الخجل من أن أقول لها إنني لم أقرأ لأبيها سطرا ولا قرأت عنه سطرا فالحمد لله الذي جملها بالستر.

وفي إحدى محطات مترو الأنفاق سولت لي نفسي الآثمة أن أدخن سيجارة فدخنتها بالفعل فلم أشعر إلا بالعسكري آخذا بخناقي قائلا اتفضل معاي فقل له على الفور لو سمحت ممكن تعديني الشارع؟ فأدركته الرقة إذ حسبني أظن نفسي في الشارع وتناول السيجارة من دي برفق ولا أدري هل دخنها أو رماها؟ ثم أصعدني إلى الشارع فقلت لنفسي هذا حاصل ضرب عدم النظر في قلة الذمة.

وفي إحدى الليالي اتصل بي شويعر وأسمعني ما يسميه شعرا وبعد أن أفرغ في أذني كل ما شاء قلت له يا سيد إن عبقريتك تكمن في أنك تمثل أزمة الإنسان المعاصر بين التوحد المثالي والتوزع الواقعي إذ تتعالى على نفسك في لحظة ضعف لا وجود لها في الواقع بل في ضمير التاريخ الآتي فتهلل قائلا الله الله أنا أحس أنني هكذا فعلا فوضعت يدي على السماعة والضحك يكاد يقتلني لأنني لم أفهم معنى ما قلته له.

ولكن ليس كل مرة تسلم الجرة كما يقولون ففي ليلة شديدة البرودة من ليالي فبراير استيقظت في أول الليل فوجدت والدتي نائمة ودخلت الحمام لقضاء حاجة مركبة. ورن التلفون فخرجت على ما أنا عليه دون أي تغيير وقلت لنفسي كائنا من كان من يتصل بي سوف أقول له اطلبني بعد عشر دقائق.

وكانت المفاجأة التي تنتظرني أني وجدت على الطرف الآخر مذيعا من أصحابي يقول لي نحن على الهواء فاستعد لمداخلة مع الدكتورة هدى وصفي فسألته هدى وصفي مين؟ فقال لي ضاحكا مديرة المسرح التجريبي وقبل أن أسأله يعني إيه مسرح تجريبي قال نحن على الهواء الآن وانحصرت أو انحشرت بين هوائين أحدهما يدخل من أذني ويحتاج إلى عقل وتركيز والآخر يدخل من كل مكان ويحتاج إلى ملابس.

وبدأ في تلك الحفلطة اللغوية التي يتصف بها أكثر المذيعين ألو معانا الدكتور صلاح الدين عبد الله عنده تعليق.

وبعد أن رحبت بالدكتورة هدى وصفي التي لا أعرفها مديرة المسرح التجريبي الذي لا أعرفه قلت بثقة لا يتصف بها إلا الجاهلون: اسمحي لي يا دكتورة إن لي تحفظات كثيرة على المسرح التجريبي فهو يمثل لونا من الإبداع المشوش لهذا فإن تجاربه متشابهة إلى حد بعيد الأمر الذي يعبر عن رؤية غير واضحة.

ويا ليتني كنت ابتلعت لساني قبل أن أقول ما قلت فقد استفزت الدكتورة فراحت تشرح لي ما هو المسرح التجريبي، والأسس التي قام عليها، والأطوار التاريخية التي مر بها، والهدف أو الأهداف المنشودة من وجوده، والوسائل المستخدمة لتحقيق هذا الهدف أو تلك الأهداف، وأهم أعلامه الذين أسسوه وطوروه، وأهم المسرحيات التي أحدثت صدى عالميا،و....

كل هذا يا حضرات والهواء المثلج يضرب بعنف ثكنات المعادي أقصد لا مؤاخذة مؤخرتي وبدأت أشعر بنصفي الأسفل يتجمد وبنصفي الأعلى يرتعش كما بدأت تجتاحني حالة من عدم التوازن.

والدكتورة تسترسل: صحيح يا سيدي أن هناك قدرا من التشابه ولكن هناك أيضا قدرا من التفرد وإلا فهل تستطيع أن تزعم أن مسرحية مخدات الكحل مثل مأساة شعبان؟ فقلت لها لا يا سيدتي لست بهذا القدر من السذاجة فأنا أعرف بوضوح الفرق بين هذين النوعين.

وأقسم لكم يا أحبائي لم أكن سمعت بهذه ولا بتلك ولكنني أردت إنهاء المكالمة وفكرت في أن أقعد فتذكرت الحال التي أنا عليها فبقيت واقفا أرفع رجلا وأضع أخرى.

والدكتورة تسترسل على أنك يجب أن تفهم أن هذه تجربة جديدة ما زالت في طور التكوين كل هذا وجسمي يهتز كأنني راقصة من شارع الهرم.

وبدأت أستخدم ألفاظا من هذا النوع: أتفق تماما معك ، شكرا لك على هذا الإيضاح، لا خلاف بيننا، أعتقد أنني فهمت الآن، وشرح الدكتورة لا يتوقف.

كان الهواء المثلج ما زال يغتصبني وكنت أريد إنهاء المكالمة بأي ثمن فلو قالت لي إن اثنين في اثنين تساوي واحد لقلت لها أنت نبية يوحى إليك.

فلما أتمت كلامها حتى أصبت بنزلة برد بقيت معي أسبوعين على الأقل.

والآن إن قلت لكم إنني بعد هذه التجارب قد أقلعت عن النصب والاحتيال فلا تصدقوني بل سوف أفعله حين أدفع إليه دفعا لأننا ننسى المر بالحلو كما ننسى الحلو بالمر ولولى النسيان لما كان التجدد ولولى التجدد لما كان للحياة مذاق.

***

هل أتاك حديث حسن؟

ربما تكون قد قابلت في حياتك شخصا لم يؤت ثراء عريضا، ولا جاها في المجتمع، ولا ذكاء في العقل، ولا وسامة في الشكل، ولا قوة في الجسم، ولا حلاوة في الصوت، ولا خفة في الظل.

تلقاه على هذه الشاكلة فتسأل نفسك ما حكمة وجوده في الحياة! وأي شيء كانت تنقص الحياة لو لم يوجد فيها! وهل تشعر به إن خرج منها الآن! دعني أمتنع عن الإجابة الآن وأكتفي بأن أعترف لك أنني سألت نفسي هذه الأسئلة حين قابلت حسن أول مرة. لم أكن أعرف هل هو يخرج بملابسه أو ملابسه هي التي تخرج به! كان نكرة إلى الحد الذي لم يتصوره مخترعو كلمة نكرة.

وكان في لسانه لثغة فاحشة في حرف الراء، فحين تسمعه ينطقها يخيل إليك أنه لا ينطق حرفا بل يكسر في فمه خبزا يابسا.

في أول لقاء بيننا سألني بعشم لا يسمح به اللقاء الأول بين اثنين أبدا:" إلا قل لي يا عم الشيخ، هل أنت ممكن وأنت قاعد يهفك الشوق وتقرا لنا ربع؟ أصلي أنا أعرف واحد كان كدا، كان لما يهفه الشوق يقرا ربع لوحده". وحين تسمع منه كلمة ربع يخيل إليك كل ربع في الدنيا إلا أرباع القرآن. ثم لم يلبث أن قال لي في نفس المجلس بصوته الذي يشبه مص القصب الماسخ:" إنت لازم تتجوز يا عم الشيخ"، فقلت له صدقت أحتاج إلى مبصرة تعينني على الحياة فقال مستنكرا:" يا نهار إسود إنت عايزها مفتحة!!!! بلاش يا مولانا دي ممكن تخليك فوق السرير وتخونك تحت السرير وإنت مش هاتعرف".

ولم يخامرني شيء من الغضب لأنني وقفت على عقله وشخصيته من أول وهلة.

وكان أعجب ما سمعت منه أنه سأل أصحابنا :" اللي عايز يسافر السعودية يعمل إيه؟" فقالوا له يحتاج إلى بسبور وتذكرة وكفيل.

ولست أدري كيف تحولت كلمة كفيل في أذنيه إلى كلمة كفيف فراح يتساءل مستنكرا:" كفيف إيه ونيلة إيه إلي هانخده معانا وإحنا طالعين ناكل عيش!" وبدأت الأفكار المخيفة تتداعى في رأسه على هذا النحو " طيب هما قصدهم إيه من إن الواحد ياخد معاه كفيف؟ يمكن عايزين يرققو قلوبنا؟ وإفرض إن الواحد ما لاقاش كفيف ياخده معاه تبقا السفرية ضاعت؟ ولما أكون في الشغل مين يقعد بالكفيف؟ وبعدين كل حاجة هاتشتريها لنفسك لازم تشتري للكفيف زيها!!!"

فما زال في هذه التداعيات حتى استلقيت على الأرض تماما وضحكت ضحكا يستوجب أن تكون معي غيارات داخلية فأشرت إلى أصحابنا أن يسكتوه فلم أعد أريد منه أن يفهم بل أن يسكت وكفى. خصوصا حين قال لي بعشم زائد "تيجي معايا يا مولانا نسلك اللقمة دي؟"

وكنا يوما في بيته فورد علينا بعض الثقلاء فأراد حسن أن يتخلص منه ويعتذر له فقال له من البلكونة :" والله ما معايا مفاتيح، مش هاقدر أفتح لك" فلما ذهب الثقيل قال لنا حسن:" إيه رأيكم أقوم أكسر المفاتيح إلي معانا عشان لو أخينا رجع تاني فقال له أصحابنا في نفس واحد: يا ابن الجزمة، لما تكسر المفاتيح إحنا هانخرج إزاي!!!!"

وكان يطيب لي أن أداعبه من حين إلى حين، فقلت له ذات يوم: يا حسن، أنا ناوي أقرا في المياتم، ومحتاج مساعد حرك ومدقدق زيك، إيه رأيك تيجي تشتغل معاي؟ فقال لي بصوت متهلل:" يا سلام يا مولانا، دا أنا أخدمك بعنية الاتنين، لعلمك أنا أعرف ناس بيموت ليهم ناس، يعني ممكن أخدك عند التاجر من دول وأوشوشه وأقول له يا حج عبده، الراجل دا غلبان وبيصرف على أمه العيانة وإخواته التسعة، بس أهم حاجة تجيب لي بطايق إخواتك التسعة وورق أمك العيانة!".

وأذكر أنني زرته يوما في بيته، وكانوا يستعدون للعشاء، فسمعت أباه يقول لزوجته سخني السبانخ، فلما أتوا بها قلت لهم ريحة السبانخ دي حلوة، فتهلل حسن قائلا: الله أكبر عرف مولانا إن بيتنا فيه سبانخ من غير ما يشوف.

وفي تلك السهرة سمعته يقول لأبيه : أنا ناوي أشتغل جزار في العيد الكبير، فسأله أبوه: أنت بتعرف تسلخ؟ فقال له حسن: أنا هادبح الدبيحة وأسيبها للزبون يسلخها بمعرفته!!!!.

وكان حرصه على كسب لقمة العيش يدفعه إلى بيع سلع متناقضة ولو في أيام متتابعة، فمما أذكره أنني رأيته يبيع يوم السبت أم علي مجففة وفي يوم الأحد الذي يليه تماما رأيته يبيع شباشب!!!!.

ليس هذا هو كل ما أعرفه عن حسن بل أعرف عنه شيئا آخر ربما كان هو الإجابة على السؤال الذي طرحناه في مستهل هذا الحديث، هذا الشيء هو أنه الوحيد الذي قبل أن يتزوج بنت خالته الأرملة التي لها خمسة أطفال فبقي

معها يربيهم وهو عظيم الصبر واسع الصدر يقوم من بيتها مقام الباب، ومن فراشها مقام الغطاء، ومن أطفالها مقام الأب،

كأن هذه هي حكمة وجوده في الحياة، يعجز عما يقدر عليه غيره، ويقدر على ما يعجز عنه غيره.

وكأن تساند المستضعفين يستطيع أن يخلق فيهم جميعا معنى من معاني القوة لم يكن ليوجد في كل منهم على حدة.

ولعل أعظم درس أستطيع أن أتعلمه من حسن وأمثاله أن الحياة تتسع لضعف الضعفاء بنفس القدر الذي تتسع به لقوة الأقوياء، فحياة الضعيف ليست منحة من القوي بل إن حياة الضعفاء والأقوياء جميعا هي منحة من واهب الحياة فأجسامنا، ومنازلنا، وشوارعنا، محتاجة إلى من يسلك المجاري حاجة عقولنا إلى رواد الفضاء والفلاسفة.

***

واحشني يا كنافة

كان محمد ابن أخي الأكبر طفلا وديعا رقيقا، ثم كبر فأصبح غلاما وديعا رقيقا، كان قصيرا نحيفا طفولي الصوت حتى بعد البلوغ، وكنت من شدة ما هو عليه من الوداعة والرقة أسميه كنافة.

كان غلاما عاديا عاشقا للحياة مثله كمثل غيره ممن هم في سنه، وكان أخي يصر على أن يصطحبه معه في الأعمال المعمارية الشاقة كلما أُسند إليه عمل، فكان يجهد بدنه بالأعمال الشاقة ويجهد نفسه بحرمانه من مقتضيات الطفولة والصبى من لهو ولعب.

وكان الفتى متوسط المستوى في الدراسة لا يميل إليها كل الميل ولا يميل عنها كل الميل، وكان أبوه يريده رجلا تام الرجولة فكان يضيق عليه في معاشه، ولهوه، ولعبه، وعلاقته بأصحابه، أشد الضيق، ولكن هذا الصنيع قد أثمر عكس المرجو منه تماما، فما هو إلا أن أحس الفتى بالبلوغ حتى انضم إلى طائفة من أصحاب السوء علموه التدخين حين لا يسمح به جسمه ولا سنه، فلما أنهى إلي أنه يدخن لم أنهه نهي الكبار للصغار لأني قد علمت أن هذا النهي سوف يذهب أدراج الرياح.

كل ما فعلته أنني بينت له خطر التدخين علي أنا شخصيا وعلى أمثالي ممن هم في مثل سني ثم تركت له الحرية في أن يدخن أو لا يدخن، لأني أعلم تمام العلم أنني إن عاملته بصرامة فغاية ما سيعمله أنه سوف يدخن بعيدا عني وبدون علمي، وأكون أنا قد ضيعت على نفسي فرصة متابعته والوقوف على أسراره ومساعدته أو إنقاذه حين تمس الحاجة إلى المساعدة أو الإنقاذ، قصارى ما أمرته به أن يلجأ إلي أنا حين يحتاج للسجائر، وذلك أني لما علمت شدة تعلق الغلمان بالتدخين خفت على ابن أخي إن نفدت سجائره ولم يجد ما

يشتريها به أن يلجأ إلى الشباب الذين هم أكبر منه سنا فيسوموه الفحشاء في مقابل السجائر وهذا كثيرام ما يقع في حينا بين الشباب الفاسدين والصبية الذين لا رقيب عليهم.

اجتاز ابن أخي المرحلة الإعدادية بمجموع ضعيف، فكان من الطبيعي أن يلتحق بإحدى المدارس الثانوية الصناعية وكان من شؤم الطالع أن مدرسته كانت في حي الأميرية على مقربة من ترعة الإسماعيلية، فكان منقسما بين مدرسته البعيدة وأعمال أبيه الشاقة، ولم يكن أخي يقتصر بابنه على مجرد الأعمال المعمارية الشاقة، بل كان يتشدد عليه في الصغائر قبل الكبائر، لهذا كانت ضحكات ابن أخي مرة، كأنه كان يضحك لأنه يخاف أن يبكي حزنا فيضربه أبوه فيبكي توجعا.

وأما أنا فكنت أستأنس به وأحبه غاية الحب، كنت حتى بعد بلوغه أقعده على حجري، وأضمه إلى صدري، وأمسح رأسه برفق، كأني لم أكن أصدق أن مثل هذا الطفل الوديع يصلح للبلوغ الذي هو مستهل الرجولة المضنية.

وكان مما يرسخ ذلك في وجداني أن ابن أخي كان على قدر كبير من السذاجة، بحيث لا يكاد يفرق بين أصناف الأطعمة التي يأكلها، فكانت كل الأطعمة تنقسم عنده إلى قسمين لا ثالث لهما، أطعمة مشبعة وأخرى غير مشبعة، أما ما وراء ذلك من الفروق بين الأطعمة في ذاتها، وكونها حلوة، أو مالحة، أو مرة، أو حامضة، أو ساخنة، أو باردة، فلم يكن له به من علم!!!!.

وكان يعن لي أحيانا أن أختبر عقله فأسأله مازحا (قل لي يا كنافة إيه هي الحرية من وجهة نظرك؟) فكان يجيبني بتلقائية منقطعة النظير (الحرية يا عمو هي إني أعمل إلي أنا عايزه، يعني مثلا من كام يوم ماما كانت عايزاني أروح

مشوار، بس أنا قلت لأ، فقالت لي هاديلك ربع جنيه لو رحت، فأنا خدت الربع جنيه ورحت، هي دي الحرية يا عمو).

وكنت أصطحبه معي أحيانا في مشاويري لأستند إليه أو أستأنس به، فكان يقص علي ما وقع له مع أبيه أو في مدرسته، أو يشكو إلي بعض ما يشعر به من الضيق، وأذكر أنه كان ماشيا معي ذات يوم فقال لي وهو يتنهد بحزن (والله يا عمو أنا عيل معفن، ومافيش كلب يرضى يعيش عيشتي دي) فمسحت رأسه وسألته (ليه يا كنافة بتقول كدا؟) فقال لي (عشان أنا شقيان طول عمري بين شغلي مع بابا وبين المدرسة وحياتي ما ليهاش أي معنى) فقلت له بعد أن أعطيته سيجارة (هو مين مستريح يا كنافة؟ كلنا شقيانين لكن كل واحد بطريقته، أنا ساعات بيمر علي أسبوع مش عارف أخرج من البيت عشان مشغول بحاجة باقراها أو باكتبها، وانت بكرة تكبر وتبقا ليك حياتك المستقلة وما حدش يقدر يقول لك تلت التلاتة كام؟).

وكنت كثيراما أرسله في حاجة لي وأجزل له العطاء فيطيعني حبا لي وطمعا في مالي، وكنت أحب طمعه هذا لأني أعلم أن أطماع الصغار صغيرة مثلهم لا تكاد تتعلق إلا بما هو صغير وعابر، أما أطماع الكبار فإنها قد تخرب بيوتا، وتشرد أسرا، وتقتل نفوسا، وتهدم دولا.

وقريبا من منتصف هذا العام الذي التحق فيه ابن أخي بهذه المدرسة انتابني أنا وأمي إحساس بضيق شديد في الصدر مع أن كل شيء من حولنا كان يبدو طبيعيا كالمعتاد، كنت أدخل وأخرج من غرفتي وأتنفس بثقل شديد كأن على صدري حجرا ثقيلا دون أن أجد لذلك سببا معروفا، وفي عصر يوم من تلك الأيام اتصلت بي ابنة أخي لتخبرني أن أخاها قد مات غرقا في الترعة المجاورة لمدرسته فأسرعت إلى بيت أخي بملابسي المنزلية وشعري المنكوش.

لم يكن الخبر في البداية مؤكدا، بل كانت الأقوال متضاربة غاية التضارب، فمن قائل إنه نجى، ومن قائل إنه غرق، ومن قائل إنه في مستشفى أو قسم شرطة.

وهذا العليم ببواطن الأمور يؤكد لنا أنه إن كان قد غرق فليس ذلك لأنه لا يجيد السباحة بل لأنه نزل الترعة في ذلك الوقت بالذات ففي كل يوم تقوم العفاريت بتنظيف هذه الترعة في وقت معين بأمر سيدنا سليمان!!!!.

صخب شديد بين الرجال، وصراخ بين النساء، وحكايات خرافية لا معنى لها يحكيها كل من يحب أن يحكي في مثل هذه المواقف، فلا أحد يحدث أحدا، ولا أحد يسمع أحدا وإنما هي أفواه مفتوحة وآذان مسدودة تموج في بحر من كلام، لم يطل بنا المقام في بيت أخي، بل جعلنا ندور بين المستشفيات، وأقسام الشرطة، وشرطة المسطحات المائية، ولم ندع مكانا يمكن الاتصال به أو الذهاب إليه إلا اتصلنا به أو ذهبنا إليه.

وأخيرا تبين لنا أنه قد غرق بالفعل، وقال لنا أصحابه الذين كانوا معه إنه أخذ يطفو ويرسب عدة مرات، وإنهم ألقوا إليه حبلا فاستمسك به قليلا ثم لم يلبث أن تركه، كأنه كان أصغر من أن يهاب الموت أو أجهل من أن يقدر خطورته أو أشد كرها للحياة من أن يستمسك بها.

سكت أخي سكوت العاجز عن الصراخ، وصرخت زوجته صراخ العاجز عن السكوت، وعبثا جهدنا بأخي أن ينفس عن نفسه فلم ينطق، وعبثا حاولنا مع زوجته أن تهدئ من روعها فلم تسكت، استطاع موت ابن أخي أن يحيي في أعماق أخي شعورا قاتلا بالذنب كما استطاع هذا الموت أن يميت معه شيئا من إيمان زوجته بالعناية الإلهية فقد ذهلت أم الصبي ذهولا لا طاقة لي بوصفه، فكانت تبكي، وتصرخ، وتتحرك، وتسكن، وتضحك في أوقات

متقاربة بلا مبرر، وتكلم من عرفت ومن لم تعرف بكلام لا تفهمه هي فضلا عن سامعه، وكانت شرطة المسطحات المائية قد أخبرتنا أنهم سوف يستخرجون جثته في صباح الغد فكانت كلما أفاقت ألحت علينا أن نأخذها إلى الموضع الذي غرق فيه ابنها ولم تكن تطلب هذا الطلب إلا وهي واقفة على الحد الفاصل بين العقل والجنون، كأنها أحست أن ظلمة الليل، وظلمة النهر، وظلمة الحزن، كل هذه الأشياء لن تستطيع أن تحول بين ابنها الغريق وقلبها الملهوف.

وأخيرا قلت لصاحبي بالإنجليزية خذها إلى أي موضع على شاطئ النيل وأخبرها أن ابنها غريق هنا عسى أن يستريح قلبها فكان من العجب أنها فهمت ما أقول.لم تكن أم الصبي متدينة بأي معنى من معاني التدين القادر على أن يهب النفوس الحائرة أو الجزعة ما هي في حاجة إليه من السكينة، بل كان تدينها جزءا من عاداتها الاجتماعية.

فهي تصوم كما تعمل كعك العيد، وتزكي كما تطبخ في المواسم. وأحسب أن الذي حفظ عليها شيئا من إيمانها أنها كانت تريد أبا في السماء يملك الدنيا والآخرة، أبا تغضب اليوم عليه، وتضرع غدا إليه، تغضب اليوم عليه بما سلبها من قرة عينها وما كسر من قلبها، وتضرع غدا إليه أن يلهمها الصبر من ناحية، وأن يسكن ابنها فسيح جناته من ناحية ثانية، وأن يسوقه إليها في أحلامها من ناحية ثالثة.

وهذا هو إيمان العامة، لا يناقش التفاصيل ولا ينفصل عن المنفعة.

وفي مأتمه جهد بي أخي أن ألقي درسا على الحاضرين، فلم يطاوعني قلبي على التفاعل مع الناس، ولا عقلي على التفكير، ولا لساني على النطق، فتركت المايكروفون دون أن أقول جملتين ذواتي معنى.

وكان له من بين أولاد أخواتي صديقان هما شريف وخالد ابنا أختي التي تكبرني، كانا يأتيان إلى بيتنا معه عدة مرات في الأسبوع، فلما مات أصبحت لا أراهما إلا بشق الأنفس، وكان له صديق يأتي إليه من بعيد، فلما مات لم يدخل هذا الصبي حارتنا إلى يوم الناس هذا، كأن حارتنا والطرق المؤدية إليها قد ماتت هي الأخرى في عينه.

ومرت بعد موت ابن أخي سنوات طويلة، أخذت منا ما أخذت، وأعطت لنا ما أعطت، وأبقت ما أبقت، وغيرت ما غيرت، إلا أن شيئا مكسورا قد بقي في أعماقنا جميعا، فأما أمه فقد لحقها من الصبر ما يمكن أن تستمر به الحياة ومن وراء صبرها وضحكها وكلامها ما لا يعلمه إلا الله، وأما أبوه فلم يعد ينظر إلى من بقي من أولاده إلا بعين يملؤها الإحساس بالذنب حيال ابنه المفقود، فأصبح لا يدري أين يضع القسوة وأين يضع الرحمة.

وأما أنا فقد بقي في أعماقي من هذه الحادثة جرح عجيب، إن كان لا يكبر فإنه لا يُشفَى، وإن كان لا يظهر فإنه لا يُنسَى.



ورغم هذا كان يضحك

كان إبراهيم محمود من أعجب المكفوفين الذين لقيتهم لم يكن يشارك الناس فيما يتنافسون فيه من متع الحياة ومصالحها.

فلا هو مغرم بجمع المال، ولا هو مولع بعشق النساء، ولا هو من أهل المزاج بشتى أصنافه، لا ولا كان من الذين يضربون في الطعام ضربة ولي السوء في مال اليتيم.

لم تكن له من دنياه إلا لذة واحدة لا يزيد عليها هي جمع الكتب، ورغم أنه كان متخصصا في النحو فقط فما من فرع من فروع التراث الإسلامي إلا كان إبراهيم يملك كتبه التي ربما لا يملكها المتخصصون فيه.

من ذلك الحديث وعلومه، والتفسير بكل فروعه، والفقه على جميع المذاهب، والأدب العربي عبر عصوره المختلفة بما في ذلك دواوين الشعراء وكتب الناثرين، وعلم الكلام على اختلاف اتجاهاته، والتصوف بمدارسه حتى استطاع أن يمتلك عشرين ألف كتاب. وكان له تشبيه يطلقه على علاقته بالكتب فيقول أنا كالقبر لا يرد ميتا!!!.

وكان عشقه للكتب قد بلغ به حد الهوس الذي جعله يستدين للمكتبات بآلاف الجنيهات. وكنت لا تكاد تسأله عن كتاب تراثي أو متعلق بالتراث قديما كان هذا الكتاب أو حديثا، نادرا أو مشهورا، مخطوطا أو مطبوعا، غفلا من التحقيق أو محققا، نعم لا تسأله عن شئ من هذا إلا أعطاك بيانات كاملة عن الكتاب. فإن كان الكتاب مخطوطا دلك على موضعه في معهد المخطوطات، أو في دار الكتب، أو في قاعة النوادر بالجامعة الأمريكية، أو حيثما كان، وإن كان منشورا نشرة غير محققة أرشدك إلى دار النشر التي تبيعه، ونبهك إلى عيوبه.

وإن كان الكتاب محققا أخبرك عن محققه، ومستوى التحقيق، ومستوى الطباعة، وعدد الأجزاء، ودار النشر التي تبيعه، وتاريخ الإصدار، وأخيرا ثمن الكتاب.

وكان إبراهيم قد حصل على ليسانسين في اللغة العربية أحدهما من كلية التربية بجامعة عين شمس بتقدير جيد جدا والآخر من كلية الآداب بنفس الجامعة ونفس التقدير. لهذا كان من السهل أن يعمل معيدا ثم مدرسا مساعدا بكلية التربية، وكان يذهب إلى الكلية كل أحد وكل ثلاثاء فكان طلاب الدراسات العليا وعشاق المعرفة وأنا منهم يذهبون إليه في هذين اليومين من كل أسبوع.

وكنا نعد هذين اليومين عيدا أسبوعيا لا ينقطع وكان هو يعد نفسه لأن يكون من كبار العلماء وكنا نحن نستعد لذلك منه.

إلا أنه للأسف الشديد قد أصيب بالفشل الكلوي في بداية الثلاثينيات من حياته، فبقي يغسل الكلى أكثر من اثني عشر عاما.

كانت أمراضه لا تزيده إلا إحساسا بالصحة وقربه من النهاية لا يزيده إلا استمساكا بالحياة، لهذا كان راضيا صبورا لا تكاد تسمع منه إلا ضحكاته الخضراء التي تشبه لون الحقول التي يقيم بينها.

فقد كان يعيش في مدينة شبين الكوم وكنت أزوره من حين إلى حين وحدث أني زرته يوما في الصباح الباكر وكان طبيعيا أن أفطر معه فتعلقت قشرة فول بحلقه ولما كان ضعيف المناعة بسبب غسيل الكلى فقد أخذ يتقيأ وأخذ جسمه ينتفض وحاولت أن أسنده فوقعت يدي على موضع الكنولا التي تدخل في يده أثناء الغسيل فإذا هو بارز كأنه ورم مزمن فابتعدت عنه وأنا أحمد الله أنه

أعمى لكي لا يرى دموعي الصامتة. أما هو فقد أخذ يضحك بعد أن تماثل للعافية.

نعم كان إبراهيم شديد الإعراض عما يتنافس فيه الناس كأنه كان جاهلا بالدنيا أو عالما بالغيب. وكانت حلاوة روحه تدعوني إلى أن أضاحكه من حين إلى حين كان ذات يوم مصابا بالبرد وكنت زرته كعادتي وجاءتني الفراشة بالقهوة كعادتها فسمعتني أقول له يا إبراهيم عافاك الله من السلامة وسلمك من العافية فقالت دون تفكير ربنا يسمع منك فقال لها مغتاظا (غوري أنت فاهمة بيقول إيه!!!) وقال لي يوما صُبِحت فقلت له جعلك الله من الممتازين وإنما أشار إلى قوله تعالى (وصبحوا بعذاب) وأشرت إلى قوله تعالى (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) وأردت أن أغيظه يوما فقلت له يا إبراهيم قطع لي هذا البيت. حولوا عنا كنيستكم... يا بني حمالة الحطب. فلما هم بتقطيعه وقع على الإسفاف الذي أردته فأخذ يسبني ويلعنني وأنا أضحك.وكانت له جملة مأثورة هي قوله إني جاهل يستر جهلي شدة جهل الناس.

وكان تعلقه بالحياة يشعرني أنه لن يموت أبدا وحين مات إبراهيم أحسست أن هناك شيئا قد انكسر في أعماقي ولكن دنيانا تعلمنا كيف ننسى الأحباء يوم مات إبراهيم كنت أسأل نفسي أمات حقا؟ واليوم أسأل نفسي أكان موجودا حقا أم كنت من الواهمين ولست أدري سبب هذا النسيان أهي مصداقية الموت أم هي نذالة الأحياء.

***

ومسحت بلاط صاحبة الجلالة

بعد أن تخرجت في الجامعة كانت حياتي المادية ضيقة جدا، وكان لزاما علي أن أعمل أي عمل لتوسعتها.

وعملت بالفعل مدرسا في بعض فصول التقوية الليلية إلا أن عائدها لم يكن مجزيا فاضطررت أن أبحث عن عمل آخر يكفل لي الحد الأدنى من المعيشة.

وكان صاحبي سمير فراج قد امتهن الصحافة وأخذ يمارسها بشكل مبتكر لفت نظري، ففكرت جادا في أن أعمل بالصحافة.

خصوصا أن ذاكرتي لا ينقصها المعلومات، وأفكاري لا ينقصها التنظيم، ولساني لا تنقصه اللباقة، فقط ينقصني أن أعرف الطريق.

وفي مناسبة لست أذكرها الآن تعرفت على الأستاذ أمجد عفيفي أحد أصحاب الوكالة العربية للصحافة، وهي عبارة عن مكتب صحفي يراسل بعض الجرائد العربية ويمدها بشتى المواد الصحفية من سياسة، إلى أدب، إلى فن، إلى دين، إلى رياضة، إلى آخره.

وكانت لهذا المكتب مزية لا توجد في غيره من مكاتب الصحافة هي أنه كان يدفع مكافأة الموضوع قبل النشر، وكانت قلة المكافأة تعوضها سهولة قبول الموضوعات بقطع النظر عن سرعة النشر أو بطئه.

أما أمجد نفسه فقد كان رجلا حنونا رقيق الإحساس حلو الفكاهة تربطه بمن يعملون معه علاقة أبوية فكان يسأل كلا منهم عن حياته الشخصية ويشير عليه بما يجب أن يفعل وكان لا يتردد في تقديم المساعدة لمن يحتاج إليها.

لهذا كنت أكن له حبا واحتراما شديدين وكنت أبذل قصارى الطاقة لأحوز إعجابه، أما هو فكان يشجعني سواء عليه أصبت أم أخطأت وكان يعلمني

مبادئ الصحافة بمنتهى الرفق ومنها أنه لا كلام بلا صور، ومنها أن المصدر إن أطال فلا توقفه بل دعه يقول كل ما يحب ثم قم أنت باختصار ما قال.

ومنها تقديم العناوين الفرعية الجذابة قبل الدخول في الموضوع، ومنها ألا تقتصر على نقل ما يقوله المصدر بل تتعداه إلى وصف حركاته إن تحرك أو تنهداته إن تنهد وذلك لكي لا يكون الحوار جافا لا روح فيه.

ومنها ألا تأخذ من المصدر صورة واحدة بل صورا متعددة لنختار أصلحها للنشر، ومنها أن بعض الموضوعات تصلح للنشر دون بعض فإما أن تكون موضوعات عصرية ملحة أو عميقة ثابتة.

وهكذا أقبلت على ممارسة الصحافة بالمعنى المهني وسرعان ما أصبحت صحافيا محترفا في وقت قصير، وكانت طريقتي في ممارسة الصحافة هي أن أقوم بتسجيل الحوار أو التحقيق كاملا ثم أعهد به إلى من يقوم بتفريغه.

وكنت في أول أمري أحمل جهاز تسجيل في حجم الديك الرومي وأتنقل به من مكان إلى مكان، وكان أول تحقيق قمت به هو عدية ياسين بين الحقيقة والخرافة وكان لزاما علي أن أسأل علماء الأزهر، وعلماء الاجتماع، وقراء القرآن.

وحين توجهت إلى المسجد الحسيني من أجل استكمال التحقيق وذلك بسؤال القراء عن كيفية قراءة العدية وجدته خاليا منهم وحين سألت عنهم خادم المسجد قال لي بعد أن ظنني متسولا (زمايلك كلهم في مولد سيدك إبراهيم الدسوقي، حظك نار هاتاخد الحسنة كلها لوحدك قدم اقعد عند الممبر عشان تاخد حسنتك)، وعبثا حاولت أن أقنعه أنني لست من القراء ولا المتسولين فلم يقتنع.

ما علينا، عملت في الصحافة المنوعة أدب، وفن، ودين، واجتماعيات وبعد فترة قصيرة خطرت لأمجد فكرة غريبة هي أن أقوم بتصوير مصادري بنفسي وعلمني كيف أستخدم الكاميرا بمهارة معقولة عن طريق ضبط يدي بعد أن أبتعد عن الهدف بمسافة مناسبة.

ورغم أنني أتقنت التصوير إلى حد معقول فإن المصادر كانوا يصابون بمنتهى الرعب حين أعرض عليهم أن أصورهم فكانوا يقدمون لي أي عدد أطلبه من الصور!!!.

وكانت الليلة التي تسلمت فيها الكاميرا ليلة سوداء، فقد خفت عليها وهي غالية الثمن أن تنكسر في المواصلات فوضعتها تحت إبطي وقررت أن أمشي بها إلى بيتي، ولك أن تتخيل المسافة من العتبة إلى عين شمس في ليلة رمضانية. أقسم لكم لقد بقيت بعدها ثلاثة أيام في الفراش لا أستطيع أن أرفع يدا أو أضع رجلا.

وأثناء عملي بالصحافة كانت تواجهني عقبتان لم أجد لهما حلا، إحداهما تفريغ المادة المسجلة، وكنت ألجأ في تفريغها إلى من تيسر من الأصدقاء فيقبل بعد أخذ ورد وتعلل بشتى الأسباب الواهية، وأما العقبة الأخرى فهي مُحن المصادر وكانت هذه لا حل لها.

فالمصادر وخصوصا الفنانين تتدلل عليك كما تتدلل لعوب محنكة على مراهق في الإعدادية، وبعد أن نستثني الذين لا يردون على التليفونات أصلا ونتحدث عن الذين يردون فهذا يعطيك موعدا في مكان بعيد جدا ثم تذهب فلا تجده! وهذا يعطيك موعدا في مكان بعيد جدا ثم تذهب فتجده إلا أنه يعتذر لك!! وهذا يرفض أن يتحدث إليك ما لم تكن حاملا كرنيه النقابة كما حدث لي مع الفنان حسين فهمي.

وقد لا يخلو الأمر من شتم تسمعه كما حدث لي مع أم الفنانة إلهام شاهين، فما هو إلا أن ردت علي وأخبرتها أنني أريد أن أجري حوارا مع النجمة حتى اندفعت تقول (اقفل يا حرامي، يا نصاب، بطلو أمور الشحاتة وتلقيح الجتت إتفو) وكانت هذه الحادثة هي السبب المباشر في تركي للصحافة الفنية تماما.

والمصادر مثل الأطفال فالويل لك كل الويل إن أجريت حديثا مع مصدر ثم لم ينشر هذا الحديث لأسباب خارجة عن إرادتك، هنالك يثور المصدر حين يلقاك صدفة فيتهمك بأنك نصاب أو على الأقل بأنك صحفي فاشل كما حدث لي مع المرحوم الدكتور رمضان عبد التواب.

وقد يفسد هذا عليك حوارا مع مصدر جديد جئت من أجله، على أن عملي في الصحافة لم يخل من طرافة.

ففي أحدى السنوات وبعيد عيد الفطر وفي صبيحة ذلك اليوم أكلت الكعك بشيء من الإفراط ثم توجهت للقاء المرحوم الدكتور عبد المجيد مطلوب رئيس قسم الشريعة بكلية الحقوق جامعة عين شمس. وكنت أحمل معي جهاز التسجيل الذي هو في حجم الديك الرومي وفيه شريط مدته تسعون دقيقة، ولست أدري من الذي أقنع الرجل أنني لا أجري معه حديثا صحفيا بل أبحث له عن وظيفة فأخذ يقص علي ما لا طاقة لي بسماعه فضلا عن تذكره.

فلم يدع تفصيلة من تفاصيل حياته إلا ذكرها، وفي منتصف الشريط أصبت بالإسهال نتيجة للإفراط في أكل الكعك، وأخذت أحتمل وأتصبر حتى يفرغ الوجه الأول من الشريط فلا تسلني عما أصابني من الإحباط حين طلب مني الدكتور أن أقلب الشريط ليستأنف حديثه وأخيرا وبعد أن انتهى الشريط

سألني الدكتور إن كان معي شريطا آخر ليتم حديثه فأقسمت له بالله العظيم ثلاثا أن هذا هو الشريط الوحيد الذي معي.

وانتهت المأساة بدخول الحمام، وكان من العجب أن الجريدة التي كنت أعمل فيها لم تنشر من كل هذا إلا عمودا أو أقل من عمود.

أجل لقد عملت في الصحافة سنتين أو أكثر قليلا فقابلت كثيرا من الشخصيات العامة في كثير من المجالات، كالدكتور فرج فودة، والدكتور فؤاد زكريا، والمرحوم الدكتور إبراهيم بيومي مدكور رئيس مجمع اللغة العربية، والأستاذ لويس عوض، والدكتور ميلاد حنا، والفنان صلاح ذو الفقار، والفنانة زوزو نبيل، وغيرهم.

كما اخترعت موضوعات لطيفة مثل عدية ياسين بين الحقيقة والخرافة، وأكلات مشهورة بأسماء مغمورة كنت أبحث فيه عن الأكلات التي سميت بأسماء أشخاص لا نعرف من هم ككفتة داوود باشا، وعزيزة، وأصابع زينب، وشباك الجنة، وأم علي وغيرها.

لقد دخلت الصحافة مكرها مدفوعا بالحاجة وخرجت منها مختارا مدفوعا بالملل ولكنها أمدتني بخبرات كنت بلا شك في أمس الحاجة إليها.



يوم ذقت الحب

قد تكون في حياتنا عقبات ضخمة مزعجة تمثل جزءا لا يتجزأ من دنيانا وقد يخيل إلينا أننا استطعنا التغلب عليها إما بأن نعتادها فلا نكاد نستشعر ضررها، أو بأن نتجاهلها فلا نكاد نجد أثرها، أوبأن نستعين عليها بغيرها فنحسب أننا قد اتقينا خطرها.

وتظل الحال على هذه الشاكلة إلى أن نتعرض لهزة من هزات الحياة العنيفة فإذا الذي كنا نحسب أننا أمناه قد أسفر عن أشد وجوهه قبحا وإذا هو أشبه ما يكون بعصى موسى يلقف ما تأفك الأوهام.

كانت هذه هي حالي مع كف البصر ، فإني لم أعرف شيئا يساويني بالمبصرين إلا عملته.

تعلمت الكتابة على الآلة الكاتبة قبل وجود الكمبيوتر حتى صرت أسرع من بعض المبصرين، وتعلمت الكمبيوتر في شهرين فصرت من أمهر مستخدميه، وعلمت نفسي الإنجليزية بنفسي فكانت إنجليزيتي تعجب الأمريكان، وتعلمت الأعمال المنزلية حين احتجت إليها فأصبحت أعمل الأرز وشربة الكريما خيرا من أمي، وقرأت آلاف الكتب في شتى ألوان المعرفة، وأعددت رسالة دكتوراة في موضوع نادر يحتاج إلى فريق عمل بأكمله، وسافرت إلى أغلب محافظات مصر فعرفت ما فيها ووقفت على طبائع أهلها، وخالطت طبقات الناس على اختلافهم من باعة ومتسولين ولصوص وحرفيين ومشايخ وصحافيين وإعلاميين وفنانين ومسؤولين كبار،ّوملأت القاهرة شعرا وفلسفة وأحاديث ونوادر،وكنت أظن أنني بذلك قد أصبحت فوق العمى أو جعلت العمى بصرا مختلفا.

أجل كنت أظن ذلك إلى أن طاف بي طائف من الحب، نعم طائف من حب تلقاه جسدي برعشة ملساء، وتلقاه قلبي بدقات توشك أن تكون لحنا لا يطمح إلى تأليفه أرقى الموسيقيين وانفتح له باب أيامي على مصراعيه.
نعم حب يشبه الخبر السار في الزمان الكئيب، لهذا كنت فرحا أضحك بلا سبب، وآكل بلا جوع، وأعمل بلا ملل.
أما هي فلا أدري ماذا أقول لكم عنها، لو سمعتم همسها الصاخب أو صخبها الهامس لحسبتم أنها أميرة قادمة من الحواديت القديمة قد تنزلت إلى دنيانا لتمسح على رؤوس اليتامى أو لتبتسم بعض ابتسامة فتنفتح أبواب الحياة في وجوه البائسين.
كانت هي والله أحلى من لحظة الإفطار بعد صيام يوم حار، ففي هذه اللحظة فرحة الإنجاز بعد الصبر، وفرحة الطاعة التي تبدعها العبادة في قلوب المؤمنين.
وكانت ضحكاتها العذبة في مسامعي تشبه الخبز في بيوت الغلابة إن أكلوه أشبعهم، وإن ادخروه طمأنهم، وإن فقدوه بذلوا في طلبه الحياة.
خفيفة الظل كأنها في عمر الدنيا لحظة من لحظات الصفاء النادرة، متواضعة قد آثرت غيرها على نفسها حتى لكأنها بحاجة إلى من يخبرها أنها موجودة وأن لنفسها عليها حقوقا.
تذوب في الشعر كأنها كلمة، وفي الموسيقى كأنها نغمة.
أما حبها لي فدعوني أقل لكم إن قبحي في عينها رائع، وكلماتي عندها شرائع، وإنها تتنفسني دون الهواء وتتعالج بي دون الدواء.

وبعد هذا الذي شرحته لك كم كنت أحبها في ظنك؟ كنت أحبها أضعاف حبها لي، وكنت إذا حدثتها أو سمعت منها يخيل إلي أن كائنات خفية قد قامت بتوسيع الدنيا فجأة، ولم تكن هي تسكب الأحاديث في مسامعي كما يسكب الناس الماء، بل كانت تزرع بين كل جملتين شجرة تستريح تحتها بعض الوقت، كان كلامها الموجز العذب يصلح أن يوزع في أعياد الميلاد على أنه نوع من الحلوى.

ولو أنك ألقيت إليها السمع وهي تقول لي قبل العشاء)كل كويس) لحسبتها قد تعلمت اللغة قبل أن تخترع الإنسانية الشر فليس في كلامها منه شئ.

ويوم التقينا لقاءنا الوحيد بعد ترقب طويل كان يوم لقائنا عيدا قد أشرقت شمسه ليلا، حين مسست يدها برفق خيل إلي أن أصابعها الخمس ليست مجرد خمس أصابع، بل خمس كلمات جديدة في الحب وكأن كل يد من يديها تصلح أن تكون أُما يأوي إليها الضائعون من أطفال العالم!! كان صوتها يهمس في أذني، ويدها تغني في يدي، نعم خيل إلي من رقتها أنها لا تشرب العصير بل العصير هو الذي يشربها، كنا في مكان مزدحم لم نلتفت فيه إلى أحد، ولم يبق فيه أحد إلا التفت إلينا.

كانت الهمسات واللمسات والضحكات تتردد بيننا كطائرات الورق التي يطيرها الأطفال فوق أسطح البيوت أو في الأماكن الواسعة. وكانت مناقشة التفاصيل التافهة أو استعادت بعض الذكريات القريبة أو البعيدة تحدث في نفوسنا خدرا لذيذا يعرف كيف يذهب بالزمن.

لأجل هذا جميعا لم أحتج إلى وقت طويل لكي أعلم حين عرفتها أنها هي التي أنتظرها طول عمري، ويوم فكرت في أن أعرض عليها الزواج خفت عليها

أن تقتلها الفرحة، لأن الفرح والحزن كليهما قد يقتلان القلب الذي يعجز عن تحملهما.

وكانت المفاجءة التي لم تخطر لي ببال حين عرضت عليها الزواج فلم يتحرك لها ساكن بل اجتاحها طوفان من التردد الذي لم أعرف له سببا.

أخذ الكلام يتعثر في فمها ، تعثر الطفل الذي يتعلم المشي،حين طلبت منها الزواج)نعم ولكن ... ولكن ماذا؟ أريد أن أقول ... تقولين ماذا؟ المسألة أنه ... أنه ماذا؟ لا بد أن أستشير) وحين قالت هذا أصابني قلق مروع، لأنني أعلم أن العاشق لا يستشير وأن المستشير ليس بعاشق.

وبعد ذلك بأيام قليلة قالت بنبرات يتخللها الحزن: دعنا نكن أصدقاء، وحين قالت هذه الجملة أصابتني من الداخل زلزلة عنيفة، ولم أعرف ما أقول، وبدلا من أن تقتلها الفرحة قتلتني الدهشة، وكان علي أن أعرف لماذا رفضت الزواج؟ ولم يخطر ببالي ما قالت لأنني كما قلت لكم كنت قد أوشكت أن أنسى مسألة العمى هذه.

وافترقنا حينا من الدهر، فلم أطق أنا ولم تطق هي مزيدا من التباعد، فلم نلبث أن تراجعنا وإذا حبنا قد عاد أشد مما كان عليه من قبل، وأخذت أعيد عليها الكلام، ولم أزل ألح عليها في أن تطلعني على الأسباب الحقيقية وراء هذا الرفض.

وبعد إلحاح طويل في أيام كثيرة قالت لقد استشرت الناس فقالوا إن في زواجك منه مخاطرة كبيرة.

فمن ناحية سوف تكون لغة النظر مفقودة بينكما تماما وهي لغة مهمة بين كل زوجين يتفاهمان بها حين يكونان بين جمع من الناس خصوصا حين يحتاجان

إلى التلميح دون التصريح، ومن ناحية لعله يشك فيك حين تمشين معه في الشارع أن تكوني قد ضحكت لهذا أو أعطاك هذا رقم تلفونه لأن عجزه عن النظر قد يملأ نفسه شكا ويجعل صدره ضيقا وانفعاله حادا سريعا، ومن ناحية أنت ممن يحبون الأناقة ويعنين بالجمال، وهو لن يستطيع أن يقدر هذا على الوجه الأكمل.

فأنت ربما تضعفين أمام الكلمات الحلوة التي قد يقولها لك غيره تعبيرا عن هذه الأناقة، وأي إحساس تشعرين به حين يعجب الناس جميعا بفستان الفرح وهو لا يستطيع أن يراه؟ ومن ناحية حين تعيدين ترتيب البيت وتتأنقين فيه غاية التأنق فإنه لن يلتفت إليه ولن يشعر به.

وإذا كان لكما طفل فإن طفلك قد يفسد في البيت وأنت مشغولة وزوجك عاجز عن متابعته، ..... إلى غير ذلك مما يدخل في جنسه.

ولا داعي أن أخبركم بردي عليها حسبي أن أقول لكم إن هذا الحب الذي كان لي جناحا أطير به إلى السماء السابعة قد أصبح مجرد جثة ملقاة في داخلي، أو كومة من الأحاسيس الثقيلة كلما مضيت أتجول في أعماق نفسي عثرت بها.

سوف يقول بعضكم إنها محقة لأن العمى خرس في الوجه كما أن الخرس عمى في الألسنة، ومن حقها أن تستمتع بالعيش مع رجل مكتمل يسارقها النظر، ويبدي إعجابه بوجهها حين يتلألأ حسنا، ويشاركها الإحساس بكل ما يمكن مشاهدته، ويرى خيال الجنس في عينيها حين تحتاج إليه، فيسارع إليها دون أن يجشمها عناء الطلب الصريح.

وسوف يقول بعضكم إنها تافهة لأن الحياة لا تبنى وتنهدم على مثل هذه القشور السطحية وما من شيء يمكن التعبير عنه بالنظر إلا ويمكن التعبير عنه بغيره، والحياة تستمر حين يريد لها الأحياء أن تستمر.

وسوف يقول آخرون إنها محبة ولكنها ضعيفة خائفة وإذا كان الحب يخصنا وحدنا فإن بناء البيوت يخصنا ويخص غيرنا.

حسنا فليقل كل واحد منكم ما يبدو له ولكن التجربة التي مررت بها قد وضعتني وجها لوجه أمام حقيقة مؤكدة هي أن الهين علينا قد يكون ضخما في أعين غيرنا، فحين سمعت منها ما سمعت عاودني بعد الشعور بالبطولة شعور آخر بالضعف والانكسار.

فمع كل نجاح أنجزته وجع يقلل قيمته.

مع المشي الطليق الحر في الشوارع لا بد من عصى، ومع عبور الشارع لا بد من مبصر يقظ نعبر معه الشارع بخوف، أو مهمل نعبر معه الشارع بكارثة، ومع القراءة لا بد من متطوع مجتهد أو كسول يلقي إليك فتات الجهد والزمن، ومع الدراسة العالية ضعف ما كان يجب أن يمر من الزمن، ومع المهارة في الأعمال المنزلية عشوائية قد تنتابني حين ترتعش الملعقة في يدي وأنا أرفع الطعام إلى فمي.

والحب إحساس معسول حين لا تدخله المسؤولية فإن دخلته المسؤولية فإن هناك حسابات أخرى تتحكم في واقعه ومصيره.

لهذا أرجوكم أن تصدقوني حين أقول لكم إنني لست ساخطا عليها غاية ما هناك أن فكرة زواجي منها أصبحت مزعجة بالنسبة لي لأن أوسع أبواب التعاسة في الحياة الزوجية هو أن يدخل أحد الطرفين هذه العلاقة وهو يشعر

أنه يقدم تنازلات، لأنه في هذه الحال سوف يندم عند كل عقبة تواجهه ويتحسر على كل ما ليس بين يديه حتى وإن كان لا يصلح له.

هذا هو المنطق، ولكن المنطق لا يغني من الحب شيئا، فكم من مرة تذكرتها فيها، فيعصف بي من الحنين ما لا طاقة لي به، نعم أذكرها بين الحين والحين، فأحس أنني قربان يبحث عن إله، أو معبد ليس فيه كاهن، أو صلاة لا تجد من يصليها، أذكرها فأمضي إلى حيث التقينا ذات يوم، وأستبقي مقعدها الفارغ إلى جواري، وأطلب لها عصيرا لا أشربه، وأعلم أنها لن تشربه، وأنتظرها وأنا أعلم أنها لن تأتي أبدا.

وأقص عليها بيني وبين نفسي ما جرى لي وهي بعيدة، بل ربما يساورني القلق حين تتأخر هي عن موعدنا الذي لا علم لها به!!! وأي عجب في هذا؟ أليست الأيام في الزمان مثل الطرق في المكان؟ تجمع المفترقين، وتفرق المجتمعين، وبين الاجتماع والافتراق توجد قلوب قد رأت ما حل بغيرها من العشق فهي تسأل الله ألا يحل بها أبدا، وقلوب لا عهد لها به، فهي تسأل الله أن يتنزل عليها العشق، وقلوب وجدت في الحب السعادة، فهي تسأل الله دوام الحال، وقلوب لم تذق من الحب إلا الحرمان، فهي تسأل الله الصبر.

***

قائمة المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة